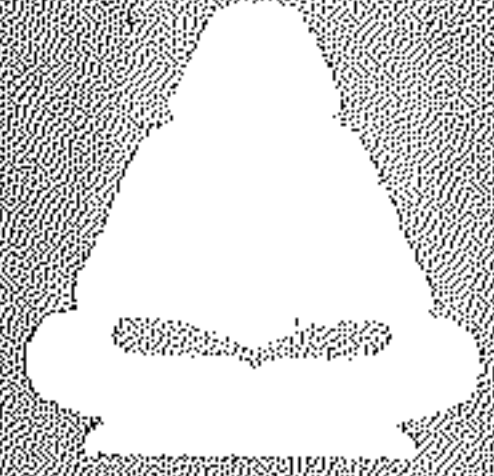


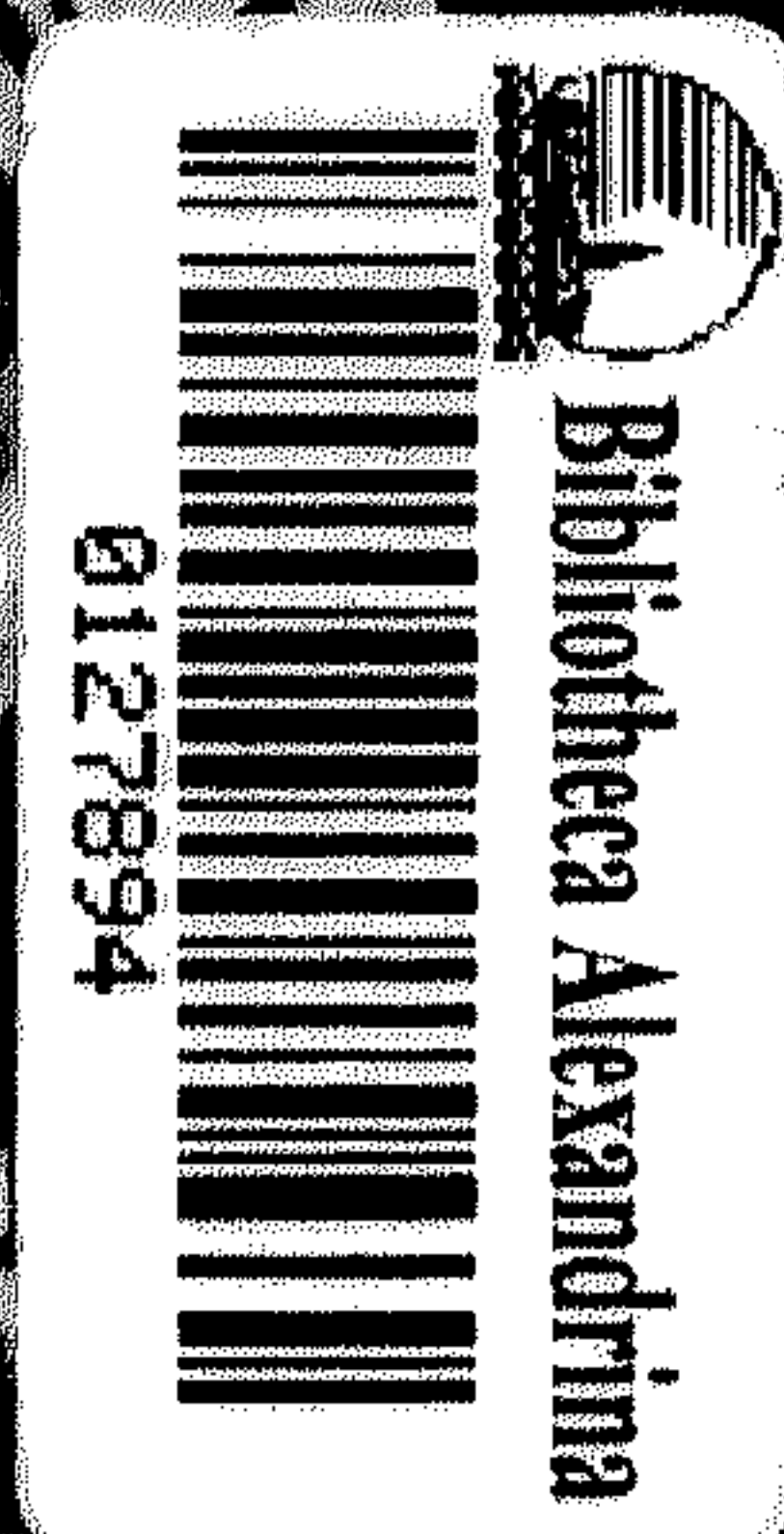
محنة الإسلام الكبرى

أو زوال الخلافة العباسية من بغداد
على أيدي المغول

الألف
كتاب
الكتاب



المكتبة الوطنية
جمهورية مصر العربية



تأليف: د. مصطفى طه بدر

الأعمال
المختارة

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العاطية

الإشراف العام

الدكتور / سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

سكرتير التحرير

علياء أبو شادي

المشرف الفني العام

محسنة عطية

محنة الإسلام الكبرى

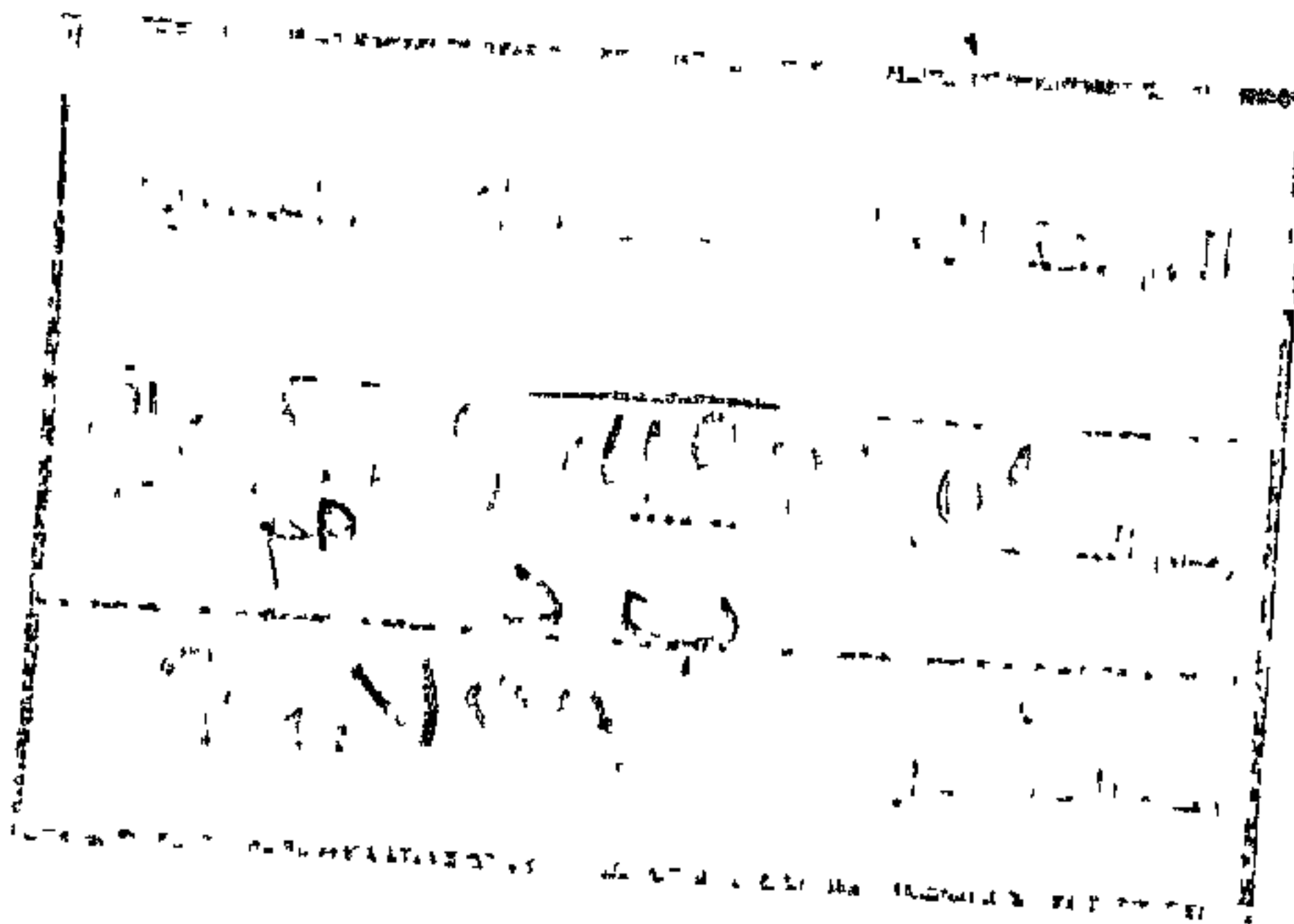
أو

زوال الخلافة العباسية من بغداد
على أيدي المغول

تأليف

د. مصطفى طه بدر

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٩٩٩٩

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---------|--------|
| تصدير | ٩ |
| مقدمة | ١٣ |

الباب الأول

ضعف الخلافة العباسية

| | |
|----|--|
| ١٧ | الفصل الأول : تخلص الخلفاء العباسيين من السلاجقة |
| ١٧ | نبذة عن ضعف الخلافة العباسية حتى آخر عهد بنى بويه |
| ١٨ | ١ - اضمحلال السلاجقة وأسبابه |
| ٢٠ | (أ) ضعف شخصية السلاطين |
| ٢٤ | (ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي |
| ٢٥ | (ج) ظهور دول الأتابكة |
| ٢٧ | (د) ظهور طائفة الاسماعيلية |
| ٢٩ | ٢ - حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين وأثرها فى زوال النفوذ السلجوقي من العراق |
| ٣٩ | الفصل الثانى : أيام العباسيين الأخيرة فى العراق |
| ٣٩ | ١ - الحالة الداخلية |
| ٣٩ | (أ) الناحية السياسية |
| ٤٧ | (ب) الناحية الحربية |
| ٤٩ | (ج) الناحية الطائفية : أهل السنة ، أهل الشيعة ، أهل الذمة |
| ٥٢ | (د) الناحية العمرانية |
| ٥٤ | ٢ - الحالة الخارجية |

الموضوع الصفحة

| | |
|----|---|
| ٥٤ | (أ) العالم الاسلامى فى عهد استقلال الخلفاء |
| ٥٤ | ١ - الدولة السلجوقية فى فارس |
| ٥٦ | ٢ - الدولة الخوارزمية |
| ٥٧ | ٣ - الاسماعيلية |
| ٥٩ | ٤ - الدول الأيوبية |
| ٦٢ | ٥ - الروم السلجقة |
| ٦٣ | ٦ - أتابكة الموصل |
| ٦٣ | (ب) علاقة الخلافة العباسية بالدول الاسلامية |
| | ١ - تأمين العراق من الأخطار الخارجية |
| | الخلفاء العباسيون وسلجقة فارس ، الخلفاء |
| | العباسيون والدولة الخوارزمية استدعاء |
| ٦٤ | ال خليفة الناصر للمغول |
| | ٢ - نشر نفوذ الخلافة العباسية فى العالم |
| | الاسلامى . علاقات الخلفاء العباسيين مع |
| | الأيوبيين ، علاقاتهم مع الاسماعيلية ، أثر هذه |
| ٦٨ | العلاقات فى مصير الخلافة العباسية |

الباب الثانى

انتشار نفوذ المغول

| | |
|----|---|
| ٧٣ | الفصل الأول : البيئة المغولية وأثرها فى تكوين المغول |
| | ١ - بيئة المغول الأصلية : منغوليا ، سطحها ، مناخها ، نباتها ، |
| ٧٣ | حيوانها |
| ٧٦ | ٢ - معيشة المغول |
| ٧٧ | (أ) المأكل |
| ٧٨ | (ب) الملابس |
| ٧٩ | (ج) المسكن |
| ٨٠ | (د) القوانين : نظم الزواج ، القوانين الجنائية |
| | (هـ) الدين - الشامانية ، معتقداتها ، رجال الدين |

| الموضوع | الصفحة |
|--|--------|
| معارفهم • نفوذهم • • • • • | ٨٢ |
| ٣ - صفات المغول : الصفات الجسمية وملاءمتها للبيئة المغولية ، الخلقية : الشجاعة ، الصراحة ، الطاعة ، الصبر ، الفروسية • • • • • | ٨٤ |
| ٤ - جيوش المغول : تنظيمها ، امدادها بالأسلحة ، خططها الحربية • • • • • | ٨٩ |
| ٥ - المغول فى نظر المؤرخين : ابن الأثير ، ياقوت ، الجوينى . روجر بيكون ، وليام الكربينى ، مجموعة كمبريدج دوسون • • • • • | ٩٢ |
| ٦ - رأينا الخاص فى المغول • • • • • | ٩٥ |
| الفصل الثانى : توحيد المغول • • • • • | ٩٩ |
| ١ - أصل المغول • • • • • | ٩٩ |
| ٢ - الأمم المغولية القديمة • • • • • | ١٠٠ |
| ٣ - حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى • • • • • | ١٠٠ |
| ٤ - توحيد الأمم المغولية القديمة على يد تيموجين • • • | ١٠٢ |
| (أ) حرب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة • • | ١٠٣ |
| (ب) حرب تيموجين الفردية • • • • • | ١٠٤ |
| ١ - حرب المركيت • • • • • | ١٠٤ |
| ٢ - حرب النيمان • • • • • | ١٠٥ |
| ٣ - حرب القنار • • • • • | ١٠٦ |
| ٤ - حرب الكريت • • • • • | ١٠٦ |
| الفصل الثالث : التوسع المغولى فى آسيا وأوروبا • • • | ١٠٩ |
| ١ - جنكيزخان • • • • • | ١٠٩ |
| (أ) المرحلة الأولى : اخضاع امارات الكمكجرت والقرغيز والويغور وكياالج والملج • • • • • | ١١٠ |
| (ب) المرحلة الثانية • حروب جنكيزخان فى مملكة | |

- ١١٠ . التنجوت في كوريا ، حروب مع أسرة كين
(ج) المرحلة الثالثة : حروب جنكيزخان ضد امبراطورية
خوارزم ، القضاء على سلطان محمد خوارزم
- ١١١ . طرد جلال الدين منكبرتي الى الهند . .
- ١١٣ ٢ - عهد خلفاء جنكيزخان (أخطاي وكيوك) . . .
- (أ) نشر نفوذ المغول في الصين : قضاء أخطاي على
أسرة كين ، محاربة أخطاي لأسرة سنج في الصين
- ١١٣ الجنوبية ، أخضاع أخطاي لكوريا . . .
- (ب) نشر نفوذ المغول في أوروبا : حملة باتو وأعمالها
- ١١٥ الحربية في روسيا وبولونيا وهنغاريا . . .
- (ج) نشر نفوذ المغول في غرب آسيا : قضاء أخطاي على
نفوذ جلال الدين منكبرتي ، نشر نفوذ المغول في
أذربيجان وجورجية وأرمينية ، تغلغل النفوذ المغولي
في بلاد الروم السلجقية وأرمينية الصغرى
- ١١٧ (قيليقية) وسورية
- (د) غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية :
غارات المغول السنوبية على العراق ، الخليفة
المستنصر والخطر المغولي ، الخطر المغولي في أوائل
- ١٢٠ عهد الخليفة المستعصم

الباب الثالث

الفتح المغولي للعراق

- ١٢٣ الفصل الأول : بغداد قبيل الفتح المغولي
- ١ - طبوغرافية بغداد : اشارة الى بغداد كما بناها المنصور
اتساعها ، بغداد الشرقية ومحلاتها ، اتساع بغداد الشرقية
في أيام بنى بويه والسلجقة ، بغداد عند محاصرة هولاكو
- ١٢٣ لها : محلاتها ، قصور الخلفاء وما بقي من ماضيها .
- ١٣٠ ٢ - حكم المستعصم ببغداد
- (١) أخلاقه وصفاته

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| (ب) الحالة الداخلية فى عهده | ١٣٢ |
| ١ - النزاع بين الرؤساء فى بغداد | ١٣٣ |
| ٢ - ضعف الجيش | ١٣٥ |
| ٣ - اضطراب الأمن فى بغداد | ١٣٦ |
| (ج) الحالة الخارجية | ١٣٧ |
| ١ - العالم الاسلامى | ١٣٨ |
| (١) مصر | ١٣٨ |
| (ب) بلاد الشام | ١٤٠ |
| (ج) اسيا الصغرى | ١٤٠ |
| (د) بلاد الجزيرة | ١٤١ |
| (هـ) الاسماعيلية | ١٤٢ |
| ٢ - علاقة الدول الاسلامية بالخلافة فى أيام المستعصم | ١٤٢ |
| الفصل الثانى : حملة هولاكو | ١٤٧ |
| ١ - اعداد الحملة : ارتقاء مانجو عرش الخانية ، حملة فارس ، اعدادها ، نصيحة مانجو لهولاكو قبل سيره ، خروج هولاكو من قره قورم ، الطريق الذى سلكه هولاكو . | ١٤٧ |
| ٢ - قضاء هولاكو على الاسماعيلية : ضعف ركن الدين خورشاه ، الدور الذى قام به نصير الدين الطوسى | ١٥١ |
| ٣ - قضاء هولاكو على الخلافة العباسية : وصول هولاكو الى همزان | ١٥٦ |
| (١) دعوة الخليفة المستعصم الى التسليم : تبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة | ١٥٨ |
| (ب) الاستعداد للحرب : استيلاء جيوش هولاكو على الأماكن الواقعة فى الطريق ، استئناس هولاكو برأى الفلكيين ، رأى الفلكى حسام الدين ، رأى نصير الدين الطوسى | ١٦٠ |

| | | |
|--------|--|-----|
| (ج) | مسيرة هولاكو الى بغداد : محاولة استمالة الأتراك فى جيش الخليفة ، ارسال بيجونويان لمهاجمة بغداد من الغرب ، حروب بيجونويان مع جيوش الخليفة ، وصول الجيوش المغولية الى بغداد | ١٦٣ |
| (د) | حصار بغداد | ١٦٩ |
| (هـ) | سقوط بغداد : محاولة المستعصم استمالة هولاكو قتل سليمان شاه الدفتردار ، عرض كيار أهل بغداد تسليم المدينة الى هولاكو ، تسليم الخليفة ، دخول الجيوش المغولية ببغداد ، أعمال القتل والنهب ، اذلال الخليفة ، قتله | ١٧٣ |
| (و) | اتمام فتح العراق | ١٨٥ |
| | الفصل الثالث : موقف أهل بغداد من الفتح | ١٨٧ |
| ١ - | موقف أهل السنة | ١٨٧ |
| | (أ) الخليفة المستعصم | ١٨٨ |
| | (ب) الدفتردار الصغير | ١٩٠ |
| | (ج) سليمان شاه | ١٩١ |
| ٢ - | موقف الشيعة | ١٩١ |
| | (١) موقف الوزير ابن العلقمى | ١٩٤ |
| ١ - | المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمى بالخيانة وأقوالهم | ١٩٤ |
| ٢ - | المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمى وأقوالهم | ٢٠٢ |
| ٣ - | مجهود الفرنجة فى بحث موقف ابن العلقمى | ٢٠٤ |
| ٤ - | تحليل أقوال المؤرخين فى موقف ابن العلقمى | ٢٠٧ |
| | (أ) تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمى | ٢٠٨ |
| | (ب) تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون عن ابن العلقمى | ٢١١ |
| ٥ - | الرأى الأخير فى ابن العلقمى | ٢١٣ |
| ٣ - | موقف أهل الذمة : انضمام اليهود للمدافعين عن بغداد مساعدة المسيحيين للمغول | ٢١٥ |
| | خاتمة القول فى زوال الخلافة من بغداد | ٢١٨ |

تصدير

هذا الكتاب يبحث فى تاريخ عصر يعد بحق من أهم العصور الاسلامية ، هو ذلك العصر الذى ظهرت فيه دول اسلامية - كالدولة السلجوقية والدولة الأيوبية - كان لها أثر بالغ فى تقدم الحضارة الاسلامية وفى حماية الاسلام من خطر الصليبيين ، وذلك على الرغم من أن هذا العصر كان عصر انحلال الدولة العباسية الذى انتهى بسقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وزوال الخلافة العباسية وانتقالها بعد قليل الى مصر ، حيث حلت القاهرة محل بغداد ، وقام المماليك - كما قام السلاجقة والأيوبيون من قبلهم - بالدفاع عن الاسلام ، وأحرزوا نجاحا تاما فى الوقوف فى وجه التتار الذين اجتاحتوا الدول وثلثوا العروش فى الشرق والغرب .

وان بعض مظاهر العصر العباسى الثانى فى الدول الاسلامية عامة وفى العراق خاصة قد نالت ما تستحقه من العناية والاهتمام ؛ بفضل ما بذله الدكتور مصطفى طه بدر من جهود فى اماطة اللنام عن كثير من المسائل التاريخية المعقدة ، ولا غرو فقد ألقى على هذه المسائل ضوءا كشف به عن كثير من غوامضها ، وأرجو أن يلقى ظهور هذا الكتاب الممتع ما يستحقه من اهتمام قراء العربية ولا غرو فانه عمل علمى دقيق ، بذل فيه صاحبه مجهودا علميا موفقا واستطاع أن يحل كثيرا من المسائل التاريخية الغامضة ، ولا سيما

موقف ابن العلقمى وموقف طوائف بغداد على اختلاف نحلها
ومذاهبها من الفتح المغولى ، وما كان لهذا الفتح من أثر فى
العراق بوجه خاص وفى الدول الاسلامية بوجه عام .

وأرجو أن تتاح الفرصة قريباً لظهور كتاب آخر قام به
المؤلف تحت إشرافى ونال به درجة الدكتوراه فى الآداب
(التاريخ الاسلامى) وموضوعه « ايران فى عهد غازان
وعلاقتها بمصر بوجه خاص » فهذا الكتاب يتم ما بدأه
الدكتور مصطفى طه بدر من دراسة تاريخ الشرق الاسلامى
فى العصور الوسطى ، ومحاولة كشف ذلك الدور المهم الذى
قامت به مصر فى ذلك العصر دفاعاً عن كثير من البلاد
الشرقية والاسلامية ، وحالت دون وقوعها فى أيدي المغول ،
ويبحث هذا الكتاب فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامى .

وأرجو أن يكون نشر هذين الكتابين باكورة لأبحاث
علمية متصلة يقوم بها الدكتور مصطفى فى سبيل نشر كثير
من المؤلفات فى التاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية وأن
يكون ذلك مساهمة منه فيما يقوم به قسم التاريخ فى كلية
الآداب بجامعة فؤاد الأول فى سبيل احياء تراث الاسلام .

د . حسن ابراهيم حسن

١٩٤٧/٦/٢

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين • أما بعد ، فهذا كتاب جديد فى موضوعه يتناول بالتأريخ فترة من فترات التاريخ الاسلامى التى أهملها الناس من زمن بعيد ولا يكاد يعرف عنها الكثيرون الا القليل • فترة يكاد يكون المعروف عنها طيفا غامضا وسرايا خادعا • وهذه الفترة لها أهميتها العظيمة بغير شك وان كانت فترة اضمحلال قد انتهت الى زوال ، وذلك لأن فترات العظمة والقوة ان كانت دراستها تفيد للمثل والقُدوة فان فترتنا التى نؤرخها وأمثالها تفيد للعظة والعبرة • اذ لا شك أن التاريخ هو المعلم الأول الذى يحفظ ذكريات الماضى وتجاربه ليعرضها على الناس لتكون لهم هداية ونورا يسلكون بفضله الطريق ويصلون الى بر السلامة • وقد تكون فترات المحن والاضطرابات أفضل من فترات الهدوء والاستقرار فى تبليغ هذه الرسالة العزيزة •

ولن أتكلم هنا كثيرا على الموضوعات التى يتناولها الكتاب والنقط المهمة التى يعالجها ، فحسب القارئ أن يتصفح الفهرس أو يقلب الصفحات ليبدو له الكتاب على حقيقته • ولكن يكفى أن أشير الى أن القارئ لهذا الكتاب

يستطيع أن يكون صورة واضحة للعالم الاسلامى فى أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ويرى كيف اصبح هذا العالم مسرحا لظهور كثير من الدول الصغيرة المتباغضة المتنازعة ، بعد أن كانت تجمعه سلطة واحدة وتظله راية واحدة هى راية الخلافة العباسية ذات المجد التليد والصيت البعيد * وقد أدى هذا الى ضعفه أمام الخطر الأكبر الذى ظهر فى تلك العصور ، وهو خطر المغول وعجزه عن مد يد المساعدة الى الخلافة العباسية حين هدها هذا الخطر بالزوال *

ويستطيع القارئ أيضا أن يكون صورة جلية للخلافة العباسية منذ أخذ الضعف يدب فى أرجائها ويحيلها الى هيكل أجوف قد عدم الحياة والقوة ، ويجعلها ألعوبة فى أيدي الأجانب يفعلون بها ما يشاءون دون أن تملك لنفسها نفعا ولا ضرا * حقا انها آفاقت من غشيتها مدة من الزمن وأخذت تحاول استعادة شىء من عظمتها الزاهية وقوتها المتداعية ؛ ولكنها على ما يبدو كانت قد نسيت كيف تلعب دورها وفقدت ارادتها فلم تستطع أن تصل الا الى مظاهر جوفاء واحترام شكلى ونفوذ اسمى لم ينفعها عندما تعرضت للخطر المغولى العظيم *

أضف الى ذلك أن هذا الكتاب يقدم لأول مرة فى اللغة العربية وبالأسلوب العلمى الحديث ، صورة كاملة مجسمة للمغول فلا يهمل ذكر البيئة التى نشأوا فيها ولا أثر هذه البيئة فى صفاتهم البدنية والخلقية ، كما يعنى عناية فائقة بتوضيح قوانينهم ونظمهم الحربية ، ويتناول الكلام على نشأتهم الأولى واتمام وحدتهم السياسية فى عهد عاهلهم

العظيم جنكيزخان وتوسعهم فى آسيا وأوروبا وتقديمهم
تدريجيا نحو العراق العربى فى عهد خلفائه .
وكل هذا الذى مضى لا يعد شيئا مذكورا بجانب ما ورد
فى الكتاب عن ذلك الحدث التاريخى المهم ، وهو حملة هولاكو
التي قضت على الاسماعيلية ثم على الخلافة العباسية . ولا شك
أن القارىء هنا سيشبع عاطفة حب الاستطلاع فيه التي
طالما سمعت عن قصاء المغول على الخلافة العباسية أو قرأت
القليل دون أن تجد ما يشفى غلتها . اذ سيري أمام عينيه
كيف أعدت حملة هولاكو هذه وكيف سارت فى طريقها وكيف
استطاعت أن تقضى على مقاومة الاسماعيلية وتجعلهم أثرا
بعد عين ، ثم كيف تبودلت المراسلات بين هولاكو وبين الخليفة
العباسى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وكيف سار المغول
نحو بغداد وأحاطوا بها وكيف انتهى أمرهم باذلالها واذلال
الخليفة وقتله بعد قتل رجال الدولة وأغلبية سكانها ، وكيف
كانت هذه النتيجة المؤلمة أثرا من آثار ضعف شخصية الخليفة
وضعف مركز الخلافة بوجه عام .

وسيرى أيضا كيف كان موقف كل طائفة من طوائف
بغداد المهمة ، وهى أهل السنة والشيعة واليهود والنصارى
أمام هذه النازلة . كما سيري موقف بعض كبار الرجال من
أمثال ابن العلقمى والدفتردار الصغير وسليمان شاه وحكم
التاريخ عليهم . وفى الختام سيري وصف الأحوال والفضائع
التي حلت بالاسلام والمسلمين فى تلك الظروف القاسية .
وما كان لازالة الخلافة العباسية من بغداد من أثر فى حياة
المسلمين السياسية والأدبية فى العصور التالية .

وأحب أن يعلم القارىء أن هذا الكتاب ألف منذ سنوات
وقدم كرسالة حصلت بها على درجة ماجستير فى التاريخ من

محنة الاسالم الكبرى

كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى يونيه سنة ١٩٣٩ ، وأن
أكبر الفضل فيما يبدو فيه من ترتيب وتنظيم يرجع الى
أستاذنا الدكتور حسن بك ابراهيم حسن الذى أشرف على
الرسالة أثناء وضعها وكان خير مرشد وموجه لنا .

وأسأل الله أن يوفقنا جميعا الى ما فيه خير العلم وطالبه

الجيزة فى ١٩٤٦/١٢/٩ مصطفى بدر

الباب الأول

ضعف الخلافة العباسية

الفصل الأول

تخلص الخلفاء العباسيين من السلاجقة

يرجع ضعف الخلافة العباسية الى عدة أسباب منها اعتماد العباسيين على الفرس والأتراك ، وسوء معاملة هؤلاء الخلفاء لأعدائهم السياسيين من أمويين وعلويين مما كان سببا في انسلاخ كثير من أجزاء دولتهم كما حدث في الأندلس وشمال افريقية ، ومما كان سببا أيضا في ظهور الحركات الهدامة ، مثل حركة صاحب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠) والقرامطة ، وكذلك ولاية العهد لأكثر من واحد ، ونحن لا ننسى ما كان لذلك من أثر في قيام النزاع بين الأمين والمأمون ، والعصبية في الجيش العباسي بين اليمينية والمضرية ، وقد كان لها أثر كبير في ضعف الدولة العباسية في بلاد المغرب والأندلس . وغزوات البيزنطيين وتنافس الكبراء على الوزارة كانت من عوامل ضعف الخلافة العباسية أيضا ، ولا يمكن أن ننسى ما كان من ارتقاء خلفاء ضعاف عرش الخلافة من أمثال المقتدر

(٢٩٥ - ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ - ٩٣٢ م) الذى كان مسرفا فى وقت قل فيه دخل الدولة والذى ترك أمر الدولة للنساء .

وقد حاول الخليفة الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ = ٩٣٤ - ٩٤٠ م) أن يخلص الدولة العباسية من الضعف فأنشأ منصب أمير الأمراء (١) (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) ولكن محاولته هذه أتت بعكس ما كان يؤمل ؛ بسبب تنافس الكبراء على هذا المنصب كما كان من قبلهم يتنافسون على الوزارة .

وكان من أثر التنافس على امرة الأمراء بين الكبراء توجيه نظر الأجانب الى العراق ، فاستولى عليه الحمدانيون فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ ثم جاء بعدهم معز الدولة بن بويه (٢) (جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ) وأسس دولة ظلت قائمة أكثر من مائة سنة (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) تناوب السلطة فيها أحد عشر أميرا كان آخرهم خسرو فيروز الذى يطلق عليه الملك الرحيم ، ولم تنته أيام بنى بويه فى العراق الا على يد طغرلبيك السلجوقى الذى دخل بغداد وقبض على الملك الرحيم وأتباعه فى رمضان سنة ٤٤٧ هـ (٣) وبذلك بدأ عهد النفوذ السلجوقى فى العراق الذى ظل حتى سنة ٥٥١ هـ .

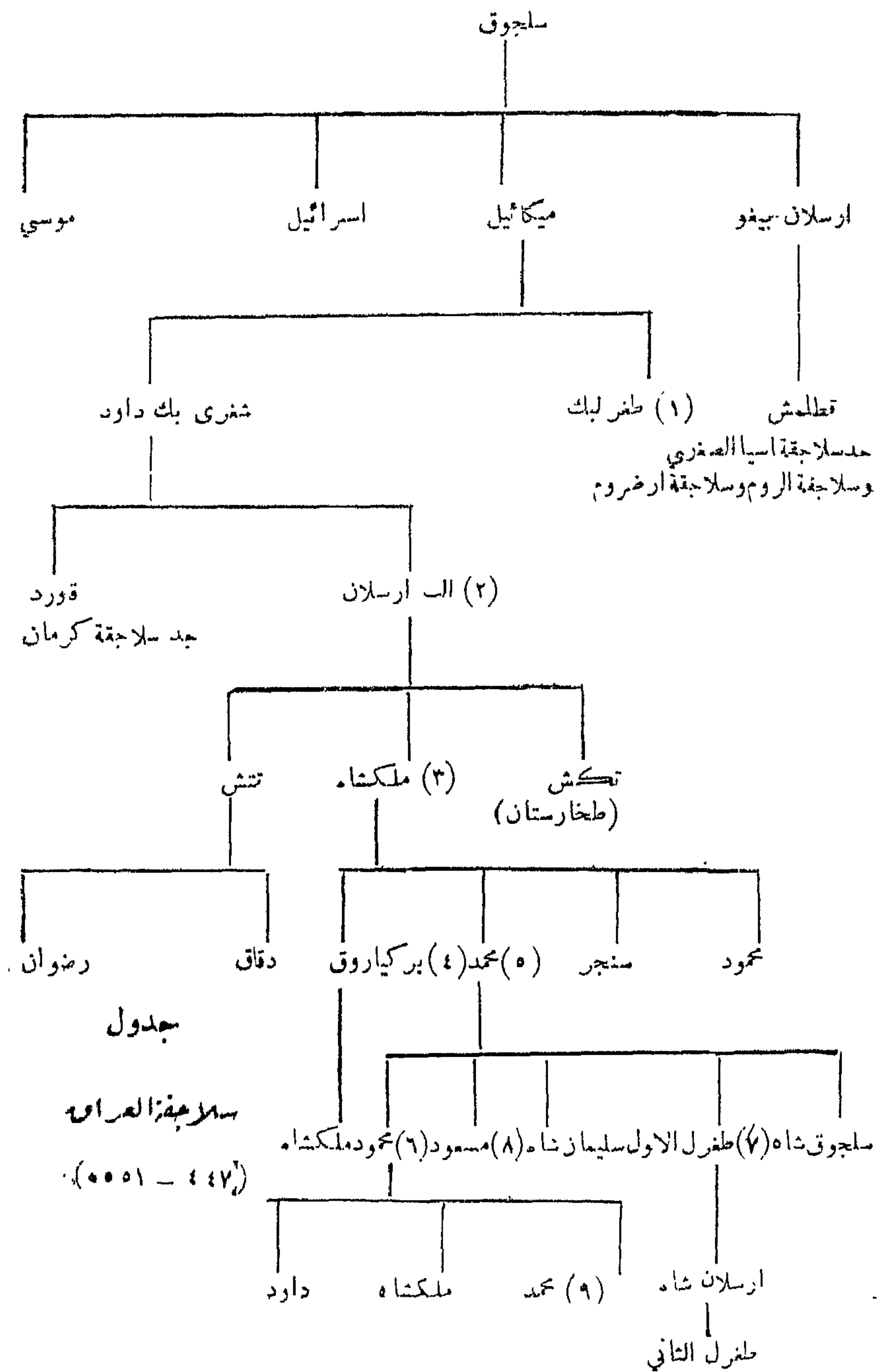
١ - اضمحلال السلاجقة وأسبابه

ظل السلاجقة أصحاب الكلمة العليا فى العراق طوال حكم طغرلبيك (٤٤٧ - ٤٥٥ هـ) وألب أرسلان (٤٥٥ -

(١) الصولى - الأوراق ح ٣ ص ٨٥ - ٨٦ ، وتجارب الأمم ص ٣٣٢ ، والفخرى ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الأثير ح ٨ ص ١٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٥٥ .



٤٦٥ هـ) وملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وبركياروق بن ملكشاه (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ) ومحمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) وهى مدة لا تقل عن ثلاث وستين سنة تمتع العراق فيها بالسلام والطمأنينة وقلت فيها المنازعات بين أهل السنة والشيعة بعد أن كانت لا تكاد تنقطع فى أى عهد من العهود (١) .

على أن الاضمحلال بدأ يدب فى جسم السلطنة السلجوقية فى العراق منذ ارتقى عرشها محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١١ هـ ثم أخذ يتغلغل تغلغلا عظيما فى عهد خلفائه حتى زال نفوذهم عن العراق فى عهد محمد بن محمود سنة ٥٥١ هـ .

ويمكننا أن نعزو ضعف السلاجقة الى عدة عوامل ، منها ضعف شخصية السلاطين الذين ارتقوا عرش السلطنة منذ أيام محمود بن ملكشاه ، وانعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقى فى ذلك العهد ، وظهور دول الأتابكة ، وظهور طائفة الاسماعيلية .

(أ) ضعف شخصية السلاطين

كان محمود بن محمد ضعيفا خاملا ، ولذلك نجد عصبية من الأمراء على رأسها على بار ووزيره أبو القاسم الانساباذى الدركزىنى (٢) قد اغتصبت السلطة منه ومن وزيره كمال

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٤ و ج ١٠ ص ٨٨ و ١٩١ .

(٢) دركزين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الكاف وزاى مكسورة وياء وفون ... قال أنوشروان بن خالد الوزير ، هى بلدة من اقليم الاعلم ينسب اليها أبى القاسم ناصر بن على الدركزىنى وزير السلطان محمود بن السلطان محمد السلجوقى ، ثم وزير أخيه طغرل وهو الذى قتله فى سنة ٥٢١ هـ وأصله من قرية من هذا الاقليم يقال لها انساباذ ينسب نفسه الى دركازين لأنها أكبر ترى تلك الناحية ... وقال وأهل هذا الاقليم كلهم مزدكية ملاحظة » . (راجع اللفظ فى معجم البلدان لياقوت) .

الملك السميرمي ثم أخذت تعمل ما فيه مصلحتها غير ناظرة الى ما يسببه عملها من أضرار . فقتلت الشخصيات النبيرة مثل أنوشتكين شيركير قائد محمد بن ملكشاه ، الذي كان يحارب الأسماعية ليخلو لها الجو كما بددت أموال الخزنة السلطانية في ملذاتها بل انها حرضت الكثيرين مثل دبيس بن صدقة بن منصور بن دبيس الأسد ومسعود بن محمد أخى السلطان على الخروج على محمود حتى يشتغل بمحاربتهم عنها (١) . وقد كان لأعمال هذه العصابة أثرها السيء لأنها أفقدت الدولة كثيرا من عظماء الرجال كما أفقرتها وبددت أموالها . وقد كان طغرك بن محمد الذى خلف محمودا مسلوب السلطة مع أبى القاسم الدرگزینی كما كان سابقه ، وهو وان حاول أن يفك القيد بقتله الدرگزینی على أبواب لیستر Lishter (٢) فان القضاء لم يمهلهم ومات سنة ٥٢٧ هـ بعد غريمه بقليل .

ولم يكن مسعود بن محمد أشد سطوة وأقوى مراسا من سابقه ولذلك كثر خروج الأمراء عليه ، وقد ذكر ابن خلکان وابن الأثير أنه لم يكن له من السلطة غير الاسم (٣) . وأول الخارجين كان قره سنقر صاحب اران الذى أحس بنية الغدر من كمال الدين محمد الخازن وزير السلطان ، ولذلك ذهب الى همدان سنة ٥٣٣ هـ بعشرة آلاف ثم أرسل الى مسعود يطلب منه أعدام وزيره أو تسليمه : « فاما أن تعدمه واما أن تسلمه ، فان دفعته اليها فنحن طائعون ، وان دافعت عنه

(١) البندارى - زبدة النصر ونخبة العصرة . ص ١٥٥ وابن الأثير ج ١٠ ،

ص ٢٨٥ .

(٢) Brown, Account of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks, p. 53.

(٣) ابن خلکان ج ٢ ص ١٢٢ . وابن الأثير ج ١١ ص ٢٠ .

فنهجن عن أنفسنا مدافعون » . وقد سلم مسعود الوزير لقره سنقر فضرب عنقه كما اتخذ مجد الدين عز الملك البروجردى وزيرا له تبعا لرغبة قره سنقر . وقد خرج بعد ذلك على مسعود عباس صاحب الري وبوزابه صاحب فارس ولم يخضعا الا بعد ان استعان السلطان بجاولى الجاندار ، الذى كان قد خلف قره سنقر على أذربيجان . هذا الى أن جاولى الجاندار نفسه خرج على السلطان مسعود واتفق مع بوزابه على محاربته ، ولولا موته لما نجا السلطان من خطره (١) .

ويظهر ضعف السلطان مسعود بكل وضوح فيما حدث بعد ذلك سنة ٥٤٠ هـ ؛ اذ اتفق بوزابه صاحب فارس والحاجب الكبير فخر الدين عبد الرحمن بن طغاييرك وعباس صاحب الري على اغتصاب السلطة من السلطان مسعود ولم يسمعه الا أن « رأى السلامة فى سلمهم وأقسم على رضاهم » (٢) وعزل وزيره وعين تاج الدين ابا الفتح بن دارست الفارسى وزير بوزابه بدلا منه ، يضاف الى ذلك أنه خضع لرأيهم حين قرر الثلاثة أن يكون أحدهم بالنوبة ملازما لخدمته ، وبمعنى آخر حين تناوبوا حراسته والاشراف عليه . كذلك لم يعارضهم حين أبعدوا من رأوا فى وجوده بالقرب منه خطرا عليهم مثل خاصبك بن بلنكرى فانهم أرسلوه مع فخر الدين ابن طغاييرك - أحد الثلاثة - الذى ولى أذربيجان واران سنة ٥٤١ هـ (٣) .

(١) البندارى ص ١٨٧ و ٢٠٢ - ٢٠٤ وابن الاثير ج ١١ ص ٥٢ .

(٢) البندارى ، ص ٢١٤ .

(٣) البندارى ، ص ٢١٤ وابن الاثير ج ١١ ص ٤٧ .

ونذكر ابن الاثير ج ١١ ص ٧٣ أن خاصبك كان صيبا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود . تم تقديم على سائر الأمراء .

حقيقة أن مسعوداً لم يرضخ للأمر طويلاً وحاول أن يسترد سلطته ، واقتنص فرصة قتل خاصبك بن بلنكرى لفخر الدين بن طغاييرك غيلة في أذربيجان ؛ ليقتل هو بدوره في نفس السنة عباس صاحب الرى الذى كان عليه الدور في خدمته ويصرف تاج الدين بن دارست عن وزارته . كما أنه حين رأى ثالث الشركاء بوزابه يغتاض لفقد زميليه ويسير معه ابن شريكه عباس صاحب الرى الى همدان لاقاه هو أيضا ومعه خاصبك بن بلنكرى وأسره وقتل ابن عباس . إلا أنه بسبب ضعفه لم يستفد من مجهوده الذى بذله وما لبث أن وقع تحت سيطرة خاصبك ، الذى أخذ بدوره يتخلص من منافسيه والذى وجد في الوزير الأصم شمس الدين أبى النجيب الدركزىنى أداة لنشر راية الظلم والارهاب (١) .

ويلاحظ أن السلطان سنجر بن ملكشاه - عميد البيت السلجوقى وصاحب الأمر فى خراسان - هاله ما حل بالعراق من الفوضى، فى أيام محمود بن محمد وطغرل ومسعود، وحاول اصلاح أموره ولكن محاولاته لم تجد فتىلاً . ذلك لأنه حين قصد العراق فى أيام محمود قابله هذا ووقعت بينهما موقعة هزم فيها محمود ، إلا أن سنجر عفا عنه وجعله وكيله فى العراق كما زوجه من ابنته ماه ملك خاتون واكتفى باعادة الوزارة الى كمال الملك السميرمى (٢) . وكذلك حين قصد العراق فى أيام مسعود سنة ٥٤٤ هـ وتلاقى مع مسعود فى الرى عاد

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ - ٥٤ و ٦١ و ٠٠٠

Browne, Account of a Rare Ms. Hist of the Seljuks, pp. 61 - 63.

(٢) البندارى ، ص ١٢٤ و Ibid, pp. 4٤, 53.

أدراجه وترك الأمر على ما هو عليه (١) فكانت بذلك أعماله قليلة الأهمية ولم يمكنه انقاذ الموقف .

(ب) انعدام روح التضامن بين أفراد البيت السلجوقي

لم يكن أفراد البيت السلجوقي متضامنين فيما بينهم ، بل كان الشقاق بينهم متفشيا . وقد كان الأمراء الذين يخرجون على السلاطين يعرفون ما لهذا الشقاق من أثر ، ولذلك تجدهم يتدخلون توسيع الهوة وزيادة شقة الخلاف ، وكثيرا ما نجدهم يستميلون أحد أفراد البيت السلجوقي الى صفوفهم ويمنونه بالسلطنة فيكون لهم من وراء ذلك كثرة عدد أعوانهم والفت في عضد أعوان السلطان . وقد حدث ذلك عند النزاع بين قره سنقر والسلطان مسعود ، اذ استدعى قره سنقر الملك سلجوق بن محمد ووعد به بأن يمضى معه الى فارس ويستخلصها له ، كما أخذ معه داود بن محمود وأتابكه اباز (٢) . كما حدث أيضا عندما قام النزاع بين عباس ريزابه من جهة وبين السلطان مسعود من جهة أخرى ، فقد استدعيا سليمان بن محمد أخا السلطان وأغرياه ووعداه بالسلطنة ، ولما اتفق بوزابه مع جاولى الجاندار على الخروج على مسعود بعد ذلك تعهد له بأن يأتيه بالملك محمد بن محمود (٣) ، وأخيرا لم ينس بوزابه حين سار للأخذ بثأر شريكه ابن طغايرك وعباس ، أن يأخذ معه محمد وملكشاه ابني السلطان محمود الى اصبهان حيث توجهما ثم صار الى همدان ليلاقي حتفه (٤) .

(١) البندارى ص ١٢٤ وابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ و ٦٤ .
و Browne, Acc. of a Rare Ms. Hist. of the Seljuks. p. 47.

ذكر الراوندى أن المقابلة بين سنجار ومسعود فى الرى كانت سنة ٥٤٢ هـ .

(٢) البندارى ، ص ١٨٧ و Browne, Acc. Ms. H. Selj., p. 58.

(٣) البندارى ، ص ٢٠٣ و Ibid, p. 60.

(٤) البندارى ص ٢٠٢ و Ibid, p. 63.

(ج) ظهور دول الأتابكة

ذكر ابن خلكان (١) أن « الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، وإن الأتابا بالتركية هو الأب ، وبك هو الأمير ، فأتابك مركب من هذين المعنيين ومعناه اذن أبو الأمير » . كما ذكر ابن الأثير أن السلطان ملكشاه خلع على نظام الملك ولقبه ألقاباً من جملة أتابك ومعناه الأمير الوالد (٢) .

وكان سلاطين السلاجقة يعينون ولادهم وهم مسنار على أجزاء من أملاكهم ويرسلون معهم رجالاً يكونون لهم بمثابة المربين يديرون الأمور باسمهم ويطلقون عليهم اسم الأتابكة . وكان هذا النظام ممكناً عندما كان رئيس الدولة رجلاً قوياً مثل ملكشاه له هيبة القلوب ، ولكن عندما ضعف السلاطين وضاعت هيبتهم كان هذا النظام سبباً فى اضمحلال الدولة السلجوقية ؛ لأن كثيراً من الجهات انفصلت عنها نتيجة لاستقلال الأتابكة بها وعملهم على تثبيت حكم أسراتهم فيها (٣) .

وقد ظهرت بهذه الطريقة الدولة البورية (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م) التى أسسها طغتكين الذى عينه تتش أتابكا لابنه دوقاق فى دمشق ولكنه لم يلبث أن اتخذها لنفسه ، والتى ظل حكمها فى أبنائه من بعده حتى سنة ٥٤٩ هـ حين انتزعها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من الفرنجة الذين كانوا قد أخذوها من مجير الدين أرتق آخر أفراد الدولة البورية فى نفس السنة والتى امتد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٢ و ٢٤١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٣ .

Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 313.

(٣)

نفوذها في دمشق وحماة ردحا من الزمن . كما ظهرت أيضا الدولة الأرتقية (٤٩٥ - ٧١٢ هـ = ١١٠١ - ١٣١٢ م) التي أسسها أرتق بن أكسب ، والتي امتد نفوذها في حصن كيفا وماردين وآمد وخرتبرت وميافارقين ، بل حلب والقدس زمنا طويلا . وكذلك يجب ألا ننسى دولة دانشمد (٤٩٠ - ٦٥٠ هـ = ١٠٩٧ - ١١٦٥ م) التي أسسها كمشتكين بن الدانشمند في كبادوكيا ، والتي شملت سيواس وقيصرية وملطية ، والتي ظلت حتى ضم أملاكها سلاجقة الروم اليهم . ودولة الأتابك عماد الدين زنكي (٥٢١ - ٦٤٨ هـ =

١١٢٧ - ١٢٥٠ م) التي بدأت في الموصل ثم اتسعت حتى شملت جزءا عظيما من الجزيرة الفراتية والشام . ودولة أتابكة أذربيجان (٥٣١ - ٦٢٢ هـ = ١١٣٦ - ١٢٢٥ م) من أفراد أسرة ايلدكز الذي أسسها وحكمها بعد أن كان رجلا عاديا نشأ في بلاط السلطان مسعود ثم أعطيت له حكومة أذربيجان مع زوجة أخى السلطان الأرملة ، ثم خلفه عليها أولاده وأحفاده . والدولة الغورية التي بدأت في ولاية الغور بين هراة وغزنة ثم امتدت الى غزنة وظلت قائمة حتى قضى عليها محمد خوارزمشاه . ودولة شاهات خوارزم نفسها التي أسسها أنوشتهجين أحد مماليك السلطان ملكشاه بعد أن عينه حاكما عليها ، ودخل في حوزتها العراق العجمي وفارس وخراسان وما وراء النهر ، والتي ظلت قائمة حتى قضى عليها المغول في عهد أخطاي بانتصارهم على جلال الدين منكبرتي ابن خوارزمشاه وموت جلال الدين مشردا سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) فكانت مدتها حوالى قرنين من الزمان (٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م) . والدولة السلفرية التي

تنسب الى سلفر Salghar رئيس جماعة من انتركمان
نزحوا الى خراسان ثم انضموا الى طغرلبك الذى جعل سلفر
من ضمن حجابيه ، وتمكن واحد من نسل سلفر هو سنقر بن
مودود من حكم فارس سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وتأسيس
دولة لأسرته فيها ظلت أكثر من قرن (٥٤٣ - ٦٨٦ هـ =
١١٤٨ - ١٢٨٧ م) ، وقد دفع بعض أمراءها الجزية للدولة
الخوارزمية كما خضع آخرون للمغول عند ظهورهم (١) .

(د) ظهور طائفة الاسماعيلية (الحشيشية)

أول ما ظهرت دعوة الاسماعيلية فى بلدة ساوه فى أيام
السلطان ملكشاه السلجوقى (٢) وقد ساعد على سرعة
انتشارها فى طول البلاد وعرضها الغاء ملكشاه لنظام أصحاب
الأخبار ثم قيام النزاع بعد موته بين ابنيه بركياروق
ومحمود (٣) وقد تمكن الاسماعيلية فى أيام بركياروق من
نشر دعوتهم فى اصبهان ثم الاستيلاء عليها وذلك حين كان
يرأسهم أحمد بن عطاش ، كما أنهم فى عهد رئاسة تلميذه
الحسن بن الصباح استولوا على الموت وعلى كثير من القلاع
الأخرى مثل قهستان وزوزن وتون وغيرها من أمثال خالنجان
وآمل وكردكوه (٤) . فلما مات بركياروق وتولى السلطنة
أخوه محمد بن ملكشاه رأى فيهم خطرا شديدا على نفوذه ،
وسير جيوشه لمحاربتهم وظل يكافحهم مكافحة شديدة ولكنه
لم يعيش طويلا حتى يقضى عليهم قضاء تاما (٥) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٢٤ و ١٤٣ و ١٤٨ وصبح الاعشى ج ٤ ص ١٦٥ - ١٧٦

و ٣١٦ و Browne. Acc. Ms. h. Seljuks. p. 8.

Cam, Med. H., Vol. IV, pp 313-31٤.

Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 159-180.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٣) البندارى ص ١١٧ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٣٠ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٢١ - ١٢٢ وصبح الاعشى ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٠ - ١٨٢ و ٢٠٢ و ٢٢٢ . Camb. Med. H.,

Browne, Acc. Ms., pp. 38, 43, Vol. IV, p. 311.

هذا وقد كان ظهور هؤلاء الاسماعيلية سببا في اضعاف الدولة السلجوقية ليس فقط باستيلائهم على البلاد التي تقدمت الاشارة اليها وسلخها عن املاك الدولة السلجوقية او باضطرارهم السلاطين الى تسيير الجيوش اليهم ، بل لانهم زعزعوا الامن في جميع أرجاء الامبراطورية السلجوقية كما أدخلوا الرعب في قلوب الأهليين (١) .

أضف الى ذلك أن الاسماعيلية كانوا سندا لمن تسلطوا على البلاد في أيام سلاطين السلاجقة الضعاف مثل أبي اسحق اندركزى في أيام السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ومثل خاصبك بن بلنكرى في أيام السلطان مسعود ، فعاونوهم في سياستهم التخريبية كما أزالوا أعداءهم من الوجود . وقد بلغ من اعتماد هؤلاء المستبدين على مساعدة الاسماعيلية لهم في عدوانهم أن قال أبو اسحق الدركزى للسلطان طغرل بن محمد الذي خلف محمودا على السلطنة ، والذي وزر له الدركزى وقتا قصيرا حين سألته عن الجند الذي يلزم للقضاء على ثورة أخيه مسعود : « لا تبال ولا تخطر خطرا بالبال ، فاني قد ندبت جماعة من الحشيشية لقتل أعدائك » (٢) .

هذا وليس في امكان الباحث عن أثر الاسماعيلية في اضعاف السلاجقة أن ينسى أن هؤلاء الاسماعيلية بقتلهم كثيرا من الشخصيات البارزة في أيام السلاجقة حرموا الدولة من معاونتهم ، وليس هناك من ينكر ما خسرت الدولة بقتل أمثال نظام الملك وزير ملكشاه ، وجمال الملك السمرمي وزير محمود بن محمد بن ملكشاه ، وفخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر صاحب الأمر في خراسان (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ١٢٠ . Browne, Acc. Mc., pp. 40-42.

(٢) البنداري ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٢٠ و ٢٥٦ ، ص ١٧٥ .

٢ - حسن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين وأثرها في زوال النفوذ السلجوقي من العراق

لم تكن حالة الخلفاء العباسيين في أيام السلاجقة تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه في أيام بني بويه . ذلك لأنه بينما كان أمراء بني بويه يقيمون في بغداد ويجمعون في يدهم كل السلطة ، كان نواب السلاجقة العسكريين يحكمون العراق ويستأثرون بالنفوذ فيه (١) . وقد بلغ من عجز الخلفاء عن تدبير الأمور في ذلك الوقت وضالة أسرهم أن الناس في بغداد قاموا في أيام الخليفة القائم سنة ٤٦٥ هـ « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندي فثار به الجندي الذي كانت عنده فضربه فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة » . واستغاثوا إلى الخليفة وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبديلها فوعدهم أن يكاتب السلطان في ذلك (٢) ، ولم يجرؤ أن يتخذ قرارا في هذا الشأن . أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين ظلوا يعيشون في أيام السلاجقة من أقطاعات مقررة يديرها لهم عمال من بينهم الوزير وكاتب الانشاء على ما كان عليه الأمر في أيام بني بويه (٣) ولم يكن لهم من الأمر سوى ذكر اسمهم في الخطبة ، كما كانوا يقضون أوقاتهم في بناء القصور وترميمها (٤) .

(١) Richard Coke, Baghdad The city of Peace, p. 114.

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٣٨ .

(٣) البنداري ، ص ١٩٤ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ، ص ١٦٣ . و Le Strange, Baghdad During the Abbassid Caliphate, p. 327.

على أن هذا يجب ألا يحجب عن أنظارنا تلك الحقيقة الواضحة وهي أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم (١) ، فقد وصف لنا ابن الأثير الاجتماع الذي حدث بين السلطان طغرلبيك - عندما عاد إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ على أثر إخضاعه الموصل وقضائه على مناوأة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران - وبين الخليفة القائم فقال (٢) : « وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عاماً وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد وحضر السلطان في الماء وأصحابه حوله في السميريات ، فلما خرج من السميرية أركب فرساً من مراكب الخليفة ، فحضر عند الخليفة ، والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبع أذرع وعليه بردة النبي وبيده القضيب الخيزران ، فقبل السلطان الأرض وقبل يده وأجلس على كرسى ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عبادته ، فاتق الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكف الظلم واصلاح الرعية . فقبل الأرض ، وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه ، فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك مشرق ومغرب وأعطى العهد وخرج ، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها » .

(١) Cambridge Medieval history, vol. IV, p. 277.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

ولا شك أن هذا الوصف يبين ما كان يحمله طغرلبيك للخليفة من الود والاحترام الحقيقي ، كما يوضح أن ما حدث فى هذا الاجتماع كان طبيعيا لا تكلف فيه بعكس ما حدث عند اجتماع الخليفة الطائع وعضد الدولة بن بويه ، ذلك الاجتماع الذى لم يدع اليه سوى رغبة عضد الدولة فى اظهار أبهته ونفوذه أمام رسول الخليفة الفاطمى العزيز ، الذى كانت تغلب عليه الكلفة والتصنع .

والأمثلة على احترام السلاجقة للخلفاء العباسيين وحسن معاملتهم لهم كثيرة ، منها أن طغرلبيك عندما عاد الى بغداد مرة أخرى سنة ٤٥٥ هـ قادما من أرمينية وعلم أن الخليفة القائم يريد أن يستقبله بنفسه ، أعفاه من ذلك واكتفى بأن يستقبله وزيره ابن جهير . ومنها أن السلطان ملكشاه عندما وفد عليه الشيخ أبو اسحق الشيرازى سنة ٤٧٥ هـ يحمل رسالة من قبل الخليفة المقتدى تتضمن شكواه من العميد أبى الفتح بن الليث عميد العراق ، أكرمه وأجابه الى جميع ما التمسه ، فأهين العميد ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشى الخليفة . ومنها أن السلطان ملكشاه أيضا عندما ذهب الى بغداد سنة ٤٧٩ هـ فى أيام الخليفة المقتدى ، طلب أن يقبل يد الخليفة ولكن هذا لم يجبه الى ذلك ، فسأل أن يقبل خاتمه ، ولما أعطاه اياه قبله ثم وضعه على عينيه ، كما أنه أمر أن يزاد فى اقطاع وكلاء الخليفة نهر برزى من طريق خراسان وعشرة آلاف دينار من معاملة بغداد (١) .

وان أقوى العلاقات بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة لتتجلى فيما كانوا يتبادلونه من الخلع والتفويض

(١) ابن الاثير ، ج ١٠ ، ص ٩ و ٥١ و ٦٤ - ٦٥ .

فقد كان الخليفة عند ارتقائه عرش الخلافة يرسل الى السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانيه والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقي بعد أن يتولى السلطنة يلتبس التفويض من الخليفة العباسي (١) * كما تظهر تلك العلاقات أيضا فيما كان بين البيتين السلجوقي والعباسي من الارتباط بأواصر الزواج ، وان المؤرخين ليذكرون لنا أمثلة كثيرة لذلك ، فهذا طغرلبيك قد تزوج سنة ٤٥٤ هـ ابنة الخليفة القائم ، وذاك الخليفة القائم نفسه قد زوج ابنه المقتدى من ابنة السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤ هـ ، كما أن الخليفة المستظهر ابن المقتدى تزوج من ابنة السلطان ملكشاه سنة ٥٠٢ هـ ، وتزوج الخليفة المقتفى فاطمة بنت محمد بن ملكشاه وأخت السلطان مسعود (٢) * ولا شك أن السبب فيما كان هناك من علاقات طيبة بين السلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين يرجع الى أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني الذي كان الخليفة العباسي رئيسه الأعلى ، وقد ذكر في ذلك السير توماس أرنولد : « أن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي لا لمركزه السياسي ، بل لأنه خليفة الله (٣) » *

وان ما ذكره وان كان يدل دلالة واضحة على ما كان بين السلاجقة والخلفاء العباسيين من طيب العلاقات وحسن التفاهم وتبادل الاحترام ، الا أنه في الوقت نفسه لا يحول دون ذكر ما حدث من سوء تفاهم بين الطرفين في بعض الأحيان

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ٤٠ و ٦٤ *

(٢) ابن خلكان ج ٢ ، ص ٦٢ و ٦٣ وابن الأثير ج ١٠ و ص ٨ و ٢٩ و ١٩٩ *

(٣) Arnold, the Caliphate, p. 80.

(٣)

وتعدى السلاطين على الخلفاء ، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى وأمره بالخروج من بغداد والذهاب الى البصرة بسبب تدخله فى شئون الحكم على ما ذكره سير وليام ميور (١) ، أو بسبب رغبة ملكشاه فى اسناد الخلافة الى جعفر بن الخليفة المقتدى من أخته على ما ذكره ابن خلكان (٢) . كما أنه لم يمنع اعتداء السلاجقة على الخلفاء فى بعض الأوقات، وقد ذكر فى ذلك السير توماس أرنولد أن السلاجقة اتخذوا لأنفسهم لقب ظل الله الذى كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم فى الماضى وأنهم اخذوا من الخليفة المسترشد بردة الرسول التى كان الخلفاء يلبسونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية (٣) . غير أن مثل هذه الأعمال لم تصدر من السلاجقة الا نادرا بل ان الأمثلة المذكورة قد تكون كل ما ذكر فى هذه الناحية .

ولم يكن احترام الخلفاء العباسيين فى ذلك الوقت مقصورا على السلاجقة ، بل ان غيرهم من الأمراء الذين كونوا اماراتهم بقوة السيف كانوا لا يزالون ينظرون الى الخليفة العباسى كواسطة لتثبيت عروشهم واكساب حكمهم صبغة شرعية . وقد ذكر سير توماس أرنولد (٤) أن يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين فى اسبانيا أرسل الى الخليفة المقتدى يلتمس منه تثبيتته فى حكم أملاكه ، فكان فى قوله

(١) Muir, The Caliphate, its rise, decline & fall, p. 577.

(٢) ابن خلكان - وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) Arnold, The Caliphate, p. 80.

جاء فى مجموعة كمبريدج للقرون الوسطى أن ملكشاه لقب أمير المؤمنين وهذا اللقب لم يطلق قبل ذلك الا على الخلفاء .

(٤) Arnold, the Caliphate, p. 38.

هذا دليل على أن الخلفاء مازالوا في ذلك العهد يتمتعون
بسلطة ادبية في داخل بغداد وخارجها .

على أن اهم ما يجب ملاحظته هو أن معاملة السلاجقة
للعباسيين بالحسنى أعادت الى انفسهم الأمل وجعلتهم يفكرون
في إعادة مجد الخلافة العباسية السالف (١) . وقد ذكر
سير وليام ميور (٢) ان الخليفة المقتدى تدخل في شئون
الحكم في أيام السلطان ملكشاه ، وأن هذا السلطان حين أحس
بتدخله طلب منه عدم التدخل وأصدر أمرا بتوجهه الى البصرة
حتى يكون بعيدا عن مركز الحكومة ، ولولا موت السلطان
لأصبح أمر انتقاله الى البصرة في حيز الوجود . كما ذكر ابن
خلكان (٣) أن ملكشاه لما دخل بغداد في آخر مرة « وكان
للخليفة ولدان أحدهما المستظهر بالله والآخر أبو الفضل
جعفر ابن بنت السلطان . . وكان الخليفة قد بايع لولده
المستظهر بولاية العهد من بعده لأنه كان الأكبر ، ألزم السلطان
الخليفة أن يخلعه ويجعل ابن بنته جعفرا ولي العهد ويسلم
بغداد اليه ويخرج الخليفة الى البصرة . فشق ذلك على الخليفة
وبالغ في استنزال السلطان عن هذا الرأي فلم يفعل ؛ وطلب
المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقبل ان الخليفة في تلك
الأيام جعل يصوم ويطوى واذا أفطر جلس على الرماد للافطار
وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فمرض السلطان
في تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره » .

واذا كان المقتدى قد فعل ذلك في أيام ملكشاه العظيم
وحين كان نفوذ السلاجقة في العراق لا يزال كبيرا ، فان

(١) Arnold, the Caliphate, p. 80, Coke, Baghdad, p. 114.

Cambridge Med. Hist, vol. IV, p. 277.

(٢) Muir, the Caliphate, p. 577.

(٣) ابن خلكان - وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

خلفاءه ساروا على شاكلته وشجعهم ما أصاب السلاجقة من الضعف فى ذلك الوقت . والخليفة المسترشد أول من سار بخطى جديدة فى هذا السبيل ، وأول ما نعلمه من خطواته هذه ما ذكره ابن خلكان (١) من أنه عندما ولى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى ديبس على الموصل وكان الخليفة لا يوده عمل ما فى وسعه حتى أقنع السلطان بتولية زنكى وعطل أمر ديبس . وقد خرج الخليفة المسترشد بعد ذلك سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد وهزم قواته وكاد يستقل بالأمر لولا مساعدة زنكى حاكم البصرة فى ذلك الوقت للسلطان . كما أنه عند موت هذا السلطان أخذ المسترشد يحرض بعض أفراد البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد، ولما أراد زنكى أن يضع حدا لعمله حاربه وشتت قواته وتبعه حتى الموصل وحاصره بها ثلاثة شهور وكان ذلك سنة ٥٢٧ هـ (٢) . ولم يكتف بذلك بل سار بجيشه ومعه سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقى وهاجم قوات مسعود قرب همدان ؛ فكان بذلك مثالا أعلى لمن أتى بعده من الخلفاء (٣) .

واذا كان المسترشد لم ينجح فى تنفيذ أغراضه وهزمه جند السلطان مسعود وأسروه ووضعوه فى خيمة حيث قتله نفر من الحشيشية ، فان ابنه الراشد الذى ارتقى بعده عرش

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٦٤ وابن الأثير ج ١٠ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ و ٢٨٩

و ج ١١ ص ٢ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٢ و Arnold, the Caliphate, pp. 80-81 C.

و Account of Ms., p. 57. و Muir, The Caliphate, p. 580

الخلافة سار على شاكلته وأدى به حب الثار لأبيه الى اهانة رسول السلطان مسعود ودعوة العامة الى تدمير قصره ، كما انه أخذ يستعد لامتشاق الحسام بعد أن انضم اليه زنكى بسبب قتل السلطان لصديقه ديبس بن صدقة ، متهما اياه بقتل الخليفة * وقد كانت خاتمة الراشد كخاتمة أبيه لأن السلطان مسعود لم ينتظر حتى يهاجمه الخليفة ، بل سار حتى وصل الى بغداد وحاصرها وضيق عليها الخناق واضطر الخليفة الى الفرار منها الى الموصل حيث صديقه زنكى ثم قتله بعض الحشيشية بعد ذلك عندما ذهب الى اصبهان (١) *

ولما صار المقتفى لأمر الله خليفة بعد موت الراشد ، عمل جهده لتنفيذ رغبة أسلافه واتمام ما بدعوه * ويعتبر الدور الذى قام به فى هذا السبيل من أهم هذه الأدوار لأنه توج مجهودات من سبقه بالنصر المبين * وقد بدأت مجهودات المقتفى فى آخر عهد السلطان مسعود ، ولم تكن ضد السلطان مباشرة بل كانت ضد بعض الأمراء السلاجقة * فان السلطان مسعود بعد أن قتل بوزابة استدعى محمد ابن أخيه محمود الذى كان يرافق بوزابة وعطف عليه وزوجه من ابنته ، كما ملكه خوزستان وبذلك أصلح حاله وجمع له بعض أسباب النفوذ ، ولكن بعد ذلك تسلط جماعة من الأمراء على هذا الأمير ورغبوه فى الخروج على السلطان وأقنعوه بالسير معهم لحصار بغداد فسار معهم هو وأخوه ملكشاه بن محمود وحاصر الجميع بغداد سنة ٥٤٣ هـ وقتلوا من أهلها زهاء خمسمائة

(١) ابن الأثير ج ١١ ، ص ١١ - ٢٨ *

Muir, The Caliphate, p. 580.

Account of a rare Manuscript History of the Seljuks, p. 58.

نفس ، وأبوا أن يرفعوا الحصار الا بعد أن يدفع لهم الخليفة ثلاثين ألف دينار . وقد وقف الخليفة المقتفى أمام هذا الخطر موقف البطولة اذ استشار رجاله فوافقوا على دفع المبلغ للأمرء ، ثم أخذ رأى يحيى بن محمد بن هبيرة وكان يومئذ صاحب الديوان فنصحه بأن يستخدم هذا المبلغ فى اعداد جيش لدفع خطرهم ، وفضل الخليفة رأى ابن هبيرة ونجح فى دفع هذا الخطر، وكان فى عمله هذا ارضاء السلطان مسعود كما كان فيه فرصة حسنة ساعدت على جمع جيش قوى كان سند الخليفة فى مراحل جهاده المقبلة (١) .

وقد حدث بعد ذلك أن مات السلطان مسعود سنة ٥٦٦ هـ وولى السلطنة ملكشاه بن محمود الذى اشتغل باللهو والخمر وترك الأمر لخاصبك بن بلنكرى ، ثم تبع هذا خلع خاصبك للملكشاه واستدعاؤه لأخيه محمد بن محمود وجعله سلطاناً (٢)، فبدأت بذلك المرحلة الثانية من مراحل النزاع بين الخليفة المقتفى والسلاجقة ، ولم يكن محمد بن محمود فى هذه المرة هو المعتدى ، بل ان الخليفة ووزيره ابن هبيرة طردا نائبه من بغداد وأخذوا يبسطان نفوذ الخلافة فى العراق ويقطعان أجزاءه لعمال الخلافة ، كما أنهما بعد ذلك حين لجأ اليهما سليمان بن محمد بن ملكشاه آمناء وأرسلا معه جيشاً تقابل مع جيش السلطان محمد بن محمود ولم يعد الى بغداد الا بعد أن تقاعس سليمان عن السير . وقد كان ذلك

(١) ابن الأثير . ج ١١ ، ص ٦٠ و ٦٦ .

والبندارى - زبدة النصرة ونخبة العصرة ، ص ١٢٣ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

سببا في نجاح الأمراء في اقناع السلطان محمد بن محمود بمهاجمة بغداد ، فسار لهذا الغرض سنة ٥٥١ هـ وحاصرها وانتهى أمره بالفشل والعودة من حيث أتى ، وكان في ذلك نهاية عهد النفوذ السلجوقي في العراق (١) .

(١) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ - ٩٦ .

وأبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

و Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 580.

Account of a rare Manuscript History of the Seljuks. p. 67.

الفصل الثانى

أيام العباسيين الأخيرة فى العراق

١ - الحالة الداخلية

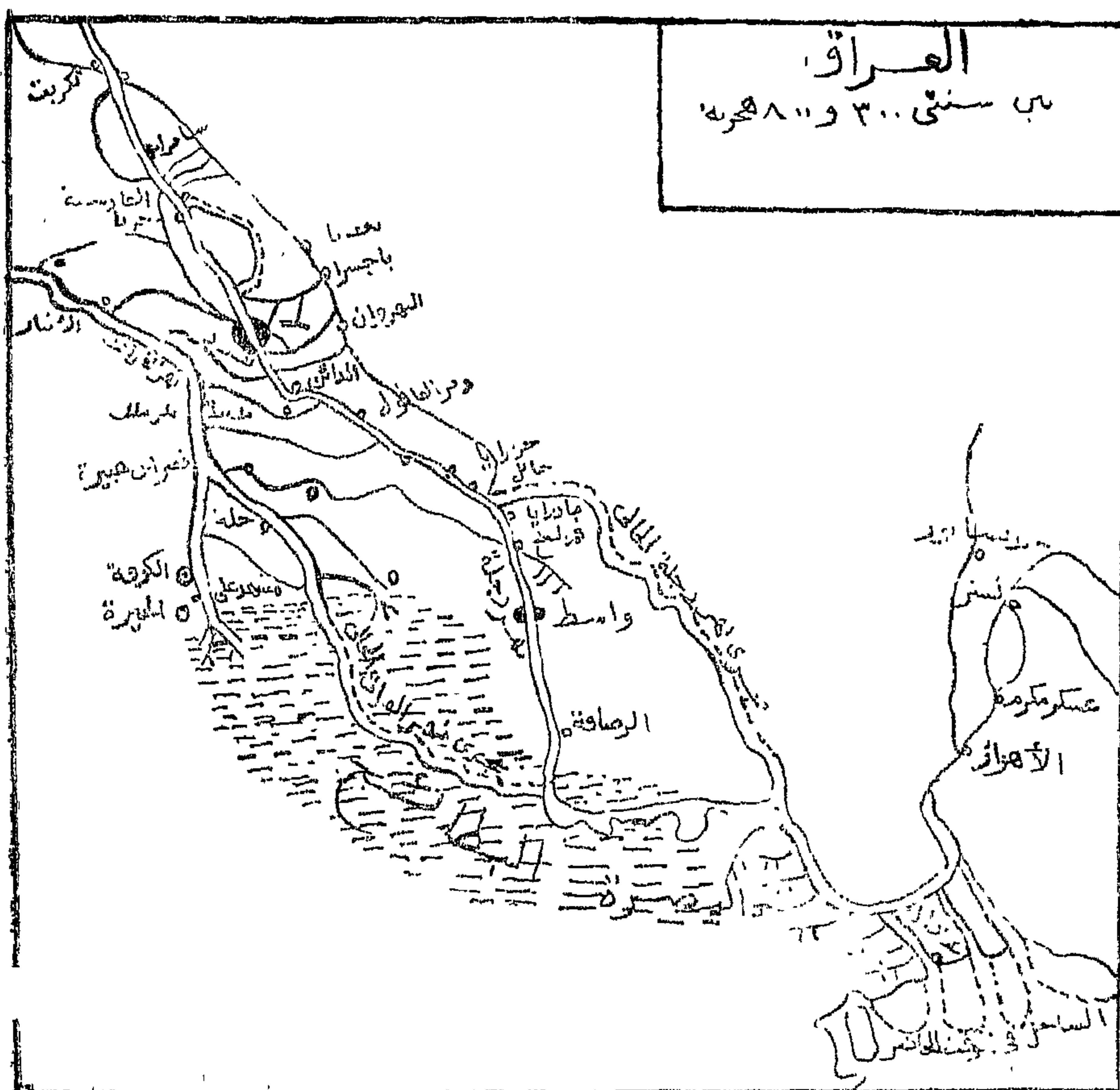
بعد أن تمكن المقتضى لأمر الله من صد السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ، حكم مستقلا فى العراق حتى سنة ٥٥٥ هـ * وبعد موته ارتقى عرش الخلافة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) ثم المستضى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ثم الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ثم الظاهر (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ) ثم المستنصر (٦٢٣ - ٦٤١ هـ)، وقد تمكنوا جميعا من الاحتفاظ باستقلال العراق أكثر من مائة سنة ، ولكن أيامهم لم تكن أيام يسر وطمأنينة للعراق بل كانت على العكس أيام فقر واضطراب ، كما أن الخل والضعف لم يكن مقصورا على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل شملها جميعا (١) .

(أ) الناحية السياسية

كان معظم خلفاء هذه الفترة ضعاف الشخصية ليس لديهم دراية بشئون الحكم * وقد مدح مؤرخو العرب أكثر

(١) جاء فى مجموعة كمبريدج للقرون الوسطى ج ٤ ص ٢٧٨ ان املاك الخلافة العباسية فى أيام الخليفة الناصر أعظم خلفاء هذه الفترة كانت تمتد من تكريت حتى رأس الخليج الفارسى * (انظر الخريطة المرفقة)

من واحد من بينهم ؛ ولكنهم لم يزيّدوا عن القول بتقواهم
وورعهم ولم يذكرّوا أعمالاً لهم تستحق الذكر . كما أن مستر
لبرخت في الفصل الذي كتبه تذييلاً للجزء الثاني من ترجمة
آشر لرحلة بنيامين التطيلي (١) شبه الخليفة العباسي في الفترة
التي أعقبت حكم الرازي وامتدت حتى المستعصم بالمنتخب
الأعظم Great Elector في مشروع سبيس الذي وضعه في سنة



١) Asher (Trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela,
Vol. II, p. 347.

١٧٩٩ (١) احدى سنى الثورة الفرنسية ولم ينفذ . فقد كان هذا المنتخب طبقا لهذا المشروع يشترك مع قنصلين هما المسئولان عن أعمال الحكومة ، بينما هو يقيم فى القصر (الملكى) فى فرساي تحت حراسة ثلاثة آلاف من الرجال ويتقاضى ستة ملايين من الفرنكات كل عام . وقد ذكر مستر لبرخت أيضا أن كثيرين من هؤلاء الخلفاء لم يزد الواحد منهم عن أن يكون مثل هذا الشبح الأجوف .

أما بنيامين التطيلي ، فقد امدنا بوصف شامل لحياة الخليفة العباسي وأفراد أسرته وذلك عندما زار بغداد فى أيام المستنجد ونقله عنه أسبورن فى كتابه «الاسلام فى عهد خلفاء بغداد» وها نحن نسوقه فى هذا المقام (٢) : «يبلغ اتساع قصر الخليفة فى بغداد ثلاثة اميال . وتوجد فى هذا القصر حديقة واسعة بها كل أنواع الشجر سواء منه النافع أو المستعمل للزينة وكل أنواع الوحوش ، كما توجد به أيضا بركة يمتد اليها الماء من نهر دجلة . وفى أى وقت يحس الخليفة برغبته فى المتعة والتريض تجهز له الطيور والوحوش والأسماك . وهذا العباسي العظيم يعطف على اليهود ويتخذ من بينهم كثيرا من عماله ، كما يفهم كل اللغات ويعلم القانون الموسوى علما تاما ويقرأ اللغة العبرية ويكتبها ، ولا يطيب له الا ما يحصل عليه بكده ؛ ولذلك يصنع الأغذية ويسمها بخاتمه ثم يبيعها عماله فى السوق العامة للأغنياء ويقتنى بثمانها الأشياء التى

A General History of Europe, By Thatcher & Schwill, Vol. II, pp. 470-573.

(١) جاء فى كتاب

أن نابليون بعد أن عاد من مصر فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ قضى على حكومة الادارة ثم وضع هو واخوانه دستور القنصلية وكان هذا الدستور من وضع سيس (Sieyes) .

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 305-312. (٢)

تلتزمه • والخليفة رجل فاضل موثوق به طيب القلب لا يضمّر شراً لأحد ، ولكنه يحتجب عادة عن المسلمين ، ويحب الحجاج الذين يفدون من الاقطار البعيدة عند مرورهم ببغداد في طريقهم الى مكة أن يحظوا برؤيته فينادونه : سيدنا يا نور المسلمين ومجد الدين أرنا نور وجهك ، ولكنه لا يعير كلماتهم اهتماماً • وبعد أن يتقدم عماله ويقولون له أيها السيد اشمل هؤلاء الناس بسلامك لأنهم أتوا من بلاد بعيدة ويحبون أن يأتوا الى ظل عظمك ، يقوم ويضع أطراف رداءه خارج الشباك فيلثمها الحجاج بشغف ثم يقول لهم أحد الكبراء انصرفوا سالمين فسيدنا نور المسلمين مغتبط كل الاغتباط ويبارككم • ولما كانوا يعتبرون هذا الأمير ممثلاً لنبيهم ، فانهم يسرون في طريقهم يملؤهم الفرح لتلك الكلمات التي وجهها اليهم هذا الكبير ناقلاً رسالة السلام • ومن عادة كل اخوة الخليفة وأفراد أسرته أن يلثموا ملابسه ، كما أن كل واحد منهم يملك قصراً داخل قصر الخليفة ؛ ولكنهم جميعاً مقيدون بسلاسل من حديد ويقوم ضابط على كل مسكن ليعول دون ثورتهم ضد الرئيس الأعظم • وقد اتخذ الخليفة هذه الاحتياطات بعد أن ثار اخوته عليه واختاروا واحداً من بينهم بدلاً منه ، فلكى يمنع حدوث مثل هذا في المستقبل قرر أن يقيد كل أعضاء أسرته بالسلاسل حتى يكبت ميولهم الثورية • ومع ذلك ، فإن كل واحد منهم يقيم في قصره معزلاً كما أنهم يملكون القرى والمدن ويجمع مديرو شئونهم ايجارها كما يأكلون ويشربون ويعيشون حياة كلها لهو • ويحوى قصر الخليفة مباني وأعمدة من الذهب والفضة وكنوزاً من الأحجار الكريمة • ويترك الخليفة قصره مرة كل سنة وذلك في وقت العيد المسمى رمضان (كذا) ؛ فيجتمع زوار كثيرون من الجهات البعيدة

ليحفظوا برؤية وجهه ، بينما يعلو صهوة بغلة مرتديا الملابس الرسمية المصنوعة من نسيج الذهب والفضة وواضعا عمامة مزينة بأحجار كريمة لا تقوم بمال فوقها قناع اسود كأنه رمز التواضع (كذا) ، فكأنه يقول انظروا الى هذه العظمة الدنيوية ستصير الى الظلام يوم الممات ، وتحف به حاشية كيرة العدد من الأشراف يلبسون الملابس الفخمة ويركبون الخيول والأمراء الذين جاءوا من بلاد العرب وميديا وفارس بل ومن بلاد التبت التي تبعد ثلاثة شهور عن بلاد العرب . ويتقدم هذا الموكب من القصر الى المسجد الواقع عند باب البصرة وهو المسجد الجامع وهؤلاء جميعا الذين يسرون في موكب الخليفة ، سواء اكانوا من الرجال أم النساء يلبسون الحرير .

أما في الطرق والميادين فيكون الغناء والطرب وترقص الجماعات أمام الأمير العظيم الذي يسمى خليفة ، وتحية يقولها : « باركك الله يا سيدنا ومليكنا » ، بينما هو يرد تحيتها بلثم رداثة ولمسه بيده . ثم يسير الموكب الى ساحة المسجد ويعتلى الخليفة منبرا خشبيا ويشرح للناس قوانينهم . وينهض العلماء المسلمون ويصلون من أجله . (كذا) ، ويطرون عطفه العظيم ورحمته ويجيبهم المجتمعون بقولهم : آمين . وبعد ذلك يباركهم الخليفة ويدبح جملا معدا لهذا الغرض وهو بمثابة قربان يوزع على الأشراف الذين يرسلون أجزاء منه الى أصدقائهم الذين يشتهون أن يذوقوا اللحم الذي ذبحه أميرهم المقدس . ثم يترك المسجد ويعود وحده الى قصره على شواطئ دجلة يصبحه الأشراف في قوارب حتى يدخله . ولا يعود الخليفة من الطريق الذي أتى منه أبدا ، كما أن السبيل الذي سلكه على شاطئ النهر يوضع تحت الحراسة الدقيقة طول العام حتى

لا يسلكه غيره . ولا يترك الخليفة قصره مرة اخرى طول العام » .

ولا شك أن هذا الوصف على الرغم مما تخلله من الأخطاء بسبب جهل بنيامين التطيلي بتعاليم الدين الاسلامي يرينا كيف كان الخلفاء العباسيون في ذلك الوقت يقضون حياتهم في اللهو واللعب ، كما يرينا تمسكهم بأهداب الرفعة وميلهم الى الظهور أمام الناس بمظهر القدسية ، وأنهم كانوا يقضون حياتهم خائفين على مراكزهم أن ينتزعها منهم أحد أفراد أسرته فيصبحون بعيدين عن الناس وعن ادارة شئون الدولة .

والواقع أن هؤلاء الخلفاء جميعا كانوا ضعافا ولم يستفد العراق من حكمهم كثيرا أو قليلا ، بل ان حكمهم جر عليه الويل . واذا كان الناصر قد شذ عنهم بشخصيته القوية ومطامعه الكبيرة ونشاطه الجم وميله الى العمل ، فإنه لم يكن لأعماله من الأثر ما يختلف عما كان لأعمال الآخرين من آثار ، بل ان أيامه لتعد من أسوأ الأيام في العراق وذلك لأن قوته كان يشوبها الظلم والتجبر فكان يثقل كاهل الناس بالضرائب والمكوس (١) كما كان يشوبها الفرور وليس أدل على ذلك من العلم بأنه أراد أن يحيط نفسه بهالة من السيمو فابتعد عن الناس كما ادعى العلم بالغيب . وان المؤرخين ليذكرون لنا كثيرا من أخبار ادعاءاته ، فمن ذلك ما ذكره السيوطي (٢) « من أن رسول صاحب مازندران دخل بغداد وكانت تأتيه ورقة كل صباح بما عمل في الليل . . . فخرج من بغداد وهو لا يشك أن الخليفة يعلم الغيب » ، وكذلك

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

ما ذكره من أن « رسول خوارزمشاه أتى بغداد برسالة مخفية (يقصد سرية) وكتاب مختوم ، فقيل له : ارجع فقد عرفنا ما جئت به » ، وايضا من ذكره من أن « رجلا أتى ببغاء تقرأ فل هو الله أحد تحفة للخليفة من الهند فاصبحت ميتة » واصبح حبران (كذا) فجاءه فراش يطلب منه البغاء فبكى وقال : الليلة ماتت ، فقال : قد عرفنا هاتها ميتة . وقال : هم كان ظنك أن يعطيك الخليفة ؟ قال : خمسمائة دينار . قال : هذه خمسمائة دينار خذها فقد أرسلها اليك الخليفة فانه أعلم بحالك منذ خرجت من الهند » .

ونحن لا نكاد نجد لأى واحد من خلفاء هذه الفترة يدا في ادارة شئون البلاد ؛ لأنهم كانوا يعيشون في قصورهم الواسعة ولا يظهرون للناس الا نادرا . وقد كانت الحكومة في زمنهم في أيدي غلمان القصر وعلى رأسهم اسناد دار الخليفة يحركها كيف يشاء . وتمتاز هذه الفترة على وجه العموم وبغير استثناء بازدياد سلطة أساتذة الدار . ففي أولها تمكن عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء أستاذ دار المستنجد من تدبير مؤامرة ذهب الخليفة ضحيتها وذلك حين خاف بطشه ، هذا الى أنه بعد ذلك أحضر ابن الخليفة المقتول ووضع على عرش الخلافة ولقبه المستضيء وذلك بعد أن اشترط عليه شروطا قبلها (١) ، فكأنه تمكن من التخلص من خليفة ووضع آخر مكانه ثم وضع لمن أجلسه على العرش السياسة التي يسير عليها ، وليس بعد هذه السلطة أمل لمؤمل . وفي أيام الناصر كان نفوذ أستاذ الدار لا يزال كبيرا أيضا؛ بدليل ما ذكره ابن جبير في كتابه (٢) بعد زيارته لبغداد

(١) الفخرى ، ص ٢٢٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٥ .

سنة ٥٨٠ هـ ، حيث قال ان أستاذ الدار قيم على جميع الديار العباسية وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمنه الحرمه الخلاقية ، وكان يدعى له اثر الدعاء للخليفة . وقد بلغ من ازدياد سلطة أساتذة الدار أن طغوا على الوزراء فلم نعد نسمع عنهم شيئاً . ونحن لا نكاد نرى بعد ابن هبيرة وزير المقتفى والمستنجد وزيرا واسع السلطان مسموع الكلمة . وقد ذكر ابن جبير في رحلته (١) أنه وجد في بغداد نائب وزارة ولم يقل أنه وجد وزيرا ، وفي هذا ما يكفى للدلالة على أن الوزير وان كان موجودا الا انه كان لا يكاد يحس بوجوده انسان .

وكان من أثر ضعف الخلفاء في هذه الفترة وتقلص سلطة الوزراء أمام تيار غلمان القصر وأساتذة الدار الجارف ، ان اعتلت الادارة في العراق وبدأ العامة يحسون بضعف الحكومة وعجزها عن تسيير دفة البلاد ، ولذلك نجدهم يستهترون بها فتعم الفتن وتكثر الاضطرابات فيما بينهم . واننا لنعجب حين يذكر لنا ابن الأثير (٢) عند كلامه على سنة ٦٠١ هـ أن ثلاث فتن وقعت في بغداد فيما لا يتجاوز الشهر بين أهالى المحلات المختلفة ، ثم لا يلبث عجبنا أن ينقلب الى دهشة حين يذكر لنا أن السبب في وقوع اثنتين منها هو أن أهل محلة من المحلات قتلوا سبعا وأرادوا أن يمروا في المحلة الأخرى فاشتبك بهم أهلها ، وأن الفتنة الثالثة كان السبب فيها أن رجلين من محلتين مختلفتين اختصما وتواعد كل منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا . والأدهى من ذلك وأمر هو ما ذكره من أن حكومة الخلفاء كانت تتدخل

(١) المصدر نفسه .

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٩٤ .

فى كل هذه الفتن ، فأحياناً تطفئها بعد أن يناوئها الأهليون ، وأحياناً تتركها حتى تسكن من تلقاء نفسها .

(ب) الناحية الحربية

لم تكن الناحية الحربية خيراً من الناحية السياسية ، فقد أخذ جيش الخلفاء العباسيين يفقد شهرته منذ تسرب الضعف الى جسم الدولة العباسية ، وكانت أيام بنى بويه والسلاجقة فى بغداد أيام انحطاط ان لم تكن أيام زوال لهذا الجيش ، لأنه لم يكن من مصلحة هؤلاء الأجانب بقاء جيش يناوئهم النفوذ وقد يطردهم فى يوم من الأيام حين يجد فى نفسه القدرة على التغلب عليهم .

وعلى الرغم من أن هذا الجيش بدأ يزداد عدداً وعدة منذ أيام الخليفة المقتضى لأمر الله (١) ؛ فإنه لم يبلغ الدرجة التى كان عليها فى أيام العباسيين الأول ، ولم يزد عن أن يكون قوة ثانوية ليس فى إمكانها أن تلعب دوراً مهماً فى الحوادث الجسام . حقيقة أن خلفاء تلك الفترة استعملوا هذا الجيش فى أمور عدة ، فالمقتضى لأمر الله تمكن بوساطته من صد محمد ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى عن بغداد سنة ٥٥١ هـ (٢) وحقق بذلك استقلال العراق وخلص الخلافة العباسية من سيطرة الأجانب بعد أن ظلت خاضعة لهم نحو أربعة قرون ، وأن المستنجد تمكن بوساطته من القضاء على بنى أسد أصحاب الحلة المزيديّة حين رأهم يعيشون فى بلاده . فساداً (٣) . إلا أن هذه الأعمال كانت ثانوية أيضاً ، فقد كان

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٢ وما يليها

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٥ - ٩٦ .

(٣) أبو الفدا - المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٤٣

السلاجقة حين صدهم المقتضى لأمر الله قد وصلوا الى أشد درجات الضعف ، هذا ونحن نعلم أن جيوش السلاجقة هزمت جيوش الخلافة بعد ذلك فى أيام الخليفة الناصر ، اذ ان هذا الخليفة عندما رأى ازدياد نفوذ طغرل بن أرسلانشاه بن طغرل جهز عسكرا كثيفا سنة ٤٨٥ هـ وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس ثم سيرهم لمحاربته ولكنه هزمهم قرب همدان (١) ، كما أن بنى أسد الدين انتصر عليهم الجيش العباسى فى أيام المستنجد لم يزد أمرهم عن أن يكونوا قبائل بدوية لا يربطها نظام ولا يجمعها حكم .

ويثبت لدينا أن هذا الجيش كان قوة ثانوية لا أكثر ولا أقل حين نراه فى أيام الخليفة الناصر يظهر العجز والقصور أمام جيوش محمد خوارزمشاه ، فقد ارسله بقيادة وزيره ابن القصاب الى خوزستان فاستولى عليها كما استولى على بعض مدن فى فارس ، ولكنه حين وصلت جيوش محمد خوارزمشاه انسحب منها وولى الادبار (٢) ؛ ولذلك كان الناصر يتحاشى ملاقات جيوش محمد خوارزمشاه بعد ذلك . ويضاف الى ذلك أن الخليفة المستنصر كان يلجأ الى الأمراء المسلمين بطلب معونتهم حين تهاجم حدود بلاده جيوش التتار . واننا لنعلم أن الأيوبيين كانوا يرسلون اليه فرقاً من جيوشهم ، كما كانوا يستخدمون له جندا مرتزقة (٣) ولا يمكن أن يحدث ذلك الا لأن الخليفة كان يؤمن بضعف جيشه أمام تلك الغارات القوية من تلك الجيوش العظيمة .

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٢ وأبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٨٠ .

(٢) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

(٣) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

(ج) الناحية الطائفية

كان خلفاء تلك الفترة كغيرهم من الخلفاء العباسيين يعتنقون المذهب السني ؛ وبذلك نجدهم يتخذون الوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة من طائفة أهل السنة . هذا الى أنهم كانوا ينشئون لهم المدارس والربط والمارستانات والمساجد ، وقد ذكروا ان مدارسهم في بغداد بلغت الثلاثين في ايام الناصر (١) . ولم يقتصر الامر على هذا بل ان الخلفاء كانوا يحضرون مجالس الوعظ التي جرى هؤلاء على اقامتها في ذلك الوقت ، ويذكر ابن جبير (٢) أن الخليفة الناصر جعل الشيخ جمال الدين أبا الفضائل ابن علي الجوزي ، أحد علمائهم ، يقيم مجلسه في ساحة قصر الخليفة ومناظره مشرفة عليه حتى يسمعه ، وكان يفرش هذا المكان بالحصر ليحضره العامة .

اما الشيعة فانهم وان لم يكونوا في ذلك الوقت موضع استبداد أو ظلم من الخلفاء ؛ الا أنهم كانوا في مكانة أدنى من مكانة أهل السنة ، ولم يكن الخلفاء يتخذون منهم وزراء أو أعوانا، وقد حدث أن الخليفة الناصر - وكان يتشيع (٣) - اتخذ رجلا من الشيعة هو نصير الدين العلوي سنة ٦٠٤ هـ يعد ابن القصاب وزيرا له فغضب أهل السنة وكثرت أقوالهم فيه حتى اضطر الى عزله ، ومن أقوالهم هذه الأبيات (٤) :

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠١ .

(٣) أبو الفدا ، ج ٤ ، ص ١١٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٢٩ .

ألا مبلغ عنى الخليفة أحمد
 توق وقيت السوء ما أنت صانع
 وزيرك هذا بين أمرين فيهما
 فعالك يا خير البرية ضائع
 فإن كان حقا من سلالة أحمد
 فهذا وزير فى الخلافة طامع
 وإن كان فيما يدعى غير صادق
 فأضيع ما كانت لديه الصنائع

وقد كان لسياسة الخلفاء هذه ازاء الطائفتين أثرها
 السيئ ، لأن الشيعة أصبحوا يكرهون أهل السنة ويحقدون
 عليهم تمتعهم بالمراكز العليا دونهم وقربهم من الخلفاء ، ولذلك
 كانت المعارك كثيرا ما تقوم بين الفريقين فيقوض النظام
 ويضطرب الأمن .

وكان للمسيحيين فى بغداد مركز ثابت ، كما كان الخلفاء
 العباسيون يعاملونهم معاملة حسنة . وقد سمحوا لبطريق
 النسطوريين منهم بالاقامة فى بغداد ، كما سمحوا لهم جميعا
 باقامة الكنائس والاديرة ومزاولة طقوسهم الدينية . وكان
 للمسيحيين فى بغداد الغربية أديرة كثيرة ، منها دير العذارى
 فى حى الكرخ ودير درتا وهو يحاذى باب الشماسية راكبا
 على دجلة ودير القباب شمال حى الزبيدية ودير أشمونى
 وهو بقطربل شمال المدينة المستديرة ودير مديان أو دير
 سرجيوس على قناة الكرخ ودير الثعالب بقرب قبر معروف
 الكرخى ودير الجاثليق بقرب دير الثعالب . وكانت توجد

في بغداد الشرقية كنيسة احدى احياء النسطوريين والآخرى لليعقوبيين * وكان للنسطوريين أيضا دير الروم ويحيط به حتى النصراني الذي كان يقع الى الشمال من قناة المهدي عندما تسير غربا لتلتقي بقناة السور في حي الشماسية ، كما أن لهم ديرين خارج باب الشماسية ، هما دير درمالس ودير سمالو وشمالها دير سابر ودير مارجرجس * أما في بغداد الجديدة ، فكان لهم دير الرندورد بقرب باب الازج * وعندما كتب ياقوت كتابه البلدان ، كان كثير من هذه الأديرة قد تهدم وأصبح أماكن نزهة يذهب اليها أهل بغداد لقضاء أعيادهم * على أن المسيحيين مع ذلك كانوا لا يزالون يحتفظون بمركزهم القديم في بغداد ، وإذا كانت بعض مبانيهم قد تهدمت في أثناء المنازعات التي كانت تقوم بين أهل السنة والشيعة فقد تهدم أيضا من جراء هذه المنازعات كثير من مساجد المسلمين * ولا شك أن المسيحيين لم يلاقوا من الخلفاء العباسيين الا كل غطف (١) *

ولم تكن حالة اليهود في تلك الفترة من حياة الخلافة العباسية تختلف عن حالة المسيحيين من حيث الحرية والطمأنينة ، فقد كان عددهم في بغداد يبلغ الألف نفس عندما زارها بنيامين التطيلي في أيام المستنجد ، كما كانوا يتمتعون بسلام وراحة وجاء عظيم ، وكانت لهم مدارس لدراسة القانون الموسوى بلغت العشرة ، وكان لهم رئيس يسمونه أمير الأسر ويسميه المسلمون حفيد داود النبيل تحت سلطته كل الجمعيات اليهودية ويتمتع بدخل واسع ، وكان الخلفاء العباسيون يقربون اليهود ويأمرون الناس ، سواء منهم

(١) ياقوت - معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١١٩ - ١٨٥ *

المسلمون أو المسيحيون باحترام رئيسهم والقيام في حضرته . وكان لليهود ثمانية وعشرون معبدا بعضها في بغداد الشرقية والبعض الآخر في الكرخ . وكانت هذه المعابد فخمة بها أعمدة الرخام ونقوش الذهب ؛ وذلك لأن اليهود في بغداد كانوا أغنياء يملكون البساتين والعقارات ويشغلون بالتجارة (١) .

(د) الناحية العمرانية

العراق قطر زراعي والعمل الأساسي الذي يقوم به أهله هو الزراعة وأهم ما تحتاج إليه الزراعة هو الاهتمام بمشروعات الري اهتماما يكفل للزراع الحصول على الماء حين يحتاجون إليه . ولما كان الخلفاء العباسيون بعد أن استقلوا بشئون العراق ساروا على شاكلة اسلاجة وأهملوا مشروعات الري أهمالا جعل الحصول على الماء اللازم للزراعة في حينه متعذرا ، كما جعل المزارعات عرضة لفيضانات الأنهار في كثير من الأحيان - فقد صار أهل العراق في هذه الفترة في أسوأ حال (٢) .

وزاد من سوء حال أهل العراق في ذلك الوقت ما اشتهر به الخلفاء من حب للمال وعملهم على جمعه . فانهم لم ينسوا أن يثقلوا كاهل الناس بالمكوس والضرائب ، وقد ذكروا أن المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج (٣) ، كما ذكروا أن الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) كان سييء السيرة خربت في أيامه العراق مما أحدثه من الرسوم

(١) Asher (trans.) Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, pp. 100-104.

(٢) Coke, Baghdad the City of Peace, p. 125.

(٣) الفخرى ، ص ٢٣٢ .

وما اغتصبه من الأموال والأموال (١) ، وأن الخراج في أيامه أصبح كبيراً جداً لدرجة أن يعقوبا (٢) التي كان يحصل منها قبل زمنه عشرة آلاف دينار ، أصبح يؤخذ منها في أيامه ثمانين ألفاً (٣) .

وكما أن الخلفاء أهملوا الزراعة والري فقد أهملوا التجارة وكان جشعهم سبباً في كسادها ، وليس أدل على ذلك مما ذكره السيوطي حين قال أن فقيها خرج من سمرقند في أيام الخليفة الناصر يقصد الحج على فرس جميلة فقال له أهله لو تركتها عندنا لئلا تؤخذ منك في بغداد (٤) ، فان جشع الخليفة الذي صار مضرب الأمثال وأصبح الناس يتقونه لدرجة أنهم يخافون على فرس يركبها رجل بقصد الحج ، لا بد أخاف التجار وأزعجهم وجعلهم لا يقدمون إلى العراق .

ولم يعن الخلفاء بإقامة المباني وتشيد القصور كما كان من سبقهم في أيام السلاجقة ؛ وذلك لأن ظهور الدولة الخوارزمية أولاً ثم ظهور الخطر المغولي بعد ذلك استغرق معظم جهودهم ، ولذلك فأننا لا نكاد نعثر في هذه الفترة على مبان تستحق الذكر اللهم إلا المدرسة المستنصرية التي أسسها الخليفة المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ = ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) وعلى العموم ، فقد كانت هذه الفترة فترة تأخر للزراعة وكساد للتجارة وتأخر لفن العمارة .

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ .

(٢) يعقوبا بالفتح ثم السكون وضم القاف وسكون الواو والباء موحدة ويقال لها باعقوبا أيضاً قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ، راجع اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ خ ص ٣١١ .

(٤) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٠ .

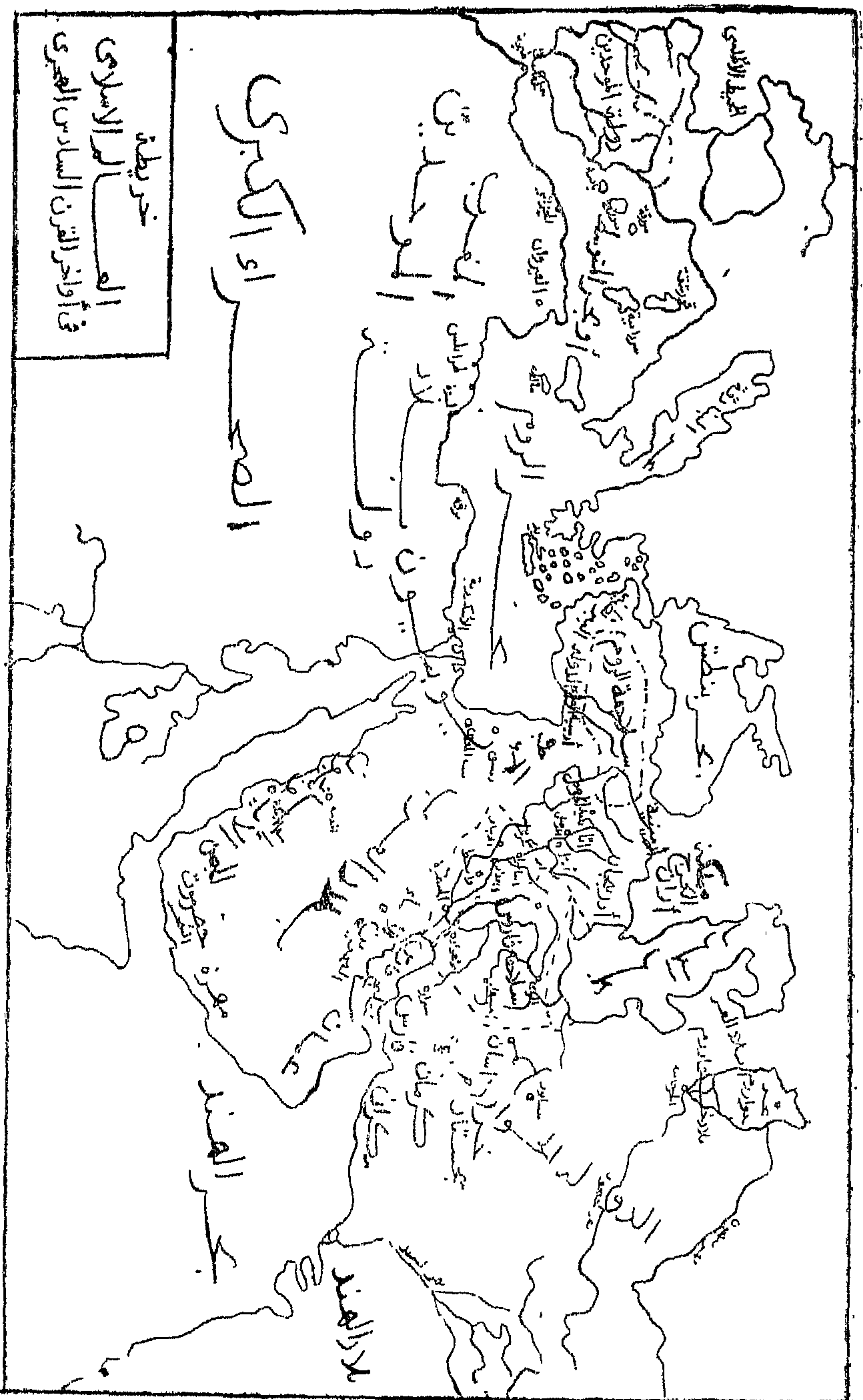
٢ - الحالة الخارجية

كانت حالة الخلافة العباسية الخارجية فى هذه الفترة على العكس مما قد يتوقعه البعض - أحسن من حالتها الداخلية . فقد كانت الخلافة لا يزال لها فى العالم الاسلامى مركز ممتاز وكان الخلفاء لا يزالون يتمتعون باحترام عظيم من المسلمين ، وليس أدل على ذلك مما ذكره الذهبى فى مخطوطه عند كلامه على سنة ٦٢٢ هـ فقد قال ان الملك المعظم (يقصد الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل الذى حكم فى دمشق من سنة ٦١٥ الى سنة ٦٢٤ هـ) حين دعاه جلال الدين خوارزمشاه لمحاربة الخليفة الناصر كتب اليه يقول : « انا معك على كل حال الا على الخليفة فانه امام المسلمين » . هذا الى أن معظم خلفاء هذه الفترة كانوا يسيرون الخلع والتقاليد الى الأيوبيين فى مصر والشام ومكة وأحيانا الى فارس وخراسان وخوارزم وما وراء النهر . على أنه يجب علينا اذا أردنا أن نستوفى الكلام على الحالة الخارجية أن نتكلم على الدول الاسلامية فى ذلك الوقت ثم على علاقة هذه الدول بالخلافة العباسية .

(أ) العالم الاسلامى فى عهد استقلال الخلفاء (٥٥١ - ٦٤٠ هـ)

١ - الدولة السلجوقية فى فارس : بعد أن تضعضت

الأسرة السلجوقية وفقدت نفوذها فى العراق سنة ٥٥١ هـ على أثر فشل السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه فى التغلب على جيوش الخليفة العباسى المقتضى لأمر الله التى قامت بالدفاع عن بغداد ، لم يبق لها الا فارس . وقد تمكن



سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه عم محمد بن محمود المذكور من أن يصبح سنة ٥٥٤ هـ صاحب الأمر فيها واستقر في همدان وذلك بعد أن تغلب على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه بن أخيه طغرل الأول وحكمها سنتين ؛ وخلفه على العرش أرسلان شاه ابن أخيه طغرل وخلل في الحكم الى أن مات سنة ٥٧٣ هـ ، فخلفه ابنه طغرل الثاني الذي حكم سبع عشرة سنة فقد بعدها حياته وملكه ، حين هزمه تكش خوارزمشاه وقتله وضم أملاكه الى أملاك الدولة الخوارزمية سنة ٥٩٠ هـ (١) .

٢ - الدولة الخوارزمية : أما الدولة الخوارزمية ، فقد أسسها أحد مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي واسمه أنشستجن Anusnugn حين جعله هذا السلطان العظيم حاكما على ولاية خوارزم سنة ٤٧٠ هـ . فقد خلفه ابنه قطب الدين محمد سنة ٤٩٠ هـ ثم حفيده أطرز Atsiz سنة ٥٢١ هـ الذي كان أول من أظهر استقلاله عن الدولة السلجوقية العظمى سنة ٥٣٣ هـ في أيام السلطان سنجر الذي مد نفوذه حتى مدينة جند الواقعة على نهر سيحون - وكان من المصادفات أن مات أطرز في سنة ٥٥١ هـ - ١١٥٦ م التي بدأ فيها عهد استقلال الخلفاء العباسيين وتخلصهم من نير السلاجقة - ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده حتى وصل الأمر الى تكش بن ايل أرسلان فضم الى أملاكه خراسان والرى واصبهان فيما بين سنتي ٥٨٩ و ٥٩٠ هـ (١١٩٣ و ١١٩٤ م) . وبعد

(١) البنداري ، ص ٢٩٤ وابن الاثير ج ١٢ ، ص ٥٠١ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ٩٤ .

Muir, The Caliphate, p. 583.

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 154.

موته سنة ٥٩٦ هـ - ١١٩٩ م تولى ابنه علاء الدين محمد فصار في الطريق الذي سلكه أبوه واستولى على كرمان ومكران وبلاد الجبل وفارس (١) . كما أخضع لنفوذه بخارى وسمرقند وغزا أملاك الخطا واستولى على عاصمتهم اترار . وفي سنة ٦١١ هـ - ١٢١٤ م قضى على الدولة الغورية واستولى على غزنة . ولم يكن هذا هو كل ما فعله محمد خوارزمشاه ، بل انه في سنة ٦٢٤ هـ - ١٢١٧ م اعتنق المبادئ الشيعية وعول على السير الى بغداد ولم ينقذها منه الا غضب الطبيعة على جيشه ونزول الثلج على جنوده . وقد تبع ذلك ظهور المغول في شرق أملاك الدولة الخوارزمية ثم مهاجمتهم لها وفرار محمد خوارزمشاه أمامهم وموته حزنا على ضياع ممتلكاته سنة ٦١٧ هـ ثم قيام ابنه جلال الدين منكبرتي بعده بمحاربة المغول وانتهاء أمره بالهزيمة ثم الفرار والموت سنة ٦٢٨ هـ وزوال الدولة الخوارزمية من الوجود (٢) .

٣ - الاسماعيلية (الحشيشية) : أما الاسماعيلية فانهم كانوا من قوى العالم الاسلامي التي لا يستهان بها في ذلك الوقت . وأول ظهورهم كان في اصبهان على يد أحمد ابن عبد الملك بن عطاش ، وفي أيام تلميذه الحسن بن الصباح اتسع نفوذهم فاستولوا على المرت سنة ٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م ثم نشروا نفوذهم على قلاع أخرى كثيرة في بلاد

(١) مكران بالضم ثم السكون وراء وآخره نون أعجمية ، وهي ولاية واسعة تشتمل على مدن وقرى بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها . راجع لفظ مكران في معجم البلدان لياقوت .

(٢) أبو الفدا - ج ٣ ، ص ١٢٤ والكامل لابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٧٠ و ٢٢١ .
Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 176-177. و

فارس من بينها زوزن وكردكوه . وظهر لهم بعد ذلك أتباع في الشام في عدة مراكز من بينها حلب في أيام أميرها رضوان ابن تتش ودمشق في أيام تاجي الملوك بوري . وقد ظهر رجل منهم يسمى بهرام قوى نفوذه وتمكن من الاستيلاء على بانياس وعلى سبع قلاع أخرى بين حماه وحمص وكاد يستولي على دمشق نفسها لولا أن أحس بوري بخطرته . ثم تنقلت رئاسة الاسماعيلية بعد ذلك من واحد لآخر ؛ حتى صارت في أيام صلاح الدين الأيوبي الى أبي الحسن راشد الدين سنان المصري . واشترك الاسماعيلية في الشام في كثير من الحروب الصليبية ، كما أنهم حاولوا قتل صلاح الدين الأيوبي فحاصر قلاعهم سنة ٥٧٢ هـ ثم عفا عنهم . وقد مات رئيسهم سنان سنة ٥٨٨ هـ ولم يأتوا بعد ذلك بأمر ذي بال .

وقامت حكومة الاسماعيلية في ألمات بزعامه الحسن بن الصباح ، فلما مات سنة ٥١٨ هـ تناوب الزعامه سبعة سمو مشايخ الجبل في مدى قرنين من الزمان بسطت فيهما نفوذها على كثير من بلاد قوهستان وتمكنت من مقاومة السلاجقة ثم الخوارزميين . وقد كان هؤلاء الرؤساء جميعا بعيدين عن العمل بالشريعة الاسلامية ، فلما تولى الرئاسة جلال الدين بن حسن الكيا الصباحي أظهر التوبة في سنة ٥٥٧ هـ وبقي على ذلك الى سنة ٦٠٨ هـ فأظهر شعائر الاسلام وكتب الى جميع قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم والشام فأقيمت فيها ، وبقي على ذلك حتى توفي سنة ٦١٨ هـ فقام من بعده ابنه علاء الدين محمد الذي عاد الى ما كان عليه أسلافه من

الالحداد ، ثم ولى بعده ابنه ركن الدين خورشاه بعد أن حرض حسن المازندراني على قتل أبيه سنة ٥٦٣ هـ (١) .

٤ - **الدول الأيوبية :** ومن أهم الدول الإسلامية في تلك الفترة الدول الأيوبية في مصر والشام والجزيرة وبلاد العرب . فقد ذهب صلاح الدين إلى مصر موفداً مع عمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، ثم ما لبث بعد موت عمه أن صار حاكم مصر الحقيقي وذلك سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) على الرغم من أن الخليفة الفاطمي العاضد لم يمت إلا بعد ذلك بثلاث سنين . وقد عمل بعد ذلك على نشر نفوذه فصار صاحب السلطان في مكة والمدينة بل وفي اليمن حين أرسل أخاه توران شاه إليها سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) فأسس بها حكومة أيوبية ظل يتولاها أفراد من بني أيوب حتى سنة ٦٢٥ - ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، حين حلت محلهم أسرة بني رسول . هذا إلى أن صلاح الدين نشر نفوذه في سورية على أثر موت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٢ م) ، وأخضع الموصل وجعل أمراء بلاد الجزيرة أقياله (٥٨١ هـ = ١١٨٥ - ١١٨٦ م) وبذلك أصبح السيد المطلق في الأراضي الممتدة بين الفرات والنيل اللهم إلا معاقل الصليبيين ، ومع ذلك فقد قوضت موقعة حطين (يوليو سنة ١١٨٧ - ٥٨٣ هـ) أركان مملكة بيت المقدس الصليبية (٢) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١١٦ و ١٢٠ - ١٢٢ والقلقشندي - صبح الأعشى ج ١ ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

Browne, Account M. H., pp. 40-42. و

Browne, Lit. Hist. of persia, II, p. 453. و

Osborn, Islam under the caliphs, pp. 336-366. و

D'Ohsson, Hist. des Mongoles, III, pp. 164-187. و

(٢) المقرئ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٣ - ٥٥ و ٧٧ - ١١٠ .

Lane-poole, The Muh. Dyn, pp. 74-75.

وبعد موت صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ انقسمت أملاكه بين اخوته وأولاده ، فكانت اليمن فى يد أخيه طغتكين سيف الاسلام (٥٧٧ - ٥٩٣ هـ) ، وآلت البلاد الجزرية الى أخيه العادل سيف الدين أبى بكر الصفدى ، وكانت حلب فى يد الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ودمشق فى يد صلاح الدين ، ابن صلاح الدين ، ومصر فى يد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، بينما كانت حمص فى يد مجاهد شيركوه الثانى ، حفيد أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، وكانت حماه فى يد منصور الأول محمد بن مظفر الأول تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه أخى صلاح الدين ، وكانت بعلبك فى يد بهرام شاه بن فروخ شاه داود بن نور الدين شاهنشاه المذكور (١) .

غير أن الأمور ما لبثت أن تغيرت ولم تجر فى طريقها العادى ، فاستولى العادل على دمشق من الأفضل سنة ٥٩٢ هـ ثم على مصر من منصور محمد بن العزيز سنة ٥٩٦ هـ وظل يحكم تلك الجهات حتى مات سنة ٥٦١ هـ ، وبعد موته ترك أولاده فحكموا فى مصر ودمشق وبلاد الجزيرة وأسسوا لهم بيوتا حاكمة فيها (٢) ، بينما لم ينجح من أبناء صلاح الدين سوى واحد فقط هو الظاهر غياث الدين غازى (٥٨٢ -

(١) المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ٤٣ - ٥٥ و ٧٧ - ١١٠
Lane-pool, The Muh. Dyn, p. 76.

(٢) حكم فى مصر الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ) ثم ابنه العادل الثانى سيف الدين أبو بكر (٦٣٥ - ٦٣٧ هـ) ثم ابنه الثانى نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) وحكم فى دمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى (٦١٥ - ٦٢٤ هـ) ثم ابنه الناصر صلاح الدين داود (٦٢٤ - ٦٢٦ هـ) ثم الصالح اسماعيل أخو الملك المعظم شرف الدين عيسى مرتين (٦٣٥ و ٦٣٧ - ٦٤٣ هـ) وحكم فى البلاد الجزرية عوض نجم الدين أيوب (٥٩٧ - ٦٠٧ هـ) ثم أخوه الأشرف مظفر الدين موسى (٦٠٧ - ٦٢٨ هـ) ثم أخوه الثانى مظفر غازى (٦٢٨ - ٦٤٣ هـ) .

٦١٣ هـ (الذي أسس دولة له في حلب (١) . أما بيت طغتكين سيف الاسلام في اليمن فقد ظل الأمر فيه يسير في مجراه الطبيعي ، وكذلك كان الحال فيما يختص بالبيت الشيركوهي في حمص والبيت الشاهنشاهي في حماه ، الذي من نسله أبو الفدا مؤلف كتاب المختصر في أخبار البشر . ويجب ألا ننسى أن الفرع الثاني من البيت الشاهنشاهي كان يحكم في بعلبك منذ موت صلاح الدين و زال سنة ٦٢٧ هـ بموت بهرام شاه (٢) .

ولو أنعمنا النظر في تاريخ الدول الأيوبية لوجدنا أن حروبا كثيرة كانت تقوم بين أفراد البيت الأيوبي ، وكان من نتائج هذه الحروب أن بعض أفراد هذه البيوت الحاكمة كان يمد نفوذه أحيانا على أملاك البعض الآخر، ومثل ذلك ما حدث حين استولى الأشرف مظفر الدين موسى صاحب البلاد الجزرية على دمشق سنة ٦٢٦ هـ ، ومثل ما حدث بعد ذلك حين مد الكامل صاحب مصر سلطانه على دمشق سنة ٦٣٥ هـ وتبعه في ذلك العادل الثاني في نفس السنة ثم الصالح أيوب سنة ٦٣٧ هـ وسنة ٦٤٣ هـ بعد أن كان الصالح اسماعيل صاحبها قد استرد نفوذه فيها (٦٣٧ - ٦٤٣ هـ) . أضف الى ذلك ما كان يتعرض له الأيوبيون من هجمات الصليبيين التي يمكن أن نذكر من أهمها غزوهم دمياط في أيام الكامل سنة

(١) بعد موت الظاهر حكم في حلب ابنه العزيز غياث الدين محمد (٦١٣ - ٦٣٤ هـ) ثم حفيده الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد (٦٣٤ - ٦٥٨ هـ) .

(٢) ابن العبري ، ص ٣٩١ - ٤٥٤ .

٦١٦ هـ وغزوهم دمياط والمنصورة سنة ٦٤٧ هـ فى أيام الصالح نجم الدين أيوب (١) .

٥ - الروم السلاجقة : كانت دولة الروم السلاجقة من ضمن الدول الاسلامية المعاصرة لفترة استقلال الخلفاء العباسيين الأخيرة (٥٥١ - ٦٤٠ هـ) أسسها سليمان بن قطلمش Kutlumish ابن أرسلان بيغو بن سلجوق سنة ٤٧٠ هـ (١٠٧٧ م) وتولى على عرشها من بعده أولاده وأحفاده (٢) حتى وصل الأمر الى غياث الدين كيخسرو الثانى ابن علاء الدين كيقباد الأول (٦٣٤ - ٦٤٣ هـ) (١٢٣٦ - ١١٤٥ م) . وأهم ما يمكننا ملاحظته أن هذه الدولة وقعت منذ سنة ٦٤٠ هـ تحت نفوذ المغول ، على أثر ما كان من انهزام غياث الدين كيخسرو أمام جيوشهم عند أرزنجان - احدى بلاد أرمينية - ودخول هذه الجيوش وتغلغلها فى بلاده ، وفتحها سيواس وقيصرية عنوة ثم طلب غياث الدين الصلح واجابته اليه على أن يدفع جزية سنوية قدرها أربعمائة ألف دينار ويقدم عددا من العبيد والخيول والأشياء الثمينة (٣) .

(١) ابن العبرى ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .

والمقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ١٩٤ - ٢٠٩ و ٢٢٣ - ٢٦٣ .

(٢) حكم فى فترة استقلال الخلفاء سبعة من السلاطين هم - عز الدين قليج أرسلان الثانى (٥٥١ - ٥٨٤ هـ = ١١٥٦ - ١١٨٨ م) وابنه قطب الدين ملكشاه الثانى (٥٨٤ - ٥٨٨ هـ = ١١٨٨ - ١١٩٢ م) وابنه الثانى غياث الدين كيخسرو الأول (٥٨٨ - ٥٩٧ هـ = ١١٩٢ - ١٢٠٠ م) وابنه الثالث ركن الدين سليمان الثانى (٥٩٧ - ٦٠٠ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٣ م) وقليج أرسلان الثالث بن سليمان الثانى (٦٠٠ - ٦٠١ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٠٤ هـ = ٦٠٧ - ٦٠٨ هـ) وكبخسرو الأول مرة ثانية (٦٠٧ - ٦١٦ هـ = ١٢١٠ - ١٢١٩ م) وعز الدين كيكاوس الأول (٦٠٧ - ٦١٦ هـ = ١٢١٠ - ١٢١٩ م) وأخيرا علاء الدين كيقباد الأول (٦١٦ - ٦٣٤ هـ = ١٢١٩ - ١٢٣٦ م) .

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٤٠ - ٤٤٢ .

Lane-Poole, The Muh. Dyn p. 155.

Howorth, Hist of the Mongols. p. 166

٦ - أتابكية الموصل : هذا ويجب ألا ننسى أن الدولة التي أسسها عماد الدين زنكى في سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ظلت قائمة في هذه الفترة وان كانت قد ضعفت وضافت رقعته ، وبعد أن كانت تشمل في أيام نور الدين محمود وأخيه سيف الدين غازي الشام وبلاد الجزيرة ، أصبحت لا تتعدى الموصل ، وانتهى بها الأمر بعد وفاة ملكها ابقاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى سنة ٦١٥ هـ أن صارت تحت وصاية بدر الدين لؤلؤ الذي عينه الملك القاهر قبل وفاته وصيا على ولده نور الدين أرسلان شاه لصغر سنه ، وصار بعد وفاة نور الدين هذا سنة ٦١٦ هـ وصيا على أخيه ناصر الدين محمود الذي كان له من العمر ثلاث سنوات . وبعد وفاة هذا الأخير سنة ٦٣١ هـ أصبح بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل واستتب له الأمر فيها بل أنه أخذ يضيف إليها فملك جزيرة ابن عمر (١) في سنة ٦٤٨ هـ وأسر صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من بيت أتابك زنكى ، ثم قتله وظل يحكم حتى سنة ٦٦٠ هـ (٢) .

(ب) علاقة الخلافة العباسية بالدول الإسلامية

إذا استعرضنا العلاقات الخارجية بين الخلفاء العباسيين والدول الإسلامية في ذلك الوقت ، وجدناها تسير طبقا لسياسة مرسومة ترمى الى غرضين اثنين : أحدهما تأمين العراق من الأخطار الخارجية ، وثانيهما نشر نفوذ الخلافة العباسية في العالم الإسلامي .

(١) وهي بلدة كانت تقع على دجلة شمالي الموصل .

(٢) ابن العبري ، ص ٣٩١ ب ٤٥٦ .

١ - تأمين العراق من الأخطار الخارجية : تمكن الخليفة

العباسي المقتدى لأمر الله من صد غارة السلطان محمد بن محمود السلجوقي عن بغداد سنة ٥٥١ هـ وأعاد بذلك الى الخلافة العباسية نفوذها بعد أن كانت العوبة في أيدي الأجانب أكثر من قرنين (٣٣٤ - ٥٥١ هـ) كما أعاد الى العراق استقلاله . وبعد موته سنة ٥٥٥ هـ اعتلى عرش الخلافة المستنجد فعمل هو ووزيره ابن هبيرة على تأمين العراق من الأخطار . وحدث في ذلك الوقت أن أصبح الأمر في فارس للسلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بعد تغلبه على ملكشاه ابن أخيه محمود وعلى أرسلان شاه ابن أخيه طغرل ، وأرسل الأمير عبد الرحمن بن طغايرك لينوب عنه في بغداد كما أرسل رسولا ليخطب له في العراق ، فلم يرض المستنجد ووزيره بشيء من ذلك ولم يحققوا أمله ومات الرسول وانتشرت الأراجيف بعد موته كما عاد ابن طغايرك أدراجه (١) .

أما الخليفة الناصر فانه حين رأى طغرل بن أرسلان شاه قد قوى نفوذه بعد موت أبيه وامتلك كثيرا من البلاد وأصبح يهدد العراق ، أرسل قوة على رأسها وزيره جلال الدين عبيدالله ابن يونس لمحاربته (٢) والقضاء عليه ، فلما انتهى أمرها بالهزيمة ورأى أن قوته لن تنفع في صد تيار طغرل اتجه الى الدولة الخوارزمية الناشئة واستعان بها عليه فوصل الى غرضه ، اذ حاربه تكش خوارزمشاه وهزمه وقتله وأرسل رأسه الى الخليفة ليعرضها أمام قصره في بغداد (٣) .

(١) البندارى - زبدة النصرة ونخبة العصرة ، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٢ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ٨٠ .

(٣) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٥٠ و Muir, The Caliphate, p. 583.

وكما أن تأمين العراق كان سبباً في بدء العلاقات الودية بين الخليفة الناصر والدولة الخوارزمية ، فقد كان أيضاً السبب في سوء هذه العلاقات وما أتت به من نتائج سيئة ، وذلك أن الناصر حين استعان بتكش كان يأمل من وراء القضاء على السلاجقة تأمين العراق بالحصول على جزء كبير من أملاكهم في فارس ، ولهذا السبب نجده يعد أن يقضى تكش على طغرل يبادر إلى الاعتراف بسلطته في خوارزم وخراسان وفارس (١) ثم يرسل إليه سنة ٥٩٠ هـ وزيره مؤيد الدين ابن القصاب ومعه خلع ثمينة وهدايا فاخرة . ولكنه حين يجد أن تكش لم يقابل رسوله بالترحاب بل وأرسل قوة لردّه قبل وصوله إلى همدان (٢) ، يعلم أنه يريد إبقاء ممتلكات السلاجقة لنفسه ويرى أن في هذا أكبر الخطر على العراق لأن الدولة الخوارزمية أقوى من السلاجقة في فارس ومطامعها أوسع ، ولذلك عزم على مناوأة تكش وقد أرسل لهذا الغرض وزيره ابن القصاب على رأس قوة إلى خوزستان في السنة نفسها ، كما أرسل في السنة التي تليها قوة على رأسها مملوك اسمه سيف الدين طغرل ، نجحت كل منها واستولت على عدة بلاد بسبب غياب تكش في الجهات الشرقية من ممتلكاته ، ولكن نجاحها كان مؤقتاً ولم يلبث تكش عند عودته أن طرد كلا منها وأعاد الأمور إلى ما كانت عليه . ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل إن تكش في سنة ٥٩٢ هـ أرسل إلى الخليفة يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه وأن يجيء إلى بغداد ويكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك

(١) ابن الأثير ح ١٢ ، ص ٥٠ .

Muir, The Caliphate, p: 583.

Sayed Ameer Ali, A short Hist of the Saracens, p. 386.

Ravesty (trans.), Tabakat-i-Nasiri, note, 6, p. 242.

و

(٢)

و

السلجوقية (١) ، كما أنه عند موته واعتلاء ابنه محمد خوارزمشاه على عرش السلطنة تبودلت الرسائل بينه وبين الخليفة الناصر في هذا الموضوع ولكنه لم يفز بطائل وكان ذلك سبباً في غضبه على الخليفة وعزمه على اذلاله ، وبخاصة بعد أن وقعت في يده مراسلات عندما فتح غزنة كان الناصر قد أرسلها الى شهاب الدين الغوري وأخيه يدعوهما فيها الى محاربة تكش (٢) وبعد أن ثبت لديه أنه يحرض الثائرين عليه في فارس (٣) . وقد سنحت له الفرصة عندما حرض الناصر نفراً من الحشيشية فقتلوا أغلمش الأتابكي الذي كان ينوب عنه في العراق وذلك عندما ركب يلتقي الحجاج عند انصرافهم من حج بيت الله الحرام . وقد سار محمد خوارزمشاه الى العراق العجمي وجمع مجلساً من العلماء أفتى بأن الناصر لا يستحق الخلافة ، وعين علويًا من ترمذ اسمه علاء الملك اماماً بدلاً منه (٤) ، ولم يكتف بذلك بل سار يقصد بغداد ولم يحل دون ذهابه اليها الا نزول الثلج على جيشه بعد أن بعد عن همدان بيومين أو ثلاثة وعلا عقبة سغديباد ، ومهاجمة بني ترجم الأتراك وبني هكار الأكراد لمن بقي من الجند ثم تهديد المغول لبلاده . ومع ذلك ، فإنه أخذ يقطع الخطبة للناصر في البلاد التي يمر بها في عودته (٥) . وبعد موت محمد خوارزمشاه واستيلاء ابنه جلال الدين على عرش الدولة الخوارزمية ظلت العلاقات مع الناصر سيئة ، على

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٢ .

Howrth, History of the Mongols, p. 74.

Encyc. of Islam, art. Nasir.

Ibid.

Ravesty (trans.), Tabakat-i-Nasiri, p. 265, nota 4.

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٤٦ ، وأبني الهدا ج ٣ ، ص ١٢٤ ، ومحمد بنسوي ،

سيرة جلال الدين ، ص ٢٠ .

الرغم من محاولة جلال الدين تحسينها (١) ، فلما مات الناصر وحلت أيام المستنصر تحسنت العلاقات ولكن لم يكن لذلك فائدة تذكر ؛ لأن الدولة الخوارزمية سرعان ما زالت امام ضربات المغول *

ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام أن سياسة تأمين العراق من الأخطار الخارجية كانت سببا في نشوء العلاقات بين الخلافة العباسية والمغول ، أو بمعنى آخر كانت سببا في مجيء المغول الى الغرب وقضائهم على الخوارزمية كما كانت من قبل سببا في قضاء الخوارزمية على دولة السلاجقة في فارس ، فقد ذكروا أن الخليفة الناصر حين اشتد النزاع بينه وبين محمد خوارزمشاه وخاف يخطره استدعى المغول (٢) ، الذين كانوا قد نشروا نفوذهم في الصين واتجهوا غربا فلبوا دعوته وتدفقوا الى ما وراء النهر بقيادة جنكيز خان وتمكنوا بعد حروب طويلة من القضاء على الدولة الخوارزمية التي كانت تضايق الخلافة العباسية وتهدها وذلك في عهد اخطاي بن جنكيزخان ، على أن الناصر وقد أدت به رغبته في تأمين العراق الى استدعاء المغول ما لبث أن رأى أكبر الخطر مجسما فيهم ولذلك أخذ يقاومهم في آخر أيامه ، وكذلك حاربهم خلفه المستنصر وصدهم عدة مرات عن العراق ولكن الخطر المغولي كان عظيما جارفا ولذلك كان سببا في فشل سياسة تأمين العراق ، بل انه اكتسح العراق نفسه وقضى على الخلافة العباسية . ومن ذلك ترى أن سياسة تأمين العراق كانت السبب في نشوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاجقة فارس ثم بينهم وبين الدولة الخوارزمية ثم أخيرا بينهم وبين المغول *

(١) محمد النسوي - سيرة جلال الدين ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ٢٠٢ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ١٤٢ .

٢ - نشر نفوذ الخلافة العباسية فى العالم الاسلامى :

كانت أول محاولة لنشر نفوذ الخلافة العباسية فى العالم الاسلامى للخليفة المقتضى لأمر الله حين أراد أن يستفيد من حسن علاقاته مع نور الدين محمود بن زنكى لنشر نفوذه فى مصر . فقد ذكروا (١) أنه عندما علم بمقتل الظافر بالله الفاطمى واقامة ابنه الفائز عيسى مكانه وكان صبيا صغيرا كتب عهدا الى نور الدين وولاه مصر وأمره بالمسير اليها . هذا واذا لم تكن رغبته قد نفذت فى حياته فان نور الدين فى السنة التى اعقبت موت المقتضى وفى عهد المستضى عندما بلغه أن صلاح الدين تمكن من مصر سنة ٥٦٧ هـ وحكم على القصر ، أرسل اليه يأمره بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية مكانها (٢) ، وكان له ما أراد وتمت أول خطوة لنشر نفوذ الخلافة العباسية فى أيام الخليفة المستضى (٣) .

أما الناصر فسار شوطا بعيدا فى سبيل نشر نفوذ الخلافة فى العالم الاسلامى ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء مثل الظاهر والمستنصر . ودليل ذلك أنهم جميعا اتبعوا سياسة مصادقة الأيوبيين ، فكانوا يرسلون اليهم الخلع والتقاليد كما كان هؤلاء يحترمونهم فيرجعون اليهم لفض مشاكلهم ولا يتأخرون عن تقديم المساعدة التى فى مقدورهم تقديمها ، وبهذه الطريقة ظل نفوذ الخلافة العباسية قويا فى بلاد الأيوبيين . وان التاريخ ليقدم لنا كثيرا من الأمثلة التى توضح صدق ما قلنا ، فالسيوطى (٤)

(١) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ١٧٦ .

و Sayed Ameer Ali, A short Hist of the saracens p. 345.

(٢) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٥٣ .

(٣) ابن شاكر - فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٤) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨١ .

يذكر أن الناصر عندما تولى الخلافة بعث إلى السلطان صلاح الدين بالخلع والتقليد كما كتب إليه السلطان كتاباً يقول فيه : « والخادم والله الحمد يعدد سوابق في الإسلام والدولة العباسية لا يعمرها أولية أبي مسلم لأنه وإلى ثم وارى ، ولا أخرية طغرلبيك لأنه نصر ثم حجر ، والخادم خلع من كان ينازع الخلافة رداً عنها وأسأغ الفضة التي أذخر الله للأساغة في سيفه ماعها فرجل الأسماء الكاذبة الراكبة على المنابر وأعز بتأييد إبراهيمي فكسر الأصنام الباطنة بسيفه الظاهر » . كما يذكر أبو الفدا ما يوضح أن الناصر بعد موت صلاح الدين ظل يسير على سياسته الأولى حيال الأيوبيين فأرسل سنة ٦٠٤ هـ إلى الملك العادل وابنائه : الملك الأشرف والملك المعظم خلعا صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي وكذلك أرسل إلى الملك الكامل (١) ، وأن الملك الأفضل بن صلاح الدين كتب إليه من صرخد يشكو عمه الملك العادل أبا بكر وأخاه الملك العزيز عثمان لاغتصابهما دمشق منه ويقول (٢) :

مولاي ان أبا بكر وصاحبه

عثمان قد غصبا بالسيف حق على

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي

من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب إليه الخليفة الناصر جوابه يقول :

وافي كتابك يا ابن يوسف معلنا

بالصدق يخبر أن أصلك طاهر

(١) أبو الفدا ج ٣ ، ص ١١٤ .

(٢) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ٣ ، ص ٩٧ ، وابن العبري ، ص ٣٨٩

و ٣٩١ و ٤١٤ .

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فان غدا عليه حسابهم
وأبشر فناصرك الامام الناصر

ويذكر المقرئ ما يبين أن الخليفة المستنصر سار على طريقة الناصر وكانت العلاقات بينه وبين الأيوبيين على ما يرام ، ويقول انه أرسل في سنة ٦٢٨ هـ للملك الكامل الخلع والتقليد وميزه بزيادات كثيرة لم تفعل في حق غيره من السلجوقية وغيرهم كما أرسل خلعا للملك الأشرف أيضا (١) . ومما ذكره المقرئ أن الملك الكامل عندما أرسل اليه الخليفة المستنصر سنة ٦٣٥ هـ مائة ألف دينار ليستخدم له بها عساكر لصد المغول ، أعاد تلك الأموال دون أن يمسها وأخرج من بيت ماله الخاص مائتي ألف دينار استخدم له بها عساكر ثم جرد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف نجدة للخليفة (٢) ، هذا الى أنه وقد كان حاقدا على الناصر داود صاحب الكرك لطلاقه ابنته لم يسعه حين شفع لديه فيه الخليفة المستنصر وأرسله اليه الا أن يقبل الشفاعة بل ويضعه على رأس العساكر التي جمعها للمستنصر (٣) .

ويجب أن نلاحظ أن الخليفة الناصر حسن علاقاته مع الاسماعيلية وأنه كان يرمى من وراء ذلك الى ضمهم تحت لواء الخلافة العباسية تمشيا مع مبدأ ضم المسلمين جميعا

(١) المقرئ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥١ .

تحت راية الخلافة العباسية (١) ، وان مما سهل عليه العمل لهذه الغاية ما كان جاريا عند الاسماعيلية أنفسهم في ذلك الوقت . فان جلال الدين حفيد حسن الصباح ورئيسهم في ذلك الوقت أمر في سنة ٦٠٨ هـ باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلاد الاسماعيلية في خراسان والشام ، وأرسل رسلا الى الناصر وغيره من أمراء الاسلام يخبرهم بما فعله (٢) بل انه ترك مطالبه في الامامة واعترف بالخليفة العباسي (٣) .

يتضح من كل ما تقدم أن الخلفاء العباسيين في هذه الفترة الأخيرة من حكمهم في العراق نجحوا في تنفيذ سياستهم الخارجية ، فقد آمنوا العراق من الأخطار التي تعرض لها سواء من سلاجقة فارس أو من سلاطين الدولة الخوارزمية بالقضاء عليهم جميعا ، كما تمكنوا من ضم مصر والشام وكل بلاد الأيوبيين وكذلك بلاد الاسماعيلية وقتا ما الى دائرة نفوذهم الديني ، الا أنه برغم ذلك فان نجاحهم كان ينطوي على أسباب فشلهم ، فقد كلفتهم سياسة تأمين العراق كثيرا من المجهودات كما أنهم حين أزالوا الدولة الخوارزمية كان ذلك بفضل المغول ، ولا يخفى أن المغول وقد تغلبوا على الدولة الخوارزمية تطلعوا الى أبعد من ذلك وكان لابد لهم أن يتابعوا السير وسيرهم الى الغرب لابد أن يقضى على الخلافة العباسية التي استظلت بهم زمنا . ومع ذلك ، فان خطرهم وضح في آخر أيام الناصر نفسه كما أن المستنصر من بعده بذل مجهودا لا بأس به للوقوف أمامهم . أما نشر نفوذ هؤلاء الخلفاء على الأيوبيين وعلى الاسماعيلية وقتا ما ، فانه وان

Encyclopedia of Islam, Art. Nasir.

(١)

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٢٨ .

Encyc. of Islam, Art. Nasir.

(٣)

أكسبهم احتراماً لدى هؤلاء الأمراء وزاد من نفوذهم المعنوي بينهم بل وإن عاد عليهم ببعض الفوائد المادية كما حدث حين أرسل الكامل للخليفة المستنصر سنة ٦٣٥ هـ عشرة آلاف رجل بجانب ما جمعه له من العساكر بمائتي ألف دينار؛ فإنه بعد كل ذلك لم ينفعهم حين اشتد خطر المغول ومن هنا كان ضئيل الأثر . وسنرى أن المستعصم على الرغم من احتفاظه باحترام العالم الاسلامي ، سيتلقى الضربة القاضية وحده دون أن يأخذ بيده انسان ممن يخطبون له على منابرهم .

الباب الثانى

انتشار نفوذ المغول

الفصل الأول

البيئة المغولية وأثرها فى تكوين المغول

١ - بيئة المغول الأصلية

قبل ميلاد المسيح بعدة قرون كانت تقيم فى وسط آسيا جماعات من البدو تنتشر من غربها الى شرقها . أما فى الغرب فكانت تقيم القبائل التركية وفى الوسط القبائل المغولية وفى الشرق قبائل التنجو Tongus (١) . ولو أردنا أن نحدد اقليما جغرافيا كموطن أصلى للمغول ، لاستقر رأينا على منغوليا التى تمتد فى أواسط آسيا جنوب سيبيريا وشمال التبت وغرب منشوريا وشرق تركستان بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا .

ويمكن تقسيم منغوليا الى قسمين : قسم شمالي غربى مرتفع به جبال سيان Sayans وتنولا Tenuola وخنجاى Khangai واكتاج Ektag ، وبين هذه الجبال هضاب

Howort, Hist of the Mongols, IV, pp. 4, 6.
D'Ohsson, Hist. des Mongoles, Tome I, p. 1.

(١)

ووديان تغطيها الحصباء ، وقسم جنوبي شرقي منخفض يشمل صحراء جوبي أو شامو التي ليست الا سهلا متسعا مسطحا أو متموجا تغطيه طبقة من الحصباء شديدة الصلابة التي جردتها الرياح من المواد الدقيقة من الطين والرمل ، ومن تحتها تظهر في بعض الجهات مساحات من الصخور كالجزائر في البحار (١) . وتنساب من بين جبال المنطقة الشمالية الغربية الفروع العليا لأنهار أوبي وينسى ولينا بينما المنطقة الجنوبية لا توجد بها أنهار ، فان وجدت كان ذلك على المخافات مثل أنهار أنون Onon ، وكروون Kerulon وخلاجل Khalagol وتسير من جنجان Khingan بعض نهيرات لا تلبث أن تجف حين تصل الى جوبي . وفوق ذلك يوجد بمنغوليا قليل من البحيرات الملحة والعذبة كما تتقجر بعض الينابيع ، ولكن المسافر رغم ذلك لا يعدم الماء لأنه اذا حفر وجده قريبا من سطح الأرض (٢) .

أما مناخ منغوليا فقاس وقسوته في سرعة تغيره وفي بلوغه النهايات القصوى في الحرارة والبرودة وفي جفافه الشديد وفي قوة الرياح التي لا حد لها . أما البرودة فهي الغالبة في معظم أيام السنة بسبب طول فصل الشتاء اذ يتجمد الماء في المنخفضات حتى شهر مايو ، والجليد يمكن أن يرى على أواني الشرب في شهر أغسطس ، كما أن الصيف لا يكاد يبدأ حتى ينتهي ، وتبلغ درجة الحرارة في الشتاء في بعض الجهات ٥٨ تحت الصفر . لكننا مع هذا يجب أن نلاحظ أن

Howorth, Vol. IV, p. 10.

Encyc. Britannica, Art. Mongolia.

Howorth, Vol. IV, pp. 11, 13.

Encyc. Brit. Art, Mongolia

(١)

و

(٢)

و

درجة الحرارة فى فصل الصيف القصير المدى تبلغ أحيانا ٦٠ درجة ° ومما يزيد من قسوة مناخ منغوليا أن الرياح التى تهب فى معظم أيام السنة شديدة ؛ حتى انها تحمل الحصى وترسله الى مسافات بعيدة وتكون بذلك مواجعتها مستحيلة (١) ° ويشهد بقسوة المناخ فى منغوليا من زاروها منذ أقدم العصور ، فهذا القس وليام Friar William يقول ان البرد قتل عددا كبيرا من الحيوانات، وذاك وليام الكريبنى Carpini يذكر عند زيارته لمنغوليا الشمالية ، ان المناخ بها ليس كثير الثبات على حالة واحدة فى أواسط الصيف وأن الرعد والبرق الذى يودى بحياة كثير من الناس لا يكاد ينقطع وأن الثلج يسقط بكميات كبيرة وأن أعاصير باردة الريح لدرجة يصعب معها بقاء الرجل فى سرجه تهب هبوبا شديدا (٢) °

وقسوة مناخ منغوليا هى السبب فى فقر الحياة النباتية بها ، أما فى المنطقة الشمالية الغربية المرتفعة فتنمو الغابات السيبيرية على سفوح الجبال وتقل كلما سرنا من الشمال الى الجنوب ، وحيث لا تنمو الغابات ينمو العشب وتصبح المنطقة لها صفات المراعى الألبية ° وفى أواسط جوبى لا تنمو الا حشائش جافة قليلة وبعض النباتات الملحية ° وأكثر هذه النباتات ذيوعا السكسول saxaul والدريس Derisun والأول عبارة عن أشجار صغيرة لا ورق لها تستعمل لاعطاء قليل من الظل والوقود وكغذاء للجمال ، والثانى يقدم للماشية أو يتخذ الفقراء من حبوبه غذاء (٣) °

Howorth, Vol. IV, pp. 14, 15.

(١)

D'Ohseon, Tome I, p. 10.

و

Howorth, vol. IV, p. 16.

(٢)

Ibid., pp. 10, 16-17.

(٣)

Encyc. Brit., art. Mongolia.

و

ولا توجد فى بلاد المغول الا الحيوانات التى تسكن الصحارى عادة ، مثل الجمل المتوحش ذى السنامين والحصان المتوحش والحمار الوحشى والغزال وأنواع من الفيران ذات الفراء الثمين والذئب والنمور (١) .

٢ - معيشة المغول

كان المغول القدماء كغيرهم من البدو رعاة ، لكل قبيلة من قبائلهم العديدة منطقة معينة يتنقل أفرادها بين ربوعها بحيواناتهم باحثين عن منابت العشب تبعا لفصول السنة المختلفة ، فيذهبون فى الربيع نحو الجبال ويرجعون قرب الشتاء الى السهول . كانت كل قبيلة من قبائلهم لها رئيس يحمل لقب نوين Noyan أو تيتشى Taischi تطيعه وتاتمر بأمره ، بل ان كل قبيلة من قبائلهم كانت تنقسم الى جماعات لكل جماعة رئيسها وكل جماعة يحتويها مكان واحد . وكان أفراد القبيلة يدفعون الى النوين عددا معيناً من الحيوانات كل عام جزاء محافظته على أرواحهم وأملاكهم (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كان المغول القدماء كالعرب فى الجاهلية والهنود الحمر الآن يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات القبلية (٣) . ولذلك فقد كانت حياتهم بسيطة فطرية لا يتسرب اليها التعقيد ، ولو أننا حاولنا أن نلم بها لما كلفنا ذلك أكثر من البحث عن مآكل المغولى وملبسه ومسكنه وقوانين مجتمعه البسيطة ودينه البدائى ، وكلها مسائل تدور حول تكوين أسرته وتنظيم جماعته وحمايتها من غضب الطبيعة التى يرهبها ويخشها .

D'Ohsson, Hist, des Mongols, Tome I, pp. 13-14, 19.

(١)

Howorth, vol. IV, pp. 20-27.

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 30.

(٣)

(أ) المأكل

كان ماكل المغول بسيطا مع بداوتهم وفقير بلادهم ، فهم في الشتاء يأكلون اللحوم . ويجب ألا يتسرب الى الدهن أنهم كانوا يكتفون بأنواع خاصة منها ، اذ الحقيقة أنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات على اختلافها ، ويدخل في ذلك الكلاب والذئاب والثعالب والفيران والخيول ، كما قال كربينى ، وأنهم كانوا يأكلون لحوم الحيوانات الميتة كما قال القس وليام (١) والأنكى من ذلك أنهم كانوا يأكلون اللحوم البشرية ، وقد ذكر هيثون Haithon فى هذا الصدد أن مسلما اتهم بالخيانة ضد اباقاخان Abakakhan أخذ وقطع نصفين وصدرت الأوامر بأن يوضع جزء من لحمه ضمن كل وجبة من وجبات الخاقان ، كما ذكر أن اباقاخان أكل من لحمه وجعل جميع أمرائه يأكلون ، وأضاف الى ذلك أن هذا العمل يتفق مع عادة المغول . وعندما ذكر القس ريكولد Rier Ricold هذه القصة قال ان السيدات المغوليات طلبن أن يسلم لهن الخائن ولما سلم اليهن غلينه حيا وقطعن جسمه وقدمنه الى جميع أفراد الجيش ليأكلوه . أما فنسنت أف بوفيه Vincent of Beauvais ، فقد ذكر أن المغول كان من عاداتهم أكل لحوم أعدائهم وشرب دمائهم . ويقول كربينى ، ان المغول فى احدى غزواتهم فى الصين عندما نفذ طعامهم ضحوا بواحد من كل عشرة رجال فى الجيش ليكون طعاما للباقيين منهم (٢) . وفى الصيف لا يأكل المغول اللحوم الا قليلا ، فاذا هم أكلوها ، كان ذلك بعد أن يجففوها بطريقة عجيبة ، فكانوا اذا مات عندهم ثور أو حصان قطعوا اللحم الى شرائح رقيقة

Ibid., p. 55.

D'Ohsson, Tome I, p. 13.

Howorth, Vol. IV, p. 53.

(١)

و

(٢)

وعلقوها فى الشمس والهواء لتجف دون أن تعتريها عفونة (١) . هذا بينما كان جل اعتمادهم فى هذا الفصل على الألبان وما يستخرج منها . والألبان التى كانت تتوافر عندهم هى ألبان البقر والغنم وكانوا يستخرجون منها الزبد والجبن وألبان الأفراس ويستخرجون منها ما يعرف باسم كومس Kumis أو خمير اللبن ، ويذكر القس وليام طريقة صنعه فيقول ان المغول كانوا يضعون لبن الفرس فى قربة ثم يقلبونه بشدة بقطعة من الخشب ، وبعد أن يأخذوا منه الزبد بهذه الطريقة يتركونه حتى يصبح حامضاً ثم يشربونه فيكون لهم منه غذاء لا بأس به (٢) .

(ب) الملابس

كان المغول يتخذون ملابسهم الحقيبة من أصواف الغنم ووبر الجمال ، كما كانت ملابس الرجال تكاد تشابه ملابس النساء كما كانوا يصنعونها من جلود الحيوانات أحياناً . وإذا كان القس وليام وكريبنى قد ذكرا أنهما رأيا المغول يلبسون الحرير والفراء الثمين فقد كان ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى بعد أن صارت لهم امبراطورية واسعة الأرجاء وبعد أن صاروا يستوردون الحرير من الصين وفارس والفراء الثمين من روسيا وغيرها من جهات أوروبا التى كانت تدين لهم بالطاعة (٣) . ويجب ألا يصرفنا ذلك عن الحقيقة الواقعة التى هى بساطة ملابس المغول وحقارة صنفها وقذارتها ، ويرجع ذلك الى أن المغول كانوا يغيرون

Howorth, Vol. IV, p. 55

(١)

D'Ohsson, Tome I. p 13.

و

Howorth, Vol. IV, p. 59.

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 37.

(٣)

ملا بسهم في الصيف مرة كل شهر وفي الشتاء لا يغيرونها أبدا (١) . وقد ذكر القلقشندى (٢) هذا الأمر ، فقال : « ويقال انهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم ولا يميزون بين طاهر ونجس » .

(ج) المسكن

لم تكن بيوت المغول أحسن حالا من بيوت غيرهم من البدو ؛ إذ كانت تقام من الصوف وكانت طريقة انشائها مختلفة كل الاختلاف ، وبينما كانت بيوت غيرهم من البدو مدببة من أعلاها كانت أعالي بيوت المغول على شكل نصف كرة لا تجرها الريح ولا تنقلب بسهولة ولو كانت العواصف شديدة ، وكانت بسبب ذلك دافئة شتاء معتدلة صيفا ، كما كانت تشبه اناء منقلبا قائما على حوائط دائرية من الصوف المثبت على هيكل من الألواح الخشبية المتصلة ببعضها ببعض بقطع من جلود الحيوانات (٣) . وقد ذكر وليام الروبريكي أن المغول كانوا يعملون ما يشبه الصناديق من النسيج المتين المغطى بالصوف ليضعوا فيها ما يخافون عليه العطب وأنهم كانوا يدهنونها بشحم الحيوانات أو بلبن البقر ؛ حتى لا تتأثر بالماء إذا عبروا بها الأنهار أو نزل عليها المطر ، وأضاف الى ذلك أن بعض بيوت المغول كانت كبيرة تجرها عند نقلها عربات يعلق في الواحدة اثنان وعشرون ثورا وبعضها الآخر صغير يكفي لنقلها ثور واحد أو على قول كريينى تنقل على ظهور الجمال . وكانت أبواب بيوت المغول تتجه عادة الى الجنوب تجنبا لريح الشمال والغرب القاسية ، كما كانت النار تظل على الدوام مشتعلة في وسط البيت المغولي . أما

Ibid., p. 45.

(١)

(٢) صبح الاغنى ج ٤ ، ص ٣١٢ .

Howorth, Vol. IV, p. 55.

(٣)

ترتيب هذه البيوت من الداخل فكان بسيطاً ، فالحوائط تستعمل لتعليق الأسلحة والأواني الجلدية التي كانوا يضعون فيها الألبان ومستخرجاتها ، وكانوا يضعون فى الجزء الداخلى المواجه للباب فراش رب البيت ويخصصون الجانب الغربى من البيت للرجال والجانب الشرقى للنساء (١) .

(د) القوانين

كانت حياة المغول بسيطة فطرية وكان لها من القوانين ما يناسبها فى البساطة . ولو أننا تناولنا القوانين التى كانت تنظم حياتهم الزوجية بالبحث ، لظهر لنا بكل وضوح أنها كانت بدائية ، لا أثر فيها لأعمال الفكر الناضج ، فلا هى بالتى كانت تقدر الزواج حق قدره ولا هى بالتى كانت تقدم للزوجة من الحقوق ما يكفل لها السعادة ، اذ كانت تعتبر الزواج عملية تجارية . وقد قال فى ذلك وليام الروبريكى : « يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل بينهم (أى المغول) له امرأة الا اذا كان قد اشتراها ، ويحدث دائماً أن تجتاز بناتهم سن الزواج دون أن يتزوجن لأن آباءهن يحتفظون بهن حتى يستطيعوا بيعهن » . كما كانت تسلب الزوجة حقوقها التى تقررها لها الشرائع الأخرى والا فما معنى ما يقوله فنسنت أف بوفيه « لا يعتبر المغولى المرأة زوجته الحقيقية حتى يصبح لها طفل أو حتى تصبح فى حكم من لها طفل ، واذا كانت عاقراً أمكنه طردها ، ولا يقدم الزوج مهر الزوجة حتى يصبح لها طفل » . الحق أن فيما ذكره كربينى حيث قال : « ان الرجل المغولى يمكنه أن يحوز زوجات على قدر ما يستطيع ولل بعض منهم ما يبلغ المائة ، ويسمح لهم

بالزواج من أية امرأة من الأقارب اللهم الا أمهاتهم أو بناتهم أو أخواتهم من نفس الأم . أما زواجهم من أخواتهم اللاتي لسن من أمهاتهم فقانوني » ، وفيما ذكره وليام الروبريكي حيث قال : « ان الابن في بعض الأحيان يأخذ زوجات أبيه ما عدا أمه ؛ وذلك لأن منزل الأب والأم يتول الى أصغر الأبناء ومن واجبه أن يشرف على أرامل أبيه وإذا أراد أن يعاملهن معاملة زوجاته . وسما يجر عليه اللوم أن يدعهن يذهبن الى منازل آبائهن بعد موت زوجهن . ولم يكن هناك فارق بين الأبناء الشرعيين والأبناء الذين يستولدون من السراري في الميراث والحقوق الأخرى » (١) - في ذلك كله ما يظهر أن قوانين المغول لم تحترم شرعية الزواج ولم تنظم أحكامه تنظيما صحيحا ، بل على العكس كانت تعتبر الزوجة من سقط المتاع تورث كما يورث وتشجع على العشق والزنا باعترافها بحقوق الأبناء من السراي . على أنه يجب أن نلاحظ أن المغول كانوا في ذلك كغيرهم من البدو وقد ذكر القلقشندى (٢) ان العربي في الجاهلية كان يتزوج امرأة أبيه . وفي هذا ما يثبت وجود تشابه بين المغولي القديم والعربي في الجاهلية في هذه الناحية الاجتماعية ، ويسمى القلقشندى هذا الزواج نكاح المقت .

ولم تكن القوانين التي وضعها المغول لردع المعتدين وحفظ الأمن في مجتمعهم بأعلى درجة أو أكثر قبولا من تلك التي كانت تنظم حياتهم الزوجية ، بل انها كانت أشد اظهارا لقسوتهم وأقوى تجسيما لحياتهم الفطرية . فقد كانت تقضى بالاعدام على من يرتكب الزنا أو قطع الطريق أو السرقة أو

Howorth, Vol. IV, pp. 194-195.

(١)

D'Ohson, Tome I, p. 14.

و

(٢) صبح الاعشى ج ١ ، ص ٤٠٣ .

التجسس أو السحر، كما كانت تقضى بضرب من يرتكب سرقة صغيرة ضرباً مبرحاً وذلك طبقاً لما ذكره كربيني ووليام الروبريكي * أما ماركو بولو فقد زاد الأمر وضوحاً فيما يختص بمسألة السرقة وقال ان المغول من أجل السرقة الصغيرة كانوا يضربون ضربة واحدة أو سبع ضربات أو ١٧ أو ٢٧ أو ٣٧ أو ٤٧ ضربة من ضربات العصا وقد تصل الضربات أحياناً إلى ١٠٧ تبعاً لنوع الجريمة بشرط أن يكون العدد فردياً ، وأن هذا الضرب كان يودى بحياة المضروب فى بعض الأحيان ، أما إذا كانت الجريمة سرقة حصان أو شيء كبير فكانوا يقطعون المجرم نصفين بالسيف اللهم إلا إذا كان قادراً على افتداء نفسه بدفع تسعة أمثال قيمة الشيء المروق (١) *

(هـ) الدين

كان المغول كغيرهم من الأقوام الأقدمين وثنيين وكانت ديانتهم الوثنية تعرف بالشامانية Shamanism وقد ظلت فيهم حتى حلت محلها الديانة اللامية أو البوذية بشكلها الذى اكتسبته من التبت وذلك فى القرن السادس عشر الميلادى * وقد كان المغول - طبقاً لعقائد الشامانية - يعبدون كل شيء يسمو على مداركهم ويدق على أفهامهم وكل ما يرهبهم ويدخل الخوف إلى أفئدتهم * لهم آلهة فى النهر والجبل والشجرة الكبيرة ، ولهم آلهة فى الشمس والقمر ، ولهم آلهة فى البرق الخاطف والرعد القاصف ، بل ولهم آلهة إلى أيامهم وشمائهم وأمامهم وخلفهم وفوقهم وتحت أرجلهم ، إذا تقربوا إلى الجهة الجنوبية دل ذلك على احترامهم للنار ، وإذا تقربوا إلى الشرق كان فى ذلك احترامهم للهواء ،

أما تقربهم الى الغرب فكان فيه احترامهم للماء ، وفى تقربهم الى الشمال كان احترامهم للأموات . وما يجب ملاحظته هنا أن المغول كانوا لا يتقربون الى هذه الآلهة الا لخوفهم منها ولرغبتهم فى ابعاد غضبها وجلب رضاها يرجون منها الصحة فى أجسامهم وعقولهم ، كما يرجون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم .

وبينما نجد العرب فى الجاهلية يتخذون معابد لهم يتقربون فيها الى آلهتهم ويجمعون فيها تماثيل لهذه الآلهة وبينما نجد قدماء المصريين يعملون مثل ذلك فينشئون المعابد الفخمة والهيكل العظيمة ، لا نجد المغول يفعلون ذلك أو شبهه فلم تكن عندهم معابد ولم تكن عندهم أديرة . وكل ما كان يعثر عليه عندهم ما كانوا يسمونه أوبو Obo وهى أكوام من الحجارة والخرق البالية وشعر الحيوانات وجلودها تقام بجوار الأنهار أو على التلال أو تحت الأشجار الكبيرة وتقدم عليها القرابين المختلفة للاله المفروض أنه يسكن فى الجبل أو النهر أو الشجرة الكبيرة أو المفروض أنه القسم الحى المقابل لها أو أنه روحها . كما أن المغول كانوا يصنعون من الصوف أشكالاً آدمية يضعونها فى بيوتهم أو أمامها ويعتقدون أنهم بذلك يبعدون الشر عنها ويزيدون الحيوانات فيها ويدرون ألبانها ، ومما يذكرونه فى هذا السبيل أن كل مغولى كانت عنده فى بيته دميات من القماش تمثله وزوجته وأولاده فإذا أكل هو وأهل بيته أتى بتلك الدميات ولوث فمها بالدهن الذى يستخرجه من اللحم ، ثم أخذ شيئاً من الحساء ورشه أمام البيت وبذلك يعتقد أن الاله وزوجته وأولاده شاركوه فى غذائه .

أما رجال الدين عند المغول فكانوا كالكهنة عند المصريين القدماء من طبقة متنورة تعلم الفلك وتحدد وقوع الكسوف والخسوف في أوقاتها وتعين الأيام الصالحة للعمل وغير الصالحة له ، وان كان نفوذ أفرادها لا يصل الى نفوذ الكهنة عند قدماء المصريين . وكان المغول ينظرون اليهم كما كان الاغريق ينظرون الى عرافة معبد دلفي وكما كان العرب ينظرون الى كهانهم الذين كان أشهرهم في اليمن (١) ، فكانوا يأخذون رأيهم قبل أن يقدموا على الأعمال المهمة وكانوا لا يجمعون جيشا ولا يدخلون حربا الا بعد موافقتهم . وقد كان هؤلاء يعتمدون فيما يدلون به من آراء على شكل الخطوط والشقوق التي تظهر على عظام أكتاف الحيوانات المحروقة ويعتبرون أصلح الحيوانات لهذا الغرض الغنم والآرام والوعول وبخاصة اذا كانت قرابين (٢) .

٣ - صفات المغول

نشأ المغول في بلاد فقيرة قاسية المناخ فأمدهم الله بصفات بدنية تناسب البيئة التي نشأوا فيها كل المناسبة . واننا حين نقرأ ما ذكره الرحالة عن مميزات المغول البدنية من الرأس الكبير والوجه العريض النحيل وعظام الخد البارزة والعيون الصغيرة ذات الجفون المسترخية والأنف المسطح والشفاه العريضة والأسنان القوية والرقبة القصيرة والصدر الكبير والساقين القصيرتين المموجتين والقامة القصيرة والبشرة الصفراء السمكية (٣) - لا نعجب أقل العجب ، اذ لابد أن

(١) صبح الأعشى ج ١ ، ص ٣٩٨ .

(٢)

Howorth, vol. IV, pp. 90-104.

D'Ohsson, Tome 1, p. 16.

و

Howorth, vol. IV, pp. 31-32.

(٣)

D'Ohsson, Tome, I, p. 11.

و

فقر البلاد وقلة الغذاء فيها كان سببا فى قصر القامة ونحالة الوجه وبروز عظم الخد من زمن بعيد ، كما أن الجفون المتدليلة لا بد أنها من نعم الله على المغول لوقايتهم من الرياح الشديدة التى يتعرضون لها فى بلادهم فى معظم أيام السنة ، وكذلك الحال فى البشرة السمكية . أما اعوجاج السيقان فسببه قضاء المغول معظم الوقت على صهوة الخيل بركاب قصير الحوامل .

ولم تكن صفات المغول البدنية هى وحدها التى تناسب بيئتهم التى درجوا عليها ، بل ان صفاتهم الأخلاقية من مستلزمات هذه البيئة ، فانهم وقد كانوا رعاة كان لا بد لهم أن يصطدموا بغيرهم حين يعملون على توفير المراعى لحيواناتهم فى فصول السنة المختلفة ، ولذلك كانت تقوم بينهم المعارك وتشتد الأهوال وكانت حياتهم حياة حربية قوية وكانت أخلاقهم مزيجاً من صفات المحاربين . أضف الى ذلك أن الطبيعة كانت فى بلادهم قاسية شديدة الوطأة ولذلك كانت حياتهم حرباً مستمرة مع الطبيعة ، وقد أمدتهم بيئتهم بما عودتهم من الصبر والجلد بأعظم سلاح يشهرونه فى وجهها . وبذلك قوت فيهم صفات المحاربين .

من الصفات التى تلازم المحاربين دائماً الجرأة فى الحق . وابداء الرأى دون مواربة ولا مداراة ، وقد كان المغولى كفيه من أهل البادية صريحا لا يهاب جريئاً لا يخشى حراً فى ابداء آرائه لا يتردد ولا يلين ، وقد عمل مجتمعه على تنمية هذه النزعة فيه بما يفرضه من العادات ، فقد ذكروا أن المغول

القدماء كانوا طبقا للسياسة الكبرى (١) Yassak أو الشريعة التي سنّها لهم جنكيزخان يجتمعون كل سنة في العيد الكبير The Hai أمامهم أمراؤهم ليسألوهم عما فعلوا ، وقد يظهر كانوا يوبخونهم بل ويعزلونهم اذا اقتضى الحال . ويظهر أن نزعة الصراحة هذه ظلت ملازمة للمغول وقتا ما بعد أن كونوا امبراطوريتهم الواسعة فقد ذكروا أن وزيرا من وزراء جنكيزخان تجاسر على أن يقول لسيده ان المملكة يمكن فتحها على ظهر الحصان ولكن لا يمكن حكمها على ظهر الحصان ، مشيرا بذلك الى أن الممالك تحتاج لاستقرار الأمر فيها الى اداريين بعد أن يكون الحربيون قد وسعوا أركانها (٢) .

وعلى الرغم من هذه الصراحة وهاتيك الحرية ، فقد كان المغول القدماء متعاونين وكان للطاعة التي تعتبر من أهم صفات المحاربين أكبر نصيب بينهم وكانوا مطيعين لرؤسائهم لا يعصون لهم أمرا ، حتى ان أكبر القواد كان اذا غضب عليه الامبراطور يقبل التقرير من أصغر رسول يرسله أمام

(١) ذكرها التلقشندى في كتابه صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣١٠ - ٣١١ فقال « ثم الذي كان عليه جنكيز خان في التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجرى على منهاج ياسه التي قررّها وهي قوانين خمنها من عقله وقررّها من ذهنه رتب فيها أحكاما وحدد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة الحمديدية وأكثرها مخالف لذلك سماها الياسة الكبرى وقد اكتبها وأمر أن تجعل في خزائنه تتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته منها أن من زنى قتل ومن أغان أحد خصمين على الآخر قتل ومن بال في الماء قتل ومن أعطى بضاعة فخر ثم أعطى ثانيا فخر ثم أعطى ثالثا فخر قتل ومن وقع حمله أو قوسه فمر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل ومن أطعم أسير قوم أو سقاء أو كسأه بغير أنهم قتل الى غير ذلك من الأمور التي رقبها مما هم دائنون به الى الآن وربما دان به من تحلى بخلية الاسلام من ملوكهم » .

وقد ذكرها ابن العبري أيضا في كتابه ص ٣٩٥ فقال الياسة أي الناموس والقضاء .

جنوده ، وقد ذكر القلقشندى (١) هذا الأمر فقال : « وأما حالهم في طاعة ملكهم ، فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلطينهم لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم حتى انه اذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنباً يوجب عقوبته وبعث السلطان اليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ، ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلاً ليأخذه بموجب ذنبه ولو كان فيه القتل » .
كما أن الجندى اذا عصى كان لا يقتل وحده بل ومعه أفراد أسرته ، أضيف الى ذلك أن الأمراء والقواد كانوا يضربون بالهراوة عندما يقعون في الخطأ ولا يعتبرون في ذلك اهانة لهم ولا يظهرون اشمئزازاً (٢) .

وللفروسية عند المغول مركز ممتاز . وقد كانوا على اختلاف أعمارهم يقضون حياتهم على ظهر الحصان ولا يكادون ينقلون قدماً على الأرض ، ولذلك كان من لا يرافقه الحصان اما فقيراً أو عديم الأصدقاء ، ذلك لأن المغولى لا يتأخر عن تقديم حصان لآخر يطلبه ، كما نقدم عود ثقاب لمن يطلبه لاشعال سيجارة (٣) . ولم يكن الرجال هم الذين يختصون بهذا الأمر من دون النساء بل ان النساء كن يركبن الخيل كالرجال وكن يستعملن الأقواس والسهام ويقدرن على البقاء على ظهر الحصان زمناً طويلاً وينذهبن مع الرجال الى القتال (٤) .

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢١١ .

(٢)

Howorth, Vol. IV, p. 80

Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 433.

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 376.

و

Howorth, vol. IV, p. 62.

(٣)

Howorth, vol. IV, p. 44.

(٤)

D'Ohsson, Tome I, p. 15.

و

وحدث ولا حرج عن صبر المغول فقد كان الطفل منهم يصبر على الجوع يومين دون أن يظهر ضعفا بل يحاول ما أمكن أن يتظاهر بالمزح كأنه لا يعاني شيئا . والرجل منهم على الرغم من قوة شهيته الى حد يجعله يأكل خمسة كيلوجرامات من اللحم في الوليمة وربع شاه في اليوم، نجده في الحرب يصبر على الجوع عشرة أيام مكثفيا بما يمتصه من دماء الخيول - وكان يفتح شريانا من شرايينها ثم يشرب دمها المتدفق - كما أنه كان يكتفى بما يتناوله من الكومس أو اللبن الحامض الذي يحمله في قربته ، وكان نصف رطل من اللبن المجفف الممزوج بقليل من الماء يكفيه اليوم كله . وقد كانت خيول المغول تشاركهم في صبرهم وكانت لا تحتاج الى شعير أو فول بل تحفر في الأرض بأرجلها وتأكل ما يظهر لها من جذور النباتات - ولم يقتصر صبر المغول على تحملهم ألم الجوع ، بل انهم كانوا يتحملون البرد الشديد والحر الملافح بعزيمة قوية (١) .

وشجاعة المغولي مضرب الأمثال وقد شهد بشجاعتهم أعداؤهم أنفسهم، فقد ذكروا أن جواسيس محمد خوارزمشاه عند عودتهم من زيارة المغول قالوا عنهم : « انهم لا يعطون أنفسهم راحة وان الفرار أو التقهقر ليس معروفا لهم وانهم لا يبارون في الشجاعة والطاعة والصبر » (٢) وقد ذكر ابن الأثير عنهم مثل ذلك فقال (٣) : « سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال: من حدثكم أن التترانهزموا

(١) Howorth, vol. IV, pp. 56, 61, 81-82.

Browne, Let. Hist of Persie, II, p. 434.

Osborn, Islam under the Caliphs of Baghdad, p. 377.

Howorth, vol. IV, p. 81.

(٢)

(٣) ابن الأثير ج ١٢، ص ١٧٧ .

وأسروا فلا تصدقوه ، وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا ، فإن القوم لا يفرون أبدا ، ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر » .

٤ - جيوش المغول

رأينا فيما سبق أن المغول حازوا كل صفات المحاربين الأقوياء وقد كان من أثر ذلك أن فاقوا غيرهم في تنظيم الجيوش وترتيبها وامتدادها بكل ما يلزمها ، كما اتبعوا في حروبهم طرائق كانت تضمن لهم النصر . وان ما لدينا من المعلومات يبين لنا أنهم قسموا الجيوش تقسيما لا يختلف كثيرا عما يتبع في الجيوش الحديثة . فقد كانت عندهم فرق مكونة من مائة ألف جندى يسمونها التوك a Tuk وأخرى مكونة من عشرة آلاف يسمونها التومان a Toman وثالثة مكونة من ألف يسمونها منجان a Mingan ورابعة مكونة من مائة يسمونها دن Don وخامسة مكونة من عشرة يسمونها اربان Arban . كما أن جيوشهم كانت غنية بالأسلحة وان ما ذكره الكثيرون من أمثال كربينى والقس وليام وفنسنت أف بوفيه وماركو بولو وماتيو بارس Mathew Paris فى هذا الصدد من الأقوال الكثيرة التى يكمل بعضها بعضا لتجعلنا قادرين على أن نصف محاربيهم وصفا دقيقا . فالمحاربون العاديون كانوا يلبسون ملابس من الفراء على أجسادهم ، كما كانوا يضعون على رؤوسهم خوذة من الحديد ، ويحملون من الأسلحة الأقواس والسهام والمبارد لشحذ السهام والحرب التى تنتهى بغطاف التى تستعمل لجذب الأعداء من فوق سروجهم والبلط والحبال . بينما الرؤساء من الجند والضباط والقواد كانوا يلبسون اللامات الحربية

ويحملون من الأسلحة مثل ما يحمل السابقون . ولما كان المغول رماة نابهين ، فقد كانوا يعنون عناية فائقة بالأقواس التي كانت متينة الى أبعد حدود المتانة والتي كان الواحد منها يتطلب رجلين لثنيه . وكانت سهامهم تبلغ في طولها قدمين وراحة يد واصبعين ، كما كانت ذات أسنان مدببة جدا ، وبعضها كانت ذات رءوس فضية ملأى بالثقوب حتى اذا رميت أخرجت صوتا كالصفير . وكانت الالامة الحربية عندهم تصنع من الجلد ومنها ما يصنع من السلاسل ومنها ما يصنع من ألواح الحديد (١) .

أضف الى ذلك أن مهارة المغول كانت تظهر بكل وضوح في تسييرهم الجيوش للحرب . فقد كانوا يرسلون ألفين من الرجال في المقدمة للاستكشاف ، ويضعون مثلهم في المؤخرة وعلى كل جانب من جانبي الجيش ، كما كانوا يلحقون بالجيش الزاحف عربات المؤونة تجرها الثيران وكذلك الأبقار والأفراس ، وكان كل فرد من أفراد الجيش يأخذ معه مؤونة صغيرة من الجبن واللحم وغيرها . وعندما تكون الجيوش كبيرة العدد وبخاصة في الشتاء كانوا يأخذون معهم خيام المعسكر تحملها الجمال لتكون لهم مأوى . وكان طول هذه الخيام من أربعين الى خمسين قدما وكان هيكلها يصنع من عصي مدببة طول الواحدة منها سبع أقدام أو ثمان ، تتصل بعضها ببعض بواسطة قطع من الجلد وتتجمع في القمة مكونة سطحاً مخروطياً . كما كانوا يأخذون معهم خياماً أصغر ليجمعوا فيها من يقع في أيديهم من الأسرى . وكان الجيش المغولي اذا خرج للمقتال لا يعوقه شيء عن مقصده ، فاذا

وصل الى نهر كبير حزم أفرادهم حوايئهم وشدوها الى خيولهم وعلوا فوقها أو أتوا بقرب أو أكياس من الجلد وملأوها بالملايس وربطوها جيذا ثم وصلوها بذيل الحصان وجلسوا فوقها بينما يجز زجل منهم هذا الحصان ، وقد يستعملون مجذافين في دفعها بدل الحصان (١) .

وعندما كانت جيوش المغول تلاقى الأعداء على ما ذكره ماركو بولو كانت لا تدخل في حرب نظامية بل كان المحاربون يدورون راكبين ويرمون سهامهم على أعدائهم . ولما كانوا لا يعتبرون في الفرار من المعركة أية نقيصة ، فقد كانوا في بعض الأحيان يتظاهرون بالفرار ثم يدورون على سروجهم ويرمون أعداءهم بكل شدة وهكذا ينزلون بهم الخسائر الكبيرة . وكانت خيولهم متمرنة أحسن تمرين حتى انها كانت تجرى هنا وهناك كالكلاب . وعندما كان المغول يرون أنهم قتلوا كثيرا من الخيول والرجال كانوا يدورون على أعقابهم ويبدءون بمناجزة القوم ، وهم في أحسن نظام مخرجين من أفواههم أصواتا مزعجة تصم الأذان وتدخل الرعب في القلوب . وقد أيد ماركو بولو في هذا القول هيتون حيث ذكر أن المغول « قد يفرون ولكنهم دائما يحفظون جماعاتهم بعضها مع بعض ، ومن أكبر الخطر متابعتهم لأنهم حين فرارهم يرمون الى الخلف من فوق رؤوسهم ويؤثرون تأثيرا كبيرا على متتبعيهم وتكون صفوفهم دائما متقاربة حتى انك قد تظنهم أقل من نصف حقيقة عددهم (٢) » وفي هذا ما يثبت أن المغول اتبعوا طرائق حربية ، تدل على نضجهم العربي ورسوخ قدمهم في فنون الحرب .

Howorth, Vol. IV, pp. 67, 81-2, 82.

Howorth, Vol. IV, pp. 82-85.

Osborn, p. 378.

(١)

(٢)

و

٥ - المغول فى نظر المؤرخين

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغول كانوا قساة القلوب وحشيى الطباع وأنهم كانوا كالهيار المدمر لم يسلم انسان ولا حيوان ولا زرع من ضرهم وأذاهم . لا يختلف فى ذلك مؤرخو الشرق عن مؤرخى الغرب ولا مؤرخو العصور الوسطى عن اخوانهم فى العصور الحديثة .

أما ما ذكره مؤرخو الشرق فى العصور الوسطى عن المغول فيمكن أن نتخذ له مثالا ما ذكره ابن الأثير فقد قال يصف مجيء التتر الى بلاد الاسلام (١) : « الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقرت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتل بمثلها ، لكان صادقا ؛ فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بنختنصر ببني اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس ، وما انبىء المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ، وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من اسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه

(١) ابن الأثير ج ١٢ ، ص ١٦٥ .

الحادثة التي استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح » ، ثم ذكر فتوحاتهم في ما وراء النهر وخراسان وروسيا وقال : « هذا ما لم يطرق الأسماع مثله ، فان الاسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في هذه السرعة انما ملكها في نحو عشر سنين ، ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة ، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة في سنة » .

وقد ذكر ياقوت يصف الأقاليم التي اكتسحتها جيوش المغول في إحدى رسائله فقال (١) : « وأمسيت تلك الأوطان مأوى للأصداة والغربان يتجاوب في نواحيها البوم ويتناوح في أراجيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ويرثى لمصابها ابليس » .

كأن لم يكن فيها أوانس كالدمى
وأقيال ملك في بسالتهم أسد
فمن حاتم في جوده وابن مامة
ومن أحنف ان عد حلم ومن سعد
تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا
لنا عبرة تدمى الحشا ولن بمد

وذكر مؤرخ ثالث وان لم يكن من العرب فمن الفرس وهو الجويني ، أن البلاد الاسلامية التي اكتسحتها المغول لم يبق بها واحد من ألف من سكانها الأصليين ، كما قال انه لو زاد السكان باضطراد دون أن يحول دون ذلك حائل من

(١) ابن خلكان ج ٢ ، ص ٢١٣ .

الجوائل وذلك فى خراسان والعراق العجمى حتى يوم القيامة
لما بلغ سكانها عشر ما كانوا عليه قبل الغزو المغولى (١) .

ولم تختلف نظرة مؤرخى أوروبا فى العصور الوسطى
عن نظرة مؤرخى الشرق السابقين فهذا روجر بيكون Roger
Bacon اعتبرهم جنود المسيح الدجال Antichrist ، وذلك
القس جون الكريبنى Frair John of Piano Carpine
يعتبرهم بفايا القبائل العشر التى حاول الاسكندر الأكبر
عزلها فى الجبال التى بقرب بحر قزوين (٢) ، أى ان كلا
منهما نظر اليهم نظرتة الى عوامل الفساد فى الأرض .

أما المؤرخون المحدثون فلا يختلفون عن السابقين فى
هذه الناحية ، وقد جاء فى مجموعة كمبريدج التاريخية (٣) ان
المغول لم يكونوا ممن يهتمهم انماء بذور الحضارة بالتعاون
مع الآخرين وأن جل همهم كان التوسع والغزو، كما أن العالم
عرفهم محاربين أشداء خربوا البلاد وقتلوا العباد، وأنهم وان
كانت لهم آثار أخرى غير آثارهم الحربية فهى قليلة لا يعتد
بها ، وهم وان أمنوا الطرق وفتحوها ما بين غربى آسيا
وشرقيها لم يفيدوا التجارة بشيء لأن البلاد التى اكتسحوها
وخربوها لم يبق بها شيء يتبادلها الناس، كما أنهم وان أعطوا
الحرية الدينية لرعاياهم ولم يميزوا بين علماء المسلمين
وبطارقة المسيحيين ورؤساء البوذيين لم يكن ذلك لاعتناقهم
مبدأ حرية التدين ، بل لأنهم لم يعتقدوا بأى دين من الأديان
ولم يجسدوا حرجا فى أن يعتنق أى امرئ الدين الذى
يميل اليه .

D'ohsson, Tome I, pp. 350-351

Cambridge Medieval History, Vol. IV, Ch, xx, pp. 628, 630.

Ibid, p. 634.

(١)

(٢)

(٣)

أضف الى ذلك أن دوسون المعجب بهم لم يجد بدا من الاقرار بالحقيقة فذكر أنهم ، أى المغول : «فاقوا فى قسوتهم أشد الناس فكانوا يقتلون فى الأقاليم التى يفتحونها الرجال والنساء والأطفال ويحرقون المدن والقرى ويحولون الأرض العامرة الى صحار ، ومع ذلك فلم يكن يحركهم كره أو رغبة فى الانتقام لأنهم لم يعرفوا أسماء الناس الذين قضوا عليهم ، وقد كان ممكنا أن نفرض أن التاريخ جسم مظالمهم لو لم يكن المؤرخون فى جميع الأقطار قد اتفقوا على هذه المسألة ، وقد كان الناس بعد الفتح يرون المغول يعاملون البقايا الضعيفة فى الأمم المفتوحة كعبيد لهم وأنهم أثقلوا على الذين نجوا من سيفهم بظلمهم المخيف ، وأن حكومتهم كانت تحتقر كل شريف كريم بينما يلقي أحط الناس ممن دخلوا فى خدمه هؤلاء السادة الغلاظ الغنى والاكرام والقدرة على الاستبداد باخوانهم ثمنا لخيانتهم » (١) *

٦ - رأينا الخاص فى المغول

لقد ذكرنا فيما سبق ما يدل على أن المغول جمعوا كل صفات المحاربين الأقوياء وزودوا جيوشهم بالسلاح واتبعوا فى حروبهم طرائق لا جدال فى أنها من أحسن ما وجد فى أيامهم ، ولكننا فى نفس الوقت لا نعدم الدليل على أنهم كانوا محاربين من النوع القاسى الذى لا يلين له قلب ، كما أنهم كانوا مكره مخادعين لا ينفذون وعدا ولا يراعون ذمة ولا عهدا * ولذلك فقد كانت أعمالهم أقرب الى أعمال المخرابين منها الى أعمال المحاربين النظاميين *

وتظهر قسوة المغول فيما كانوا يعاملون به أعداءهم .
فقد كانوا حين ينتصرون لا يتركون فى قيد الحياة عظيما
ولا حقيرا ولا كبيرا ولا صغيرا ولا امرأة ولا طفلا رضيعا ،
كما أنهم كانوا اذا أرادوا أن يحتفظوا بالأسرى ربطوهم من
أرجلهم تحت بطون الخيل (١) . ولم تكن تلك القسوة
عرضية بل كانت متأصلة فى نفوس المغول، تظهر فى طريققتهم
فى ذبح الحيوانات ؛ اذ كانوا يفتحون بطنها ويقبضون على
قلبها ويجرونه ليقتلوها (٢) وقد ذكر ذلك القلقشندى (٣)
فقال : «ومن معتقدهم فى ذبح الحيوان أن تلف قوائمه ويشق
جوفه ويدخل أحدهم يده الى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو
يخرج قلبه ، ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح » . كما تظهر
قسوتهم أيضا فى توضيحتهم بالرجال فى جنائز العظماء
وفى قتلهم عددا من جمال المتوفى وخيوله ودفنها (٤) ، وفى
معاملتهم للمرضى منهم فقد كانوا يتخلون عنهم بل ويعملون
على اماتتهم ، ويقول وليام الروبريكى فى ذلك أنه « عندما
يمرض أحد من المغول يوضع فى مرقده وتوضع علامة على
مسكنه تشير الى وجود مريض فى الداخل والى عدم دخول أحد
عليه . ولا يزور المريض أحد أبدا الا من يتولى خدمته » ، كما
يذكر كربينى أنه « عندما يمرض شخص توضع حربة خارج
خيمته كما يلفون حولها قطعة من الصوف الأسود وبذلك
لا يجرؤ غريب على دخولها . وعندما يشهد بالمريض مرضه
يتركه الجميع ؛ لأنه ليس مصرحا لمن يشاهد موته أن يدخل
مسكن أى عظيم أو قصر الامبراطور حتى يبرز القمر

Howorth, Vol. IV. pp. 81, 85.

(١)

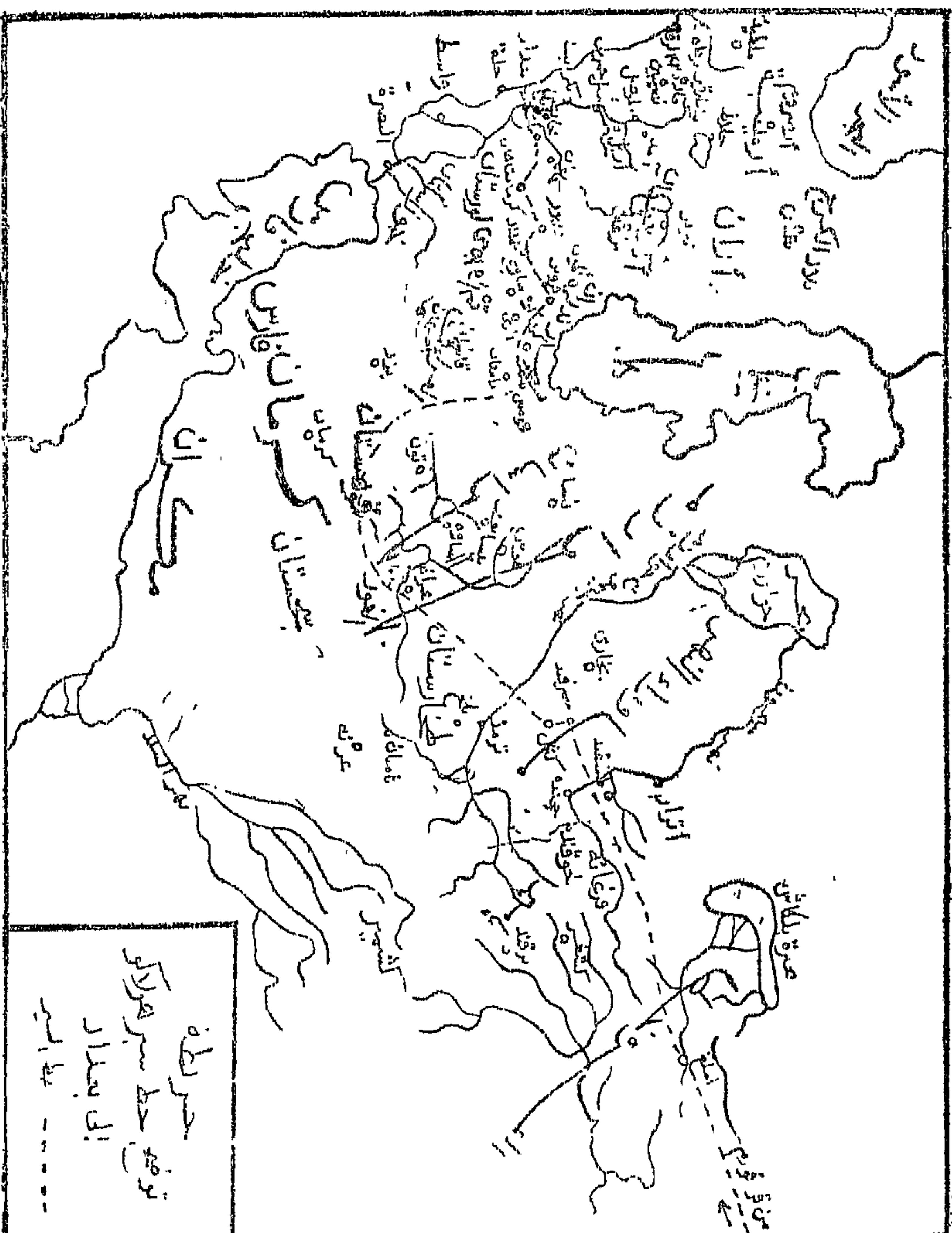
Browne, Literary History of persia, Vol. II, p. 440.

(٢)

(٣) صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣١١ .

Howorth, Vol. IV, p. 142.

(٤)



الجدید» فكأنهم ينظرون الى المريض نظرتهم الى ملوث نجس -
وليت الأمر وقف عند هذا الحد من القسوة بل ان فنسنت
أف بوفيه حين يقول ان بين التتار من اذا هرم أبوه أعطاه
مادة دهنية - مثل ذيل شاة - ليأكلها فتضغط عليه وتخنقه ،
وانهم كانوا عندما يموتون يحرقون أجسادهم ويجمعون
بقاياها ليرشوا من مسحوقها على طعامهم عندما يتناولون
الطعام كل يوم (١) - نعم ؛ انه بذلك يقدم لنا أكبر دليل
على قسوتهم وتحجر قلوبهم .

أما غدر المغول ومكرهم وعدم مراعاتهم للعهود فيتجلى
فى سلوكهم فى حروبهم فى فارس والصين ، فكثيرا ما وعدوا
أهل المدن بالنجاة ان هم سلموا مدنهم ولم يلبثوا أن أنزلوا
عليهم من العذاب ألوانا وقتلوهم حين أصبحوا فى أيديهم (٢) -
هذا بالنسبة لأعدائهم وقد يجد فيه بعض الناس عذرا لهم ،
انما غدرهم الذى لا يمكن الدفاع عنه فيظهر فى معاملتهم
لحلفائهم ، وقد جاء فى كتاب هورث (٣) : « ان دأبهم حين
ينتصرون على أعدائهم أن يستولوا على الغنيمة دون تردد
أما اذا هزموا فانهم يتبعون حلفاءهم وينزلونهم عن خيولهم
ويحملون ما معهم من الأسلاب » .

Ibid., p. 203.

Osborn, p. 376. ,

Howorth, History of the Mongols, Vol. IV, p. 33.

(١)

(٢)

(٣)

الفصل الثانى

توحيد المغول

١ - أصل المغول

تاريخ المغول القدماء تاريخ غامض يتخلله كثير من الأساطير وذلك لأنه كتاريخ العرب فى الجاهلية يعتمد على الرواية والتلقين بدل اعتماده على الكتابة والتدوين (١) ولا يخفى ما يعتور الرواية من زيادة أو نقص وما يتخللها من عثرات الذاكرة وشوائب النسيان وان ما تناقله المغول عن أصلهم ليحقق هذا القول * فقد كانوا يعتقدون أن أجدادهم وقد كانوا يعيشون فى منغوليا من عصور سحيقة تعرضوا لأذى جماعات من سكان تلك البلاد قتلتهم عن آخرهم، ولم تترك فى قيد الحياة منهم الا رجلين وامرأتين تمكنوا من الفرار الى منطقة خصبة اسمها ارجينى كون Erguene-Coun تقع بين جبلين ثم توالدوا فيها حتى نشأت من نسلهم قبائل عديدة * وقد ضاقت تلك البقعة بتلك القبائل حين كثر عددها ؛ ولذلك فانها اخترقت أحد هذين الجبلين ووصلت الى ضفاف أنهار أونون وكيرولان وتوجولا وتولا وأقامت عليها وكان ذلك حول منتصف القرن الثامن الميلادى * وقد بلغ

من شدة تمسك المغول بهذا الاعتقاد ، أن أبناء جنكيز خان كانوا يحتفلون بهذا الحادث ليلة أول يوم من كل عام (١) .

٢ - الأمم المغولية القديمة

ساعد المؤرخين على تبديد الغموض الذى يحيط بتاريخ المغول الأقدمين ما عثروا عليه فى مؤلفات التاريخ الصينى ، ولا يخفى ما كان هناك من اتصال بين الصينيين وبين البدو من سكان وسط آسيا منذ الأزمنة القديمة . فقد كانت الصين غنية بينما كانت جهات أواسط آسيا فقيرة . ولذلك كثيرا ما هاجم هؤلاء البدو شمالى الصين ورجعوا بالأسلاب والغنائم ، بل ان هذه الهجمات نفسها كانت سببا فى اقامة سور الصين العظيم قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف قرن . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان حكومة الصين كانت تستخدم جيوشا من هؤلاء البدو وتوزعهم على حدود بلادها الشمالية لكى يحموها من اخوانهم فى الجنس ، كما وجدت أخيرا أن أضمن طريق لحفظ البلاد من شر هؤلاء البدو هو تقسيم منطقة الحدود بين رؤسائهم ، واعتبارهم أقبالا يقدمون لها الخضوع ويتسلمون منها علامات السلطان (٢) .

وان ما عثر عليه المؤرخون فى تاريخ الصين خاصا بالمغول الأقدمين وان كان لا يعدو شذرات بسيطة ، الا أنه أزاح اللثام عن حقائق لا يجوز اهمالها ، وبين أن المغول فى عصورهم القديمة كانوا أمما متفرقة تقيم فى منغوليا شمالى صحراء شامو والى الشمال الغربى والشرقى منها . ومن هذه الأمم أمة النيمان Naimans الكبيرة العدد التى كانت

Ibid, pp. 21-22.

(١)

D'Ohsson, Tome I, pp. 4-5.

(٢)

تسكن الأقاليم التي يجري فيها نهر ارتش الأعلى والتي تخترقها سلسلة التاي الكبرى وأمة الكريت *Kerails* التي كانت تسكن الأراضي الواقعة شرقي منطقة النيمان ، التي تمتد حتى منابع نهر أونون وكيرولان ، وأمة المركيت *Merkits* التي كانت تسكن الاقليم الواقع شمال أرض الكريت ، وأمة ألوويرات *Ouirates* التي كانت تقيم في اقليم يقع شمالي اقليم أمة المركيت ترويه ثمانية نهيرات تكون نهر يني العالي ، وأمة الجليز *Djelaires* التي كانت تشمل عشر قبائل والتي كانت منطقتها على شواطئ نهر أونون ، وقبائل الأوراسوت *Orassoutes* والتنجوت *Telengoutes* والكشتيمس *Keschtimis* التي كانت تقيم في غابات واسعة غربي بحيرة بيكال ، وقبائل البارجوت *Bargoutes* التي كانت تقيم شرقي بحيرة بيكال . أما أمة المغول ، فكان من قبائلها : البايت *Bayaoutes* والتيدجوت *Taidjoutes* والكنجراتس *Coungrates* وكانت تقيم في الاقليم الواقع جنوب بحيرة بيكال ، وأمة التتار وكانت تسكن شواطئ بحيرة بريور في أقصى الشرق من منغوليا (١) .

٣ - حالة الأمم المغولية القديمة حتى أوائل القرن الثاني عشر الميلادي

ظلت الأمم المغولية التي سبق ذكرها عدة قرون قبل الميلاد وأخرى بعده خاضعة للنفوذ الأجنبي لا تكاد تتخلص من سيطرة امبراطورية من الامبراطوريات حتى تقع تحت سيطرة غيرها . وأول ما نعرف من الامبراطوريات التي نشرت نفوذها على منغوليا امبراطورية الهينو *Hiong-Nous* التي

D. Ohsson, Tome I, pp. 6-9.

(١)

Cambridge Medieval Hist., Vol. IV, pp. 631-662.

- ظلت قائمة حتى سنة ٩٣ ق.م. وقد قامت بعدها امبراطورية
 السيليبيس Sien-Pis في وسط آسيا وكان لها في منغوليا
 من النفوذ مثل الأولى وظلت حتى سنة ٢٣٣ م. وقد وقعت
 منغوليا بعد ذلك في قبضة امبراطورية التوباس Les Topas
 ثم في أوائل القرن الخامس في قبضة الجيوجان Geougens
 وبعد ذلك بحوالى مائة وخمسين سنة أصبح الأمر فيها للأتراك
 الذين أقاموا امبراطورية ، امتدت من المحيط الهادىء شرقا
 الى بحر قزوين غربا ومن الصين جنوبا الى المحيط المتجمد
 شمالا . وقد أزال الصينيون بمحالفه الويفور هذه
 الامبراطورية التركية سنة ٧٤٤ م ومن ذلك الوقت خضعت
 منغوليا للويفور أو الهوى هوى Hoeihoei كما يسميهم
 الصينيون . وقد انتقل الأمر بعد ذلك للقرغيز سنة
 ٨٤٨ م . وفي أوائل القرن العاشر الميلادى صار الخطا سادة
 منغوليا ، الا أن الزمن لم يلبث أن دار دورته وأصبح النفوذ
 فى منغوليا لأباطرة أسرة كين Kin . وقد ظلت سيادة
 هؤلاء الصينيين فى منغوليا حتى أوائل القرن الثانى عشر
 الميلادى حين ثارت الأمم المغولية عليهم واستقلت عنهم عند
 موت الامبراطور تاي تنج Tai Taung سنة ١١٣٧ م (١) .

٤ - توحيد الأمم المغولية القديمة

على يد تيموجين

بعد أن تخلصت الأمم المغولية من النير الأجنبى ، أصبح
 من الضرورى لها أن توحد صفوفها . وقد أخذ رؤساء أمة
 المغول على عاتقهم اتمام هذه الغاية ولاقوا فى سبيلها كثيرا
 من المصاعب وعلى الأخص من أمة التتار التى كانت فى ذلك

Howorth, Vol. IV. pp. 7-8.

D. Ohsson, Tome I, pp. 2-3.

(١)

الوقت أكبر الأمم المغولية حتى كان الصينيون يطلقون اسمها على جميع الأمم المغولية ، التي عز عليها أن تتقدمها أمة المغول . وان التاريخ ليذكر لنا كثيرا من الحروب التي خاضها رؤساء أمة المغول مثل كابل وكوبلاي Kubilay ويسوجاي Yesugai ضد أمة التتار (١) .

وقد كان لتيموجين بن يسوجاي الفضل الأكبر في جعل وحدة الأمم المغولية أمرا واقعا . وقد بذل في هذا السبيل مجهودا جبارا لأنه حين عزم على تنفيذ فكرة الوحدة المغولية كان يتحدى جميع الأمم الأخرى الموجودة في منغوليا بل والقبائل العديدة التي كانت تضمها أمة المغول نفسها . ولو أننا أردنا أن نحصر الحروب التي قام بها تيموجين في سبيل ضم سكان منغوليا جميعهم تحت سلطانه ؛ لألفيناها على نوعين : الأول عبارة عن حروب كانت تقع بينه وبين مجموعات من الأمم المغولية التي كانت تتعاون فيما بينها عندما تحس بأن خطرا عاما يهددها من قبله ، والنوع الثاني عبارة عن حروب فردية كانت تقوم بها أمم منغوليا المختلفة دفاعا عن نفسها حين كان تيموجين يهاجمها .

(أ) حروب تيموجين مع الأمم المغولية المتحالفة : من قبيل المقاومة الاجتماعية التي تعرض لها تيموجين ما حدث في السنوات الثلاث ١٢٠٠ و ١٢٠١ و ١٢٠٢ . ففي سنة ١٢٠٠ ميلادية تعاقدت قبائل كثيرة على مناهضة تيموجين على أثر انتصاره على قبيلة التادجوت المغولية وحلف رؤساء هذه القبائل أن يتعاونوا فيما بينهم ويتآزروا حتى يكون النصر حليفهم ، ولكن تيموجين علم بخبرهم من حميه ، أحد هؤلاء الرؤساء المتعاقدين وسارع اليهم وفاجأهم بالقرب من

D. Ohsson, Tom I, pp. 33-35.
Camb, Mod, Hist., Vol. IV, p. 632.

(١)

بحيرة بويور و فرق جموعهم وهزم كثيرا من رؤسائهم في سهل تيموركين Temourkin (١) . وفي سنة ١٢٠١ ميلادية ، اتفقت أيضا قبائل عديدة على مناوآته واجتمع رؤساؤها واختاروا رئيسا لهم لينظم جهودهم وليكون لعملهم أثر أعظم من المرة السابقة . وقد اضطر تيموجين الى ملاقاتهم وتفريق جموعهم . أما في سنة ١٢٠٢ ميلادية ، فقد جمع ملك المركيت واسمك توكتا Toucta وبويوروك Boyourouk اخو ملك النيمان قبائل كثيرة ضد تيموجين ولكن قسوة المناخ ساعدت على تبديد شملها وأنجت تيموجين من خطر جسيم كان يتهدهده ، خصوصا وأن العلاقات بينه وبين حليفه رانج خان ملك الكريت كانت قد ساءت في ذلك الوقت حتى انهما عندما خرجا للملاقاة هذه العصبية من الأعداء تنازعا ، وقامت الحرب بينهما (٢) .

(ب) حروب تيموجين الفردية : أما المقاومة الفردية التي لاقاها تيموجين في سبيل توحيد الأمم المغولية فقد كانت ضد أمم المركيت والنيمان والتتار والكريت التي قامت ضده مدافعة عن أملاكها واستقلال بلادها .

١ - حزب المركيت : كانت أمة المركيت حين هاجمها تيموجين يرأسها ملك اسمه تكتا ، كما كانت تشمل أربع قبائل . وقد بدأ تيموجين حروبه فيها سنة ١١٩٧ م ولكنها لم تخضع له الا في سنة ١٢٠٤ م ، أي أنها ظلت تقاوم سبع سنوات طوال ، لاقت فيها كثيرا من أعمال العنف والشدة . وفي أول حروب تيموجين في بلاد المركيت كان يساعده

D. Ohsson, Tome I, pp. 60-62.

(١)

D'Ohsson, Tome I, pp. 63, 65-66

(٢)

وانج خان (١) ملك الكريت الذى أصبح له حليفا منذ عام واحد وقد حصل على غنائم كثيرة . وفى السنة التى بعدها (١١٩٨م) لم يخرج تيموجين الى بلاد المراكيت بل خرج حليفه وانج خان وحده وهاجمها واضطر ملكها الى الفرار كما قتل أحد ابنيه وأسر الابن الثانى . ولما أبى تكتا أن يخضع لتيموجين بعد ذلك اضطر الى ترك بلاده سنة ١٢٠٤م وحينئذ تتبع تيموجين القبائل المراكيتية وأخضعها بالقوة واحدة بعد أخرى (٢) .

٢ - حرب النيمان : ولما هاجم تيموجين أمة النيمان كانت الظروف مواتية له ؛ لأن عرشها كان يتنازعه الاخوان تاي بوقا Tai Bouca وهو الأكبر وكان يقيم حيث كان يقيم أبوه فى السهول كما كان يحمل اللقب الصينى تاي وانج Tai Vang ومعناها الملك العظيم ، وذلك الأخ هو المعروف فى التاريخ باسم تيانج النطق المغولى للكلمة الصينية المذكورة . أما الأخ الثانى بويوروك وهو الأصغر فكان يقيم فى المنطقة الجبلية القريبة من سلسلة جبال التاي . وقد كان من السهل على تيموجين أن يخضع أمة النيمان لسلطانه فى وقت قصير الا أنه حين سار اليها سنة ١١٩٩م كان معه حليفه وانج خان ، وما كاد يتخذ لجيشه مكانا استعدادا للمعركة حتى انسحب هذا الحليف واضطر هو بدوره الى التقهقر وترك بلاد النيمان . ولم يستعد تيموجين استعدادا تاما لاختضاع النيمان الا فى سنة ١٢٠٤م حين علم أن تيانج خان يحاول أن يكون تحالفا ضده ، فقد جمع

(١) ذكره ابن العبرى فى كتابه تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٤ باسم أونك خان وقال وهو المسمى ملك يوحنا من القبيلة التى يقال لها كريت ، وذكر أن تيموجين كان يخدمه من صغره .

مجلسا عاما ليقرر ما يتبع بشأنه ثم سار بجيشه لملاقاته واشتبك معه في معركة انتهت بانتصاره وقتل تيانج خان وتفريق أتباعه . على أن بلاد النيمان لم تخضع الا في سنة ١٢٠٦م بعد أن قتل بويوروك الذي كان قد حل محل تيانج خان واستولى على أملاكه وقطعانه ويعد أن اضطر كشلوك ابن تيانج خان الذي كان مع عمه الى الفرار (١) .

٣ - حرب التتار : أما أمة التتار فقد ناوات تيموجين مناوأة شديدة حين أراد أن يخضعها سسلطانه . اذ انضمت الى كل تحالف عقدته القبائل لمناهضته ، سواء أكان ذلك في سنة ١٢٠٠م أم سنة ١٢٠١م . وقد كان مسلكها هذا نحوه يتفق مع مسلكها نحو آبيه وجده من قبله ، وكانت تزكياه وتزيد أواره روح الكراهة المتأصلة بينها وبين أمة المغول . واذا كان تيموجين قد هاجم هذه الأمة سنة ١٢٠٢م وهزم قبيلتين من قبائلها ، فانه لم يلبث بعد أن انتصر على تيانج خان ملك النيمان وبعد أن أخضع أمة المركيت أن سار اليها وأخضع قبائلها وقتل كثيرا من أفرادها (٢) .

٤ - حرب الكريت : لقي تيموجين مقاومة من أمة الكريت لا تقل عما لقيه من غيرها وقد كانت هذه الأمة بفضل محالفة ملكها وانج خان لتيموجين من أركان الأمم اليه ولكنها بعد أن انسحب وانج خان ملكها من الميدان عندما كان يرافق تيموجين في حربه الأولى ضد أمة النيمان كما سبق أن ذكرنا أصبحت تقاوم تيموجين كغيرها من الأمم التي تقيم في منغوليا . وقد تحالف تيموجين ومن ورائه أمة المغول ووانج خان ومن ورائه أمة الكريت مدة لا بأس بها

D'Ohsson Tome I, pp. 55-59, 83-88, 90, 161.

(١)

Ibid., pp. 60-63, 92-93.

(٢)

واشتركوا في كثير من الحروب ضد أعدائهم ، الا أن الحال ما لبث أن تغير والشقاق ما لبث أن أخذ طريقه بين تيموجين ووانج خان وقامت الحرب بينهما وانتهت بقتل وانج خان . وتبع ذلك مهاجمة تيموجين لأمة الكريت واخضاعه لها (١) .

وقد تم بذلك ما كان يرمى اليه تيموجين من توحيد الأمم التي كانت تقيم في منغوليا لسلطانه ولم تشذ أمة من الأمم عن الخضوع له ، وهكذا أصبح تيموجين وتحت حكمه كتلة كبيرة واستحق لقب جنكيزخان ومعناه ملك الأقوياء أو الملك صاحب القوة والبطش ، الذي منحه له مجلس عام أوقوريلتان Curiltai عندما اجتمع سنة ١٢٠٦م (٢) . وقد ذكر القلقشندی أن اسمه في الأصل تمرجين وأنه لما عظم شأنه سمي جنكيزخان (٣) .

D'Ohsson, Tome I, pp. 69-83.

(١)

Ibid., pp. 98-99.

(٢)

Howorth, vol. I, p. 54. ...

و

Cam. Med. Hist., vol. IV, p. 632.

و

(٣) صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٣٠٥ .

مراكز القوات المغولية
أمام بغداد

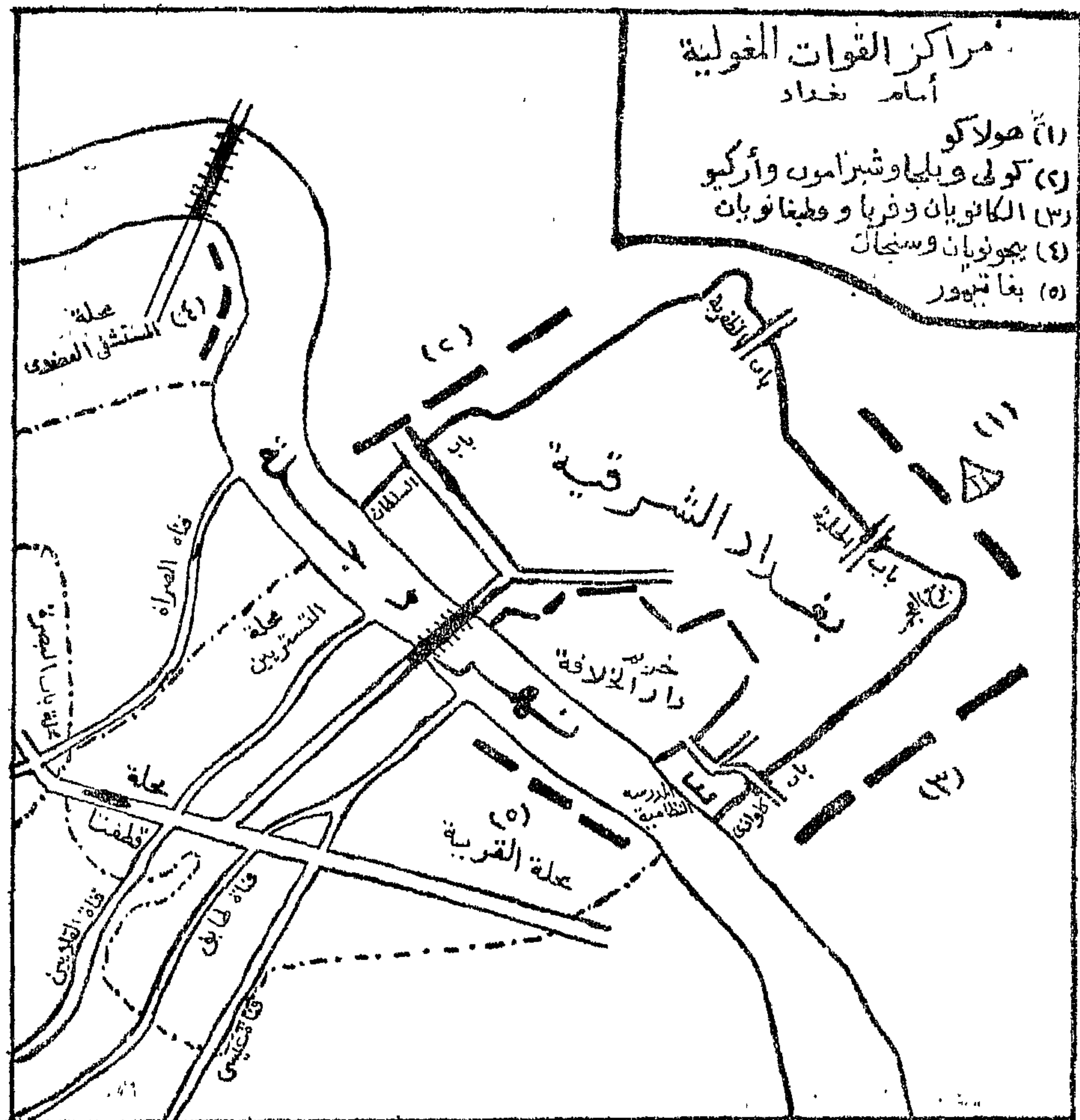
(۱) مولانا کو

(٢) تولى وبلجاوشبرامون وأركيو

رس الكاثوليك وفرياء وطبعانويان

(۴) پھولوں کا پتہ

(۵) بغاقتیور



الفصل الثالث

التوسع المغولي في آسيا وأوروبا

سننتكلم في هذا الفصل عما بذله المغول في أيام جنكيز خان وخلفائه أخطاي وكيوك من مجهودات في سبيل تكوين امبراطوريتهم التي شملت معظم قارة آسيا وامتدت الى أوروبا . وذلك لأن أعمال الفتح التي قام بها المغول كانت سلسلة متصلة الحلقات وسلمت متتالي الدرجات ، وليس من المنطق أن نتكلم على ازالتهن للخلافة العباسية في عهد الخان الأعظم مانجو قبل أن نذكر ما قاموا به من حروب في عهود من سبقه من الخانات وما أتموه من فتوحات في تلك العهود هيأت لهم سبيل القرب من أملاك الخلفاء العباسيين بل وجعلت استيلائهم عليها أمرا لا بد منه .

١ - عهد جنكيز خان

لم تكن الوحدة المغولية هي كل ما تم في أيام جنكيز خان بل ان أكبر الفضل في وضع سياسة للتوسع المغولي يرجع الى ذلك العاهل العظيم . وقد سار جنكيز خان شوطا بعيدا في تنفيذ سياسة التوسع ولم تقتصر فتوحاته على جهة من الجهات بل شملت كل الجهات المجاورة لمنغوليا تقريبا . ويمكن خصر الكلام على ما تم في عهده من الفتوحات في ثلاث مراحل .

(أ) المرحلة الأولى : تبدأ المرحلة الأولى من سنة ١٢٠٧م وتنتهى سنة ١٢١١م . وقد تم فيها اخضاع عدة امارات صغيرة تركية بين منغوليا وتركستان لنفوذ جنكيزخان وتلك الامارات هي امارة الكمكجوت *Kemkemjoutes* وامارة القرغيز *Kirghiz* وامارة الويغور *Ouighurs* وامارة كيالج *Kialeg* وامارة الماغ *Almaleg* ، وجميعها كانت تعترف بسلطان امبراطور القره خطاي أو الخطا قبل أن تخضع لجنكيز خان . ولم يبذل جنكيز خان مجهودا في اخضاعها بل أنه بمجرد وصول رسله اليها ودعوتهم لها الى الخضوع أجابت دعوتهم . ويرجع ذلك الى سوء حكم أباطرة الخطا واستبدادهم بمن يتصل بهم . وقد أراد جنكيز خان أن يكسب علاقته بهذه الامارات قوة بغير طريق العسف والشدة فزوج أمير كيالج وأمير الماغ بأمرتين من بيته ، كما زوج ابنته للملك الويغور (١) .

(ب) المرحلة الثانية : أما المرحلة الثانية فتبدأ سنة ١٢١١م وتنتهى سنة ١٢١٨م وتشمل مجهودات جنكيز خان وحربه ضد مملكة هيا *Hia* أو التنجوت الصغيرة التي كانت تقع بين أملاك جنكيز خان وامبراطورية أسرة كين فى الصين الشمالية وأيضا ضد امبراطورية أسرة كين نفسها وضد كوريا أيضا ، وقد انتهت هذه المرحلة بخضوع

(١) D'Ohsson, Tome I, pp. 95, 101-111.

ذكر ابن العبري هذه الامارات فى كتابه تاريخ مختصر الدول فى صفحات ٣٩٦ و ٣٩٨ و ٤٢٦ على هذا النحو : الأيغور وقبالينغ أو قبالينغ والمالينغ (ال التعريف) وبلاد قراخطا وذكر أن هذا اللفظ كان يطلق على أمير بلاد الأيغور وتنجوت . وجاء فى صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٨٣ « بلاد الخطا بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر وهم جنس من الترك بلادهم فى متاخمة بلاد الصين » . وقد اتبعت ما ذكره مؤرخو الفرنجة لأنهم أكثر دقة وأوسع اطلاعا فيما يختص بدراسة المغول .

كوريا ومملكة التنجوت وانتشار نفوذ المغول في الجزء الواقع شمال النهر الأصفر من امبراطورية أسرة كين وفي المنطقة التي كانت لا تزال ياقية للخطا والتي كان أهلها يسمون لياوتنج Leao-Tong (١) *

(ج) المرحلة الثالثة : بدأت المرحلة الثالثة سنة ١٢١٨م وكان ميدانها في غرب آسيا لا في شرقها ، وكانت عبارة عن حروب شديدة شنها جنكيز خان على الامبراطورية الخوارزمية التي كانت تمتد من نهر السند شرقا الى كردستان وخوزستان والخليج الفارسي غربا ومن سواحل بحر آرال وبحر قزوين شمالا الى المحيط الهندي جنوبا ، وتشمل بين أهم بلادها أذربيجان والعراق العجمي وفارس وكرمان ومكران وسستان وخراسان وأفغانستان والبامير والصغد وما وراء النهر (٢) وقد ظلت هذه الحرب نحو خمس سنوات أى حتى سنة ١٢٢٣م استولى فيها جنكيز خان على كثير من مدن ما وراء النهر وأهمها بخارى وسمرقند وترمد ، ثم عبر نهر جيحون وفتح بلخ والطالقان وباميان بينما فتحت جيوشه حوض نهر سيحون وخوارزم وخراسان وتتبع قسم منها يعرف في التاريخ باسم المغول المغربة محمد خوارزمشاه الذي أخذ

D'Ohsson Tome I, pp. 123-162.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 135.

و

Cam. med. hist., Vol. IV, pp. 633-637.

و

Cam. med., hist., IV, p. 633, D'Ohsson, Tome I, p. 175.

(٢)

الصغد بالضم ثم السكون وآخره دال مهملة .. كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وترمد ، مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقى .. وطالقان بعد الألف لام مفتوحة وقاف وآخره فون بلدة بين مرو الروذ وبلخ وبينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل .

« راجع هذه الأسماء في معجم البلدان لياقوت » *

يتنقل مسرعان من نيسابور الى قزوین الى جيلان الى مازندران الى جزيرة عند مصب نهر جرجان في بحر قزوین حيث مات ثم بعد ذلك سار المغول المغربية حتى دخلوا روسيا بعد أن عبروا جبال القوقاز (١) .

وقد قامت الحروب بعد موت محمد خوارزمشاه بين ابنه جلال الدين وبين جنكيزخان فارسل جنكيزخان جيشا الى خوارزم هزمه جلال الدين ، ثم تلاقي بعد ذلك الاثنان عند نهر السند ودارت بينهما معركة حمى وطيسها وأظهر فيها جلال الدين شجاعة أرعبت عدوه ، الا أن انسحاب جزء من جيشه بسبب النزاع بين قواده أضعفه واضطره الى عبور نهر السند الى الهند . وقد بقى جنكيزخان بعد ذلك مدة قصيرة على شاطئ نهر السند أرسل فيها قائدين من قواده لاقتفاء أثر جلال الدين في الهند ، كما أرسل ابنه أخطاي الى غزنة فخر بها ، وأرسل جيشا غير هذه الجيوش فتح هراة وخر بها كما فتح مرو وخر بها ، ولما عادت هذه الجيوش اليه عزم على العودة الى منغوليا في ربيع سنة ١٢٢٣م وقد أراد في أول الأمر أن يعود عن طريق الهند والتبت وسار فعلا بعض المراحل ولكنه غير رأيه وسار عن طريق فارس وما وراء النهر ، أي اتبع في عودته الطريق التي سلكها عند

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٨ ص ٢٥٧ - ٨ و ج ٧ ص ٢٧٢ وابن العبري ، ص ٤٠٢ و ٤١١ .

D'Ohsson, Tome I, pp. 216-292. و

Howorth, Vol. I, pp. 77-86. و

Browne, Lit, his. of persia, II, p. 438. و

Raverly, Tabakat-i-nasiri (trans), p. 377 note 5. و

مجيئه فوصل الى قصره في منغوليا في شهر فبراير سنة ١٢٢٥م (١) .

وعلى ذلك فقد سار جنكيزخان شوطا بعيدا في سبيل ضم معظم غربي آسيا الى ممتلكات المغول ، كما أنه ثبت قدم المغول في جزء واسع من شمالي الصين ووجه أنظارهم الى البلاد الصينية . وقد مات جنكيزخان في ١٨ أغسطس سنة ١٢٢٧م وهو يحارب في بلاد التنجوت (٢) .

٢ - عهد خلفاء جنكيزخان (أخطاي وكيوك)

(أ) نشر نفوذ المغول في الصين : لم يال خلفاء جنكيزخان جهدا في اتباع الطريق الذي سلكه ؛ ولذلك مان ابنه أخطاي عندما خلفه على العرش عول على اخضاع أمراء أسرة كين الذين ثاروا على المغول على أثر موت جنكيزخان وهزموهم مرتين في سنة ١٢٢٨م وفي سنة ١٢٣٠م ، وقد سار على رأس جيش كبير كما سير أخاه تولى Tulé الى هونان وكانت النتيجة أن انتصر المغول واكتسحوا أسرة كين من الوجود وأتموا اخضاع الصين الشمالية نهائيا ، بعد ان ظل أفراد هذه الأسرة يحكمون ١١٨ سنة (٣) .

(١) ياقوت - معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٥ و ٤٥١ ، وابن العبري ، ص ٤١١ - ٤١٣ .
D. Ohsson, Tome I, pp. 296-323.

« غزنة » ولاية واسعة في طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند .
راجع لفظ غزنة في معجم البلدان لياقوت .

(٢) D'Ohsson, Tome I, pp. 380-1.

(٣) D'Ohsson, Tome II, pp. 16-56.

و Howorth, Vol. I, p. 125.

و Camb. med. hist., IV, p. 625.

ذكر ابن العبري ص ٣٩٥ أن جنكيز خان كان له أربعة أولاد من زوجته الخاتون

الكبيرة وذكر أسماءهم كالاتي : توشى ، جعاتاي ، أوكتاي ، تولى .

هذا فى الصين الشمالية ، أما فى الصين الجنوبية فقد
عول أخطاى على تنفيذ رغبة جنكيزخان الذى جهز حملة
لفزوها ولكنه مات قبل انفاذها . ولم يمنع أخطاى عن
تحقيق هذا الغرض مساعدة ملكها له فى حربه ضد أمراء
أسرة كين ، بل انه وقد وعد الملك باعطائه هونان جزاء تلك
المساعدة عاد فأخلف الوعد، ولم يكتف بذلك بل فكر انه حين
بدأ محاربة أسرة كين طلب من هذا الملك ان يسمح لجيوشه
بالمرور فى أرضه ولكنه أبى وحين أرسل اليه رسولا لهذا
الغرض قتله ، ورأى فى أعماله هذه سببا وجيها لاعلان الحرب
عليه ، وسير حملة ضد الصين الجنوبية سنة ١٢٥٣م فكان ذلك
اتباعا للطريق الذى اختطه جنكيزخان وان لم تكن نتيجة
هذه الحملة حاسمة (١) . وقد سار خلفاء أخطاى على هذا
النمط نحو الصين الجنوبية ولم يفز أحد منهم بنتيجة نهائية
بل كانت جيوشهم تغير على بعض المقاطعات وتستولى على
بعض المدن ثم لا تلبث ان تعود منها غير عابئة الا بالحصول
على الغنائم (٢) .

أما فى كوريا فقد اشتد النزاع بين ملكها وأخطاى
وكثرت الثورات ضد المغول حتى انه فى سنة ١٢٣١م قتل
رسول الخان وكان ذلك سببا فى ارسال حملة بقيادة سابوتاي
Sabutai الذى انتصر وعين حكاما من المغول فى كثير من
مدن كوريا . وفى سنة ١٢٣٢م، ثار أهل كوريا وقتلوا كثيرا
من هؤلاء الحكام المغوليين وخاف ملك كوريا وفر الى جزيرة
سيانج هوا Siang Hua على ساحل كوريا الغربى فاستدعاه

D'Ohsson, Tome II, pp. 76-83.

Howorth, Vol. I, p. 137.

Cam, med. hist. IV p. 637.

D'Ohsson, Tome II, p. 276.

(١)

و

د

(٢)

أعطى ليحيى أمامه عن تلك الحوادث ولكنه رفض فكان ذلك سببا في إرسال حملة ضده سنة ١٢٣٥ م . ولم تأت سنة ١٢٤١ م حتى خضع ملك كوريا ووعدته بدفع جزية سنوية وإرسال رهائن إلى أعطى (١) وظل الحال على ذلك أيام الخان مانجو .

(ب) نشر نفوذ المغول في أوروبا : كانت حملة المغول

المغربية سببا في توجيه نظر المغول إلى أوروبا ، فلما مات جنكيزخان وتولى العرش ابنه أعطى قام المغول بأعظم حروبهم في أوروبا . ومما يدل على اهتمام أعطى بغزو أوروبا أنه حين جهز سنة ١٢٣٥ م الجيوش لغزو الصين الجنوبية وكوريا لم ينس أن يجهز جيشا ثالثا ليوجهه إلى ما وراء نهر الفلجا كما أنه كان عازما على قيادته بنفسه وعندما اضطرت الظروف إلى البقاء تخلى عن القيادة إلى باتو ابن أخيه جوجي ، وأرسل معه أبناءه وأبناء أخوته (٢) .

وقد سار هذا الجيش بسرعة كعادة الجيوش المغولية وخرب بلادا كثيرة من أهمها موسكو وفلدمير كما استعمل القسوة الشديدة ضد مدينة كسلسك Koselsk التي سماها المغول موباليج Mobalig ومعناها مدينة الآلام ؛ مما يدل على أنهم أحسوا بقسوتهم حيالها . ولم تنج نفجروا منه إلا لذوبان الثلوج وتحول الاقليم المحيط بها إلى مستنقع لا يمكن

D'Ohsson, II, pp. 72-75.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 135.

و

Cam. med. hist., IV, p. 637.

و

D'Ohsson, Tome II, p. 276.

(٢)

عبوره . ولم تأت سنة ١٢٠٤م حتى كان قد قارب نهر الدنيبر
 وخرب مدينة برسلاف Pereslave وشرنيجوف Chernigov
 وجلوخوف Glokhov ثم استولى على مدينة كيف Kiev (١) .
 وانقسم الجيش المغولي بعد ذلك الى قسمين سار أحدهما الى
 الشمال قاصدا بولندة وسار الثانى الى الجنوب الغربى
 قاصدا بلغاريا . أما القسم الشمالى الغربى فتمكن من
 هزيمة هنرى دوق سيليسيا سنة ١٢٤١م ومعه أشراف بولندة
 ورئيس الفرسان اليوتون فى لينتز هزيمة ساحقة وأدخل
 الرعب فى أوروبا الغربية كلها من جراء هذا الانتصار ومن
 جراء أعمال القتل التى قام بها والتى راح ضحيتها حيرون
 من الأشراف والبطارقة والراهبات والأطفال . بينما القسم
 الذى سار نحو الجنوب الغربى عبر الكربات بفيادة باتو
 واكتسح فرسان هنغاريا فى موهى Mohi على نهر نيس
 واضطر الملك بيلا الرابع Belaiv الى الفرار نحو الادرياتيك ،
 ولم يكتف بذلك بل عبر نهر الدانوب واستولى على جران Gran
 ولولا موت أخطاى الذى استدعى باتو وقواده الى بلادهم ، لما
 وجد أقل شك فى مشاركة باريس وروما لكيف وموسكو
 فى مصيرهما (٢) . وعلى العموم فقد شمل عذاب المغول فى
 حملتهم هذه أوروبا الشرقية والوسطى وامتد حتى حدود
 المانيا الشرقية ولم تنج منه البوسنة ولا بلغاريا ولا
 الصرب (٣) كما أن هذه الحملة كانت أعظم مجهودات خلفاء
 جنكيزخان فى أوروبا بل ويمكن اعتبارها الأولى والأخيرة .

D'Ohsson, Tome II, pp. 114-122.

(١)

Ibid., pp. 124-160.

(٢)

Cam. med. hist., Vol. IV, p. 637.

و

Gibbon, decline & fall of the Roman Empire (Ed. Bury).

(٣)

Vol. VII, p. 17.

(ج) نشر نفوذ المغول في غرب آسيا : بعد عودة جنكيزخان الى بلاده رجع جلال الدين من الهند وأخذ يجمع شتات الامبراطورية الخوارزمية ، وقد وفق الى حد كبير وأصبحت سلطته منتشرة في خراسان وكرمان والعراق العجمي وفارس وأذربيجان ، كما هزم الكرج ونهب بلاد الاسماعيلية وقتل منهم عددا كبيرا وفرض عليهم جزية ثقيلة ، كما استولى على خلاط ولم يتركها الا بعد أن تحالف صاحبها الملك الأشرف مع علاء الدين صاحب بلاد الروم وهزمه (١) .

وكان المغول يناوئون جلال الدين في أول الأمر بعير نجاح حتى اذا تولى أخطاي أمرهم بعد موت أبيه، أرسل جيشا قويا استولى على الري وهمدان وما بينهما من البلاد ثم قصد أذربيجان وخرب ونهب وقتل من ظفر به من أهلها ثم أوقع بجلال الدين ليلا وهو بظاهر آمد سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) فتشتت عسكره أيدي سبأ وفر هو الى الجبال حيث قتله أحد الأكراد (٢) وبذلك قضى المغول على الدولة الخوارزمية وأصبح نفوذهم تاما في ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي وفارس .

(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٩٥ - ٢٢٧ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 1-21, 34-47.

« الكرج بالضم ثم السكون وآخره جيم وهو جيل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السريير فقويت شوكتهم حتى ملكوا تفليس ولهم ولاية تنسب اليهم ومك ولغة ٠٠٠ وشوكة وقوة وكثرة وعدد » .

راجع لفظ كرج في معجم البلدان لياقوت .

(٢) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ٢١٧ و ٢٢٠ و ٢٣٠ - ٢٣٢ والذهبي ، دول الاسلام .

ج ٢ ، ص ١٠١ وابن العبري ، ص ٤٣١ - ٤٣٢ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 23-27, 47-62.

Howorth. Vol. I, p. 125.

Raverty (Trans.), Tabakat-i-iNasiri, p. 298, noto 1.

و

و

و

وقد ذكر ابن الأثير أن ارسال هذا الجيش المغولى الذى قضى على جلال الدين كان بناء على طلب الحشيشية بسبب سوء معاملة جلال الدين لهم (١) ، فاذا كان هذا صحيحا فانه يدل بلا شك على قصر نظر المسلمين فى ذلك الوقت وتعاديهم فيما بينهم وعدم تعاونهم، كما يرينا كيف جر المسلمون على أنفسهم البلاء فقد كان محمد خوارزمشاه حاجزا منيعا بين الخلافة العباسية والخطر المغولى عمل الخليفة الناصر على ازالته ثم جاء جلال الدين وحاول أن يقيم هذا الحاجز ويحمى العالم الاسلامى من شر المغول فلم يساعده أحد بل ووقع الحشيشية فى الخطا الذى وقع فيه الخليفة من قبلهم .

ولم تقتصر مجهودات جنكيزخان على اتمام ما بداه بالقضاء على الدولة الخوارزمية بل امتدت اطماعهم شيئا فشيئا ، وقد تم فى أيام أخطاى اخضاع جزء كبير من الجهات الباقية فى غرب آسيا ، فوعدت أذربيجان بدفع جزية كما وعد كثير من أمراء بلاد الكرج بمثل ذلك وان كانت روسودان Rousoudan ملكة تلك البلاد قاومت المغول مدة طويلة ولجأت الى قلعة أوزانث ، أما أرمينية فخربت عاصمتها آنى Ani وقتل كثير من أهلها لأنها قاومت المغول الذين ظلوا يحاصرونها زمنا طويلا، كما عوملت قارص - احدى مدنها - معاملة سيئة على الرغم من أنها سارعت بتقديم مفاتيحها الى المغول ولم ينبج من مذبحتها الا الأطفال والصناع ، ولكن المغول بعد ذلك عاملوا أرمينية كما عاملوا غيرها ؛ اذ قبلوا منها الجزية المعتدلة كما أعادوا أمراءها اليها وذلك على أثر ذهاب الأمير الأرمنى أواك Avak وأخيه تمااتا Thamata

١) ابن الأثير، ج ١٢ : ص ٢٢٠ .

إلى بلاط أخطاي سنة ١٢٤٠م واستقباله لهما استقبالا حسنا (١) .

بعد موت أخطاي سنة ١٢٤١م استمر تقدم المغول في غرب آسيا وظل هذا التقدم طوال المدة التي كانت فيها تيركينا أرملة أخطاي ووالدة كيوك صاحبة الامر والنهي (١٢٤١ - ١٢٤٦م) . وفي عهد كيوك (١٢٤٦ - ١٢٤٨م) واولئل عهد مانجو ، فقد أغار المغول على أرزن الروم سنة ١٢٤٣م (٦٤١هـ) واستولوا عليها وقتلوا حاميتها وأسروا كثيرا من أهلها ، كما حاربوا السلطان غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة في آسيا الصغرى ، واضطروه الى دفع جزية سنوية قدرها أربعمئة ألف دينار وعدد من العبيد والخيول والأشياء الثمينة . كما دخل في نفس الوقت قسم آخر منهم الشام وتقدم حتى حلب وعاد بعد أن دفعت لهم مبلغا من المال ، وفي عودته قدم له حاكم ملطية الخضوع كما قدم كمية من النقود والأواني الذهبية والفضية ، وقبل حاكم أنطاكية وغيره من حكام المدن المسيحية دفع جزية سنوية ، وكذلك فعل هيتون ملك قيليقية أو أرمينية الصغرى وتسلم شهادة بأنه من أقبال الخان ، كما دفعت الموصل لهم جزية سنوية (٢) . ومعنى ذلك أن سلطة المغول في تلك الأيام انتشرت في أملاك الدولة الخوارزمية البائدة وفي آسيا الصغرى وفي شمالي الشام .

D'Ohsson, Tome III, pp. 71, 75-78.

(١)

Howorth, Vol. I, pp. 132-133.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 79-88.

(٢)

Howorth, I, p. 106.

و

(د) غارات المغول على أملاك الخلافة العباسية : يجب

ألا ننسى أن الخلافة العباسية لم تسلم من هجمات المغول في ذلك الوقت وأنهم منذ تخلصوا من جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢٨ هـ أخذوا يشنون الغارات السنوية على العراق (١) وقد لاقى منهم المستنصر أكبر المتاعب واهتم بامرهم غاية الاهتمام فسير عدة رسل يستنجد الأشرف من مصر ويستنجد العربان وغيرهم ، كما أخرج الأموال وأخذ يجمع الجند من جميع أجزاء بلاده لناهضتهم . ولما غزوا أربل سنة ٦٢٤ هـ (١٢٣٦ م) - وكانت قد آلت إلى الخليفة منذ سنة ٦٢٠ هـ بعد موت صاحبها مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين كوجك على - قتلوا كل من فيها وسبوا ونهبوا حتى نتنت من كثرة القتل (٢) ثم رحلوا عنها إلى الموصل ، وتربصت لهم قوات الخليفة حتى عادوا وهزمتهم عند جبل حميرين واضطرتهم إلى ترك الأسرى الذين وقعوا في أيديهم عندما هاجموا أربل . ولكن هذا النصر لم يكن حاسماً لأن المغول عادوا فانتصروا ثانية ثم ساروا شمالاً (٣) . وقد غزا المغول العراق سنة ٦٣٥ هـ ووصلوا حتى سامرا (٤) واهزعوا المستنصر واضطروه إلى إعلان الجهاد بعد أن جمع مجلساً من العلماء وجعلهم يفتون بأن الغزو في سبيل الله خير من الحج إلى بيت الله . وقد كان ذلك سبباً في سريان روح الحماس في بغداد حتى صار العلماء والكبراء يخرجون من بغداد إلى الصحراء يشجعون الجند في تدريبهم بل ويشاركونهم في

Richard Coke, baghdad, p. 135.

(١)

(٢) المقرئى - السلوك ج ١ ، ص ٢٤٢ والذهبي - دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٠٤

٢٤٧ و ٢٥٥ .

(٣) الديار مكرى - الخميس في أحوال أنفس بغيس ج ٢ ، ص ٤١٤ .

Cam. med. hist., IV, p. 636.

و

(٤) ابن العبري ، ص ٤٣٨ .

و

Muir, The Caliphate, p. 586.

هذا التدريب (١) حتى قيل انه استخدم من العساكر ما تزيد عدتها على مائة ألف انسان وانه استعان بالجند المرتزقة وأرسل الى الملك الكامل مائة ألف دينار ليستخدم له بها العساكر فاستخدم له بضعفها وردّها غير منقوصة ثم أرسل له نجدة من لدنه تبلغ عشرة آلاف جندي ، وكانت نتيجة أعماله هذه أن طرد المغول (٢) .

وقد ظلت هجمات المغول على العراق العربي متوالية في الفترة التي اعقبت موت اجطاي وفي حكم كيوك القصير ، كما بلغ تقدم المغول في تلك الجهات أشده حتى انه في سنة ٦٤٢ هـ (١٢٥٤ م) - التي اتخذ فيها الخليفة المستعصم مؤيد الدين محمد بن العلقمي أستاذ داره وزيرا له - علم الناس في بغداد أن المغول دخلوا شهر زور وهي على مسيرة ثمانية أيام شمالي بغداد وخرّبوها واضطروا حاكمها من قبل الخليفة العباسي ملك الدين محمد بن سنقر الى اللجوء الى حصن منيع . وفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) تقدموا حتى بعقوبا ، ولولا انتصار جيوش الخليفة بقيادة الدفتردار الصغير عليهم وصدها لهم لأضحوا خطرا كبيرا . كما أنهم في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) تقدموا حتى دقوقاء وقتلوا حاكمها ووصلت طائفة منهم الى بغداد نفسها وهاجمتها على حين غفلة من أهلها وقتلت عددا كبيرا منهم ونهبت كثيرا من أقواتهم (٣) .

D'Ohsson, III, p. 74.

(١)

Coke, Baghdad, p. 135.

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والديار بكرى - الخميس ، ج ٢ .

ص ٤١٤ .

Muir, The Caliphate, p. 586.

و

Sayéd, ameer Ali, A Short hist., p. 393.

و

(٣) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٢٠ و ٢٥٥ والذهبي - دول

الاسلام ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

أما حكم مانجوخان الذى انتخب سنة ١٢٥١م فقد امتاز بتقدم المغول المطرد نحو العراق العربى ، فقد دخلوا العراق العربى فى السنة الثانية من حكمه (٦٥٠ هـ - ١٢٥٢م) وخرّبوا ديار بكر وميافارقين وتقدموا حتى رأس عين وسروج وقتلوا أكثر من عشرة آلاف شخص وأسروا مثل ذلك ، كما أنهم هاجموا قافلة كبيرة كانت فى طريقها من حران الى بغداد وحصلوا منها على غنائم وافرة ، من بينها ستمائة حمل من السكر وكثير من نسيج القطن المصرى وستمائة ألف دينار ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وساقوا النساء والصبيان معهم وعادوا بعد ذلك الى خلاط (١) . هذا الى أن سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية كان فى أيام ذلك الخان العظيم وذلك ما سنتكلم عنه فى الباب الثالث .

(١) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٨٢ والذهبي ، دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

« بعقوبا بالفتح ثم السكون وصم القاف وسكون الواو والباء موحدة ٠٠٠ قرية كبيرة ٠٠ بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان ٠٠٠ ودقواق بفتح أوله وضم ثانيه وبعد الواو قاف أخرى والف ممدودة ومقصورة . مدينة بين اربل وبغداد ٠٠٠ كان بها وقعة للخوارج .

وميافارقين مدينة بديار بكر ٠٠٠

ورأس عين ويقال رأس العين ٠٠ من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ونديسر ٠٠ وشروج فعول ٠٠ بلدة قريبة من حران من ديار مصر ٠٠٠ وخلاط بكسر أوله ، وهى قسبة أرمينية الواسطى »

(راجع هذه الأسماء فى معجم البلدان لياقوت) .

الباب الثالث

الفتح المغولي للعراق

الفصل الأول

بغداد قبيل الفتح المغولي

١ - طبوغرافية بغداد

أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد سنة ١٤٩ هـ وكما عبارة عن دائرة في مركزها قصر الذهب والمسجد الجب تحيط بها منازل أبنائه ودواوين حكومته ، ومحيطها أسد ثلاثة من اللبن متعاقبة ، بين الداخلى والأوسط مسافة عر ٥١٠ ياردات يسكنها الأتباع ، وبين الأوسط والخارجى مسد يبلغ اتساعها ٥٠ ياردة خالية . وكانت محاور هذه الدا شوارع أربعة فى نهايتها أبواب كبيرة هى باب خراسان وباب الشام وباب الكوفة وباب البصرة (١) . ومنذ أوا عهد المنصور أخذت بغداد فى الاتساع والنمو ولم تعد تقتصر على تلك الدائرة ، ولم تؤثر فى نموها تلك الحوادث (٢) نزلت بها كالتزاع الذى قام بين الأمن والمأمون وانتق

(١) الطبرى ، ج ٩ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ و ٢٣٩ - ٢٤١ .

والخطيب البغدادي ج ١ ، ص ٦٩ - ٨٣ . واليعقوبى ، ص ٢٣٩ - ٢٥٤ .

وابن الأثير ج ٥ ، ص ٢٦٥ و ٢٨٦ . ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ . و ٢٥٤ ص صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٣٣٠ . Le Strange pp. 18-27 .

الخلفاء الى سامرا ووقوع الخلافة تحت سيطرة بنى بويه والسلاجقة ، وأصبحت ثلاثة أقسام : القسم الواقع على شاطئ دجلة الغربى ومن محلاته شارع دار الرقيق والحربية وباب البصرة والكرخ والمستشفى العضدى (١) ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الشمالى من شاطئ دجلة الشرقى ومن محلاته الرصافة والشماسية والمخرم ومحلة القصور البويهية ، والقسم الواقع على امتداد الجزء الجنوبى من شاطئ دجلة الشرقى ويشمل حريم دار الخلافة الذى كان يحيط به سور ويوجد فى داخله القصر الحسنى وقصر التاج وقصر الفردوس (٢) ومحلات العامة التى كان منها المأمونية وباب الأزج ومسعودة والريان والمقتدية وقراح ظفر والقاضى وابن رزين وأبى الشحم والتى أحاطها جميعها الخليفة المستظهر وابنه المسترشد بسور عظيم (٣) .

وعلى الرغم من ان القرن السادس الهجرى شاهد استعادة الخلفاء العباسيين لسلطانهم بعد أن اغتصبه بنو بويه ثم السلاجقة أكثر من قرنين (٣٣٤ - ٥٤٧ هـ) ، فان أقسام بغداد المختلفة فى ابانه وفى أوائل القرن السابع الذى تلاه فقدت كثيرا من عمارتها بسبب كثرة القلاقل والمنازعات التى كانت تقوم بين سكان المحلات المختلفة أو فيضانات دجلة

(١) البغدادى ج ١ ، ص ١١٩ ومعجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ و ٢٦٥ و ج ٥ ، ص ٢١١ و ٢٩١ و ج ٧ ، ص ٤٠٨ و Le Strange, pp. 232, 304-306.

(٢) البغدادى ، ج ١ ص ٩٩ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ و ج ٧ ، ص ٣٦٩ وصبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .

Le Strange, pp. 243-254.

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٠٤ و ٢٦٢ ومعجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٤٩ ، و ج ٧ ، ص ٤١ و ٤٠٨ .

Le Strange, pp. 284-288.

و جاء فى معجم البلدان ج ٧ ، ص ٤١ ، القراح بفتح أوله وتخفيف ثانيه وآخره جاء اصطلاح بغدادى فانهم يسمون البستان قراحا .

الكثيرة (١) ، وقد أثبت ذلك ابن جبير في رحلته حيث قال :
 « هذه المدينة العتيقة - ان لم تزل حاضرة الخلافة السياسية
 ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية - وقد ذهب أكثر
 رسمها ولم يبق منها الا شهر اسمها ، وهي بالاضافة الى
 ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النواصب
 اليها كالطلل الدارس والأثر الطامس أو تمثال الخيال
 الشاخص » (٢) .

ولو أننا أردنا ان نصف بغداد بأقسامها المختلفة عندما
 حاصرها هولاء سنة ٩٥٦ هـ لوجدنا أن هذه الأقسام : بغداد
 الشرقية الجديدة التي كان يقيم بها الخليفة المستعصم
 وحكومته والتي ركز المغول جهودهم لفتحها . وقد كانت
 قصور الخلفاء في هذا القسم مختلفة عما كانت عليه في
 الماضي ، فقصر الفردوس كان قد تهدم وزالت معالمه ، والقصر
 الحسنى القديم كان قد تهدم أيضا ونشأت على أنقاضه منذ
 القرن الخامس الهجرى قصور أخرى تهدمت بدورها ثم
 نشأت على أنقاضها المدرسة المستنصرية وقصر عرف باسم
 الريحانيين ، كما أن قصر التاج القديم الذى وضع أساسه
 المعتضد واكملة المكثفى تهدم ونشأ قصر آخر باسمه الى
 الشمال منه . أى أن منطقة حريم دار الخلافة كانت فى ذلك
 الوقت تتكون من الشمال الى الجنوب من المدرسة المستنصرية
 على ساحل دجلة الشرقية وقصر الريحانيين بحداثتها الى الداخل
 ثم قصر التاج الى الجنوب منهما ، هذا عدا قصور أخرى
 وحدائق غناء . وكانت هذه القصور لا يزال يحيط بها
 سور يفصلها عن محلات العامة وان كان هذا السور قد نقل

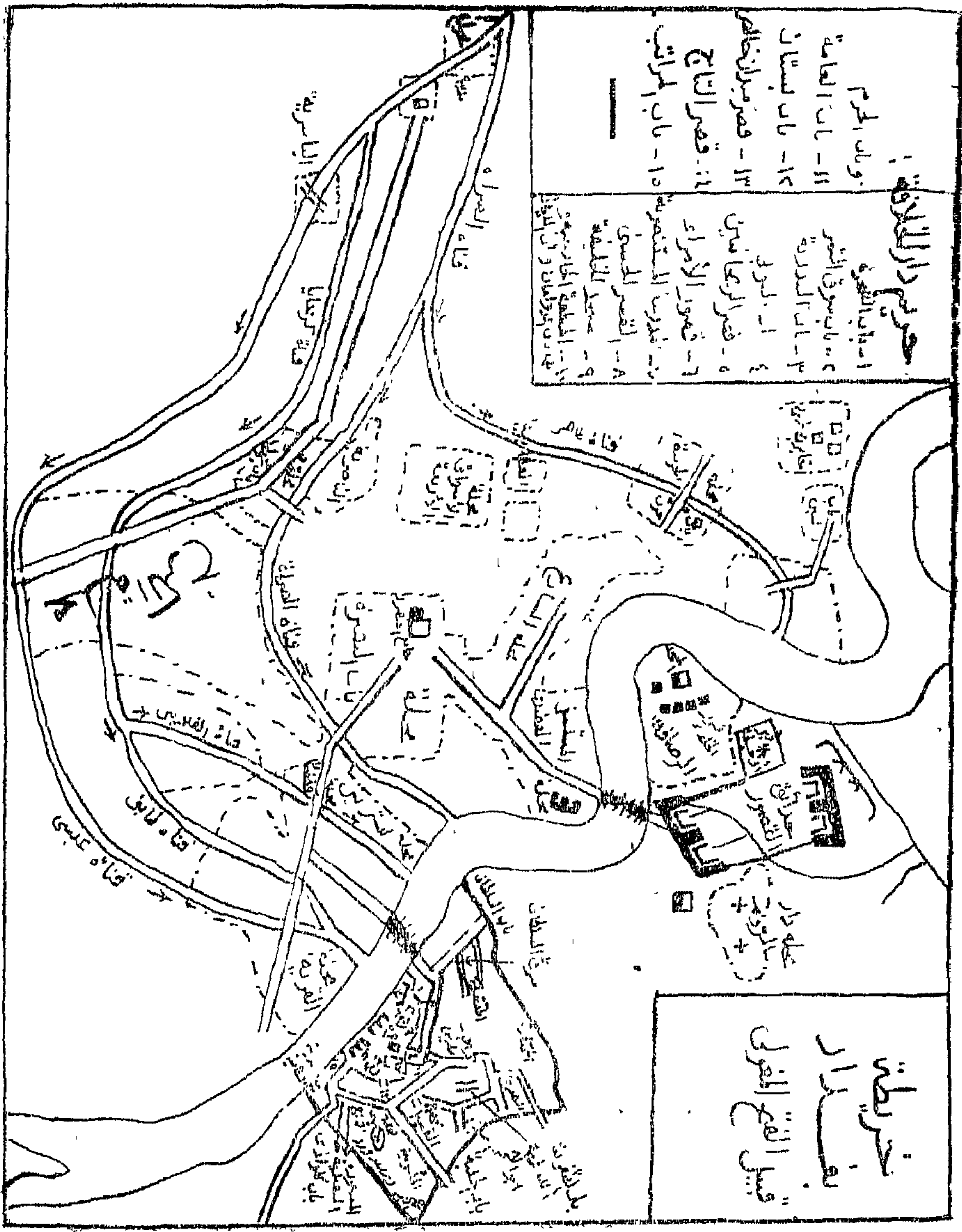
(١) ابن الأثير ، ج ١٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٩٦ .

حريم دار الخلافة

- 1- باب السور
- 2- باب السور
- 3- باب السور
- 4- باب السور
- 5- باب السور
- 6- باب السور
- 7- باب السور
- 8- باب السور
- 9- باب السور
- 10- باب السور
- 11- باب السور
- 12- باب السور
- 13- باب السور
- 14- باب السور
- 15- باب السور

خريطة بغداد قيل الفتح العنلى



الى الجنوب من مكانه الاصلى . وكان حريم دار الخلافة فى ايام ياقوت يشمل ثلث بغداد الشرقية الجديدة تقريبا كما كان له سور يتحيز به ابتداءً من دجلة وانتهاءً اليها كهيئة نصف دائرة ، وله عدة أبواب : اولها من جهة الغرب باب الغربية وهو قرب دجلة ، ثم باب سوق التمر وهو باب شاهق البناء أغلق فى أول أيام الخليفة الناصر لدين الله ابن المستضى ، ثم باب البدرية وعنده باب العتيقة التى تقبلها الرسل والملوك اذا قدموا بغداد ، ثم باب العامة وهو باب عمورية ايضا ، ثم يمتد قرابة ميل ليس فيه باب الا باب بستان قرب المنظرة التى تنحدر تحتها الضحايا ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو غلوتى سهم فى ترقى الحريم (١) ولم نعلم بعد ذلك أنه لحق به تغيير كبير .

أما محلات العامة التى كانت توجد خارج سور حريم دار الخلافة - والتى سبق أن ذكرنا منها المأمونية وباب الأزج والريان ومسعودة والمقتدية وقراح ابن رزين وقراح أبى الشحم وقراح القاضى وقراح ظفر والمختارة - فقد لحقها كثير من التلف بسبب فيضان دجلة سنة ٥٥٤ هـ ثم فى سنة ٦١٤ هـ ولكنها رغم ذلك ظلت عامرة . وقد ذكر ياقوت أن محلة الريان كانت من أعمار المحلات (٢) ، كما ذكر أن المحلات الأربع التى كانت تسمى قراح ابن رزين وظفر والقاضى وأبى الشحم كانت لا تزال موجودة فى أيامه ولو أنها كانت منفصلة عن بعضها البعض ، وأن أبنيتها كانت جيدة وأنها كانت عامرة ومتسعة وفى كل منها مساجد وأسواق ودروب

(١) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٤٧ .

كثيرة ، كما ذكر أن محلة أخرى هي محلة العجم كانت موجودة وأنها كانت أشبه بقرية قائمة بنفسها (١) .

ويجب ألا ننسى أن حريم دار الخلافة ومحلات العامة التي كانت في شرقها كانت جميعها داخل سور كبير بناه الحليفة المستظهر سنة ٤٨٨ هـ ثم أصلحه وأعاد بناءه الحليفة المستضيء سنة ٥٦٠ هـ . وكانت تتخلل هذا السور ابواب اربعة هي : باب السلطان في الشمال وباب الظفريه وباب الحلبة في الشرق وباب البصلية الذي ينسب الى محلة البصلية في الجنوب ويسميه ياقوت باب كلواذى . وكانت على هذا السور ابراج قائمة للدفاع عن بغداد ، منها برج العجم الذي اشتهر أثناء الحصار المغولي لبغداد وكان يقع عند تلاقي السور الشرقي بالسور الجنوبي (٢) .

وكان يلي بغداد الشرقية الجنوبية في الأهمية بغداد الغربية ، وكان معظم محلاتها القديمة لا تزال عامرة ، وان كانت قد ضاقت رقعتها وتلاشت بعض محلاتها . ومن محلاتها العامرة في ذلك الوقت محلة الحربية وكانت في الشمال منفصلة عن غيرها من المحلات يحيط بها فضاء واسع من الخرائب والأتربة . وقد ذكر ياقوت أن الكثير منها كان قد تخرب في أيامه وأنها أصبحت حول باب حرب فقط ، كما ذكر أنه كان يحيط بها سورها الخاص وكان لها مسجدها الجامع وأسواقها الكثيرة العامرة (٣) . وإلى الجنوب من محلة الحربية كانت توجد محلة باب البصرة وكان بها جامع

(١) المصدر نفسه ، ج ٧ ، ص ٤١ .

و Le Strange, pp. 284-293.

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٠ ورحلة ابن جبير ، ص ٣٢١ .

و Le Strange, pp. 278-81.

(٣) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

المنصور لا بحالته الأولى التي كان عليها حين بناء المنصور بل بعد أن لحقت به تغيرات كثيرة ؛ إذ هدمه الرشيد وبناه من الآجر كما أن الخليفة المعتضد وسعه بإضافة جزء من قصر الذهب اليه . وكانت محلة باب البصرة هذه مركزا لأهل السنة . وعلى بعد نصف ميل من محلة باب البصرة كانت توجد محلة الكرخ ، وكانت مركز الشيعة كما أنها كانت قد تقلصت عما كانت عليه فيما مضى (١) . وكانت - حين كتب ياقوت كتابه - أهم محلات بغداد الغربية محلة القرية التي كانت محتفظة بمسجدها الجامع وأسوارها (٢) . وكانت بجانب هذه المحلات الكبيرة محلات أخرى أقل منها أهمية مثل محلة باب المحول التي كانت توجد الى الجنوب الغربي من الكرخ وأصبحت في أيام ياقوت منفردة كالقرية المنفصلة ذات جامع وسوق مستغنية بنفسها (٣) . ومحلات دار القز والناصرية والعنابية وكانت توجد الى الجنوب الغربي من محلة الحربية وسط خرائب واسعة . ومحلة الكاظمية وكانت توجد في أقصى الشمال من بغداد الغربية حول قبر الامام موسى الكاظم (٤) .

وكانت بغداد الغربية قبيل حصار هولاكو لها تتصل ببغداد الشرقية الجنوبية بجسرين . وقد ذكر صاحب الفخرى أن الخليفة الظاهر أعاد في سنة ٦٢٢ هـ جسرا كان فيضان دجلة قد أزاله (٥) كما ذكر ابن العبري أن الظاهر بن الناصر عقد لبغداد جسرا ثانيا عظيما جديدا وأنفق عليه مالا كثيرا فصار في بغداد على دجلتها جسران (٦) . وسواء

(١) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٤) Le Strange, pp. 126-137, 162, 334, 337.

(٥) الفخرى ، ص ٢٤٢ .

(٦) ابن العبري ، ص ٤٢٣ .

أكان الظاهر قد عقد جسرا جديدا على ما ذكره ابن العبري أو أنه أعاد جسرا قديما كان قد أزاله فيضان دجلة على ما ذكره صاحب الفخرى ، فان بغداد الغربية والشرقية كانتا تتصلان بجسرين *

ولم تكن بغداد الشرقية القديمة او بغداد الرصافة ذات أهمية كبيرة في ذلك الوقت، ولم يكن باقيا منها الا المحلة التي كانت قد نشأت حول قبر أبي حنيفة ، كما كان الى الجنوب منها مسجد الرصافة وحوله قبور الخلفاء العباسيين ، كما كانت الى الشرق منها محلة دار الروم التي كان يقيم بها النصاري الذين يعتنقون المذهب النسطوري (١) *

(٢) حكم المستعصم ببغداد

(أ) أخلاقه وصفاته : تولى المستعصم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٠ هـ وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاما وثمانية أشهر وأياما * وقد ذكر المؤرخون أنه كان تقيا ورعا متمسكا بمذهب أهل السنة والجماعة على ما كان عليه والده وجده (٢) كما ذكرنا أمثلة تبين رفته ولطف حسه ، منها عدم سيره على طريقة من سبقه من الخلفاء في حبس أولادهم مدة خلافتهم ، ومنها أنه دخل خزانة الكتب ووجد خويديما نائما فانسحب وأمر بإيقاظه برفق وهو بعيد حتى لا يذعر (٣) * ولكنهم في الوقت نفسه لم يرضوا علينا باظهار صفاته السيئة التي لا تؤهله للحكم والتي تنذر بفشله المريع في ادارة شئون البلاد * ومما ذكره في هذا الصدد

Le Strange, p. 338.

(١)

(٢) ابن شاکر - فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ *

(٣) الفخرى ، ص ٢٤٥ *

أنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك عديم اليقظة كثير الغفلة قليل البطش، محبا للهو يقضى أكثر أوقاته في سماع الأغاني والتفرج على المساخر (١) . هذا الى أنه كان بخيلا لدرجة الشح ، يدل على ذلك أن الملك الناصر داود صاحب الكرك على أثر نزاع بينه وبين الناصر يوسف صاحب حلب ترك بلده وذهب الى الخليفة المستعصم ليستعين به في مصيبتة فأودع لديه وديعة من الجواهر تبلغ قيمتها ما ينيف على مائة ألف دينار (٢) على أمل استردادها عند تحسن الأحوال ، ولما تحسن حاله وطلبها من الخليفة أخذ يماطله ، ولما ألح عليه « أرسل من حاسبه على ما وصله في ترداده الى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والخطب والعليف والتبن وغير ذلك ، وثن عليه ذلك بأغلى الأثمان وأرسل اليه شيئا نورا ، وألزمه أن يكتب بخطه بقبض وديعته وأنه ما بقي يستحق عند الخليفة شيئا . فكتب خطه بذلك كرها وسار عن بغداد » (٣) .

وقد انتقد صاحب فوات الوفيات الخليفة المستعصم فقال : « ولو لم يكن فيه الا ما فعله مع الملك الناصر داود في أمر الوديعة لكفاه عارا وشنارا . والله لو كان الناصر من بعض الشعراء وقد قصده وتردد عليه على بعد المسافة ومدحه بعدة قصائد، كان يتعين عليه أن ينعم عليه بقريب من قيمة وديعته من ماله ، فقد كان من أجداد المستعصم بالله من استفاد منه أحاد الشعراء أكثر من ذلك » (٤) .

(١) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٧٦ وابن شاكر - فوات الوفيات ، ج ١ ص ٢٣٧ والفخرى ، ص ٢٤٤ وابن العبري ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ والسيوطي تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ والديار بكري - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) المقرئ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ص ٢٣٧ - ٣٣٨ .

(٣) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٤) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

كما أن السيوطي رماه بالضعف وحقره كل التحقير فقال عند كلامه على الخليفة المستنصر : « وكان له (أي المستنصر) أخ يقال له الخفاجي فيه شهامة زائدة وكان يقول ، لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون وأخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم * فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفا منه وأقاما ابنه أيا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر ؛ ليقضى الله أمرا كان مفعولا من هلاك المسلمين في مدته وتغلب التتار » (١) * ولم ينس ابن طباطبا أن ينال منه كما نال منه غيره . بل وحاول أن يكون أوسع منهم خطى في هذا السبيل فانتقض من عمله ما يشتم منه البعض فائدة ما وذلك في قوله : « وكان يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة » (٢) * ولكنهم جميعا كانوا سطحيين في نقدهم ، ولم يهتم صاحب فوات الوفيات بغير الناحية الخلقية التي يتجه اليها مؤرخو العرب دائما في كلامهم *

(ب) الحالة الداخلية في عهده : ازدادت حالة العراق الداخلية في عهد المستعصم سوءا ؛ بسبب ضعف الخليفة وما اجتمع فيه من الصفات السيئة التي جرت عليه وعلى بغداد كثيرا من الويلات وانتهت بقتله والقضاء على نفوذ أسرته . فقد كانت قلة معرفة المستعصم بتدبير الملك وانصرافه عن إدارة شئون البلاد وضعف ارادته سببا في استخفاف أعوانه به وطمعهم فيه وعملهم على الاستئثار بالسلطة دونه ، ثم أدى ذلك الى تنازعهم فيما بينهم وانصرافهم عن شئون الحكم ومن هنا كان استهتار العامة بالحكومة وكثرة الفتن وتفشي

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ *

(٢) الفخرى ، ص ٢٤٤ *

القلق ببيغداد . كما أن بخله كان سببا في اضعاف الجيش .
وسنتناول فيما يلي شرح النزاع بين الرؤساء في بغداد في
أيام المستعصم ثم ضعف الجيش وبعد ذلك اضطراب الأمن
في بغداد .

١ - النزاع بين الرؤساء : عند موت الخليفة المستنصر

سنة ٦٤٠ هـ ، اتفق الدفتردار الصغيرة أيبك وكان رجلا كبير
المطامع مع الشرايبي على اختيار ابنه أبي أحمد بدلا منه ، وذلك
لما يعرفه فيه من الضعف والانصراف الى اللهو وحتى تتهيا له
الفرصة لتوسيع سلطته والاستئثار بتصريف الأمور . وقد
تمكن من تنفيذ رغبته هذه ، وتولى أبو أحمد الخلافة باسم
المستعصم . كما أبعد عمه الخفاجي عنها وكان رجلا قوى
الشكيمة (١) . وقد سارت الأمور كما يشتهي الدفتردار
سنتين استوزر فيهما المستعصم نصير الدين أحمد بن الناقد
وزير أبيه . فلما استوزر بعد ذلك مؤيد الدين محمد بن
العلقمي سنة ٦٤٢ هـ تغيرت الحال لأنه ترك لهذا الوزير
الأمور كلها يديرها كما يشاء (٢) كما أن هذا كان كبير
المطامع فتدخل في كل صغيرة وكبيرة وتعرضت بذلك سلطة
الدفتردار للضياع .

غضب الدفتردار لسلطته المهددة وبدأ التنافس يشتد
بينه وبين الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي . ولما كان
الخليفة يحب وزيره فقد رأى الدفتردار أن خير طريقة
لابعاد الوزير هي الارهاب ، وقد سلك لهذا الغرض طريقا
غير شريف فجمع حوله كثيرا من العيارين وأخذ يهدد الأمن ،
ولما أعيته الحيل أخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة واقامة

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٥ .

(٢) الفخرى ، ص ٢٤٧ .

آخر مكانه • أما الوزير ، فقد كان يقظا لم تفتته أعمال الدفتردار وحاول أن يقضى عليها ، فأعلم الخليفة بها وطلب منه أن يقضى على مدبريها ، وهكذا صرنا نرى الاثنين يواجه كل منهما الآخر •

وقد كان النجاح حليف الدفتردار لأن الخليفة خاف من مؤامراته ودخل الرعب الى قلبه حين رأى أتباعه الكثيرين من العيارين • ولذلك استدعاه اليه وأخبره بما نقله اليه الوزير وأكد له أن ثقته منوطة به ، وأنه لا يسمع ما يقال عنه • ولم يفعل ذلك فحسب بل عندما رأى الدفتردار بعد ذلك يعاود خطته الأولى ويجمع أعوانه ويستعد لمهاجمته كتب بيده اقرارا ذكر فيه أنه يعتقد أن كل ما قيل عنه من قبيل المكائد والأكاذيب وأن ثقته فيه تامة كما أعطاه أمانا تاما ثم أحضره اليه وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة وتخلي عن الوزير ابن العلقمي (١) •

ويلاحظ أن الخلاف بين الوزير والدفتردار قد جر البلاء العظيم على بغداد ، وذلك لأن الدفتردار عندما كان ذى اول الأمر بعيدا عن الخليفة كان يجمع حوله العيارين الذين يعيشون فيها فسادا والذين نشروا الفوضى في ربوعها حتى مل أهلها حكومة العباسيين (٢) • كما أنه بعد أن أصبح الأمر له وقربه الخليفة اليه واستراح أهل بغداد من شر العيارين الذين كانوا يدبرون المؤامرات ويزعزعون الأمن حنق الوزير مؤيد الدين محمد بن العقلمى لفقد سلطته وانتصار منافسه عليه وأصبح يتحين الفرص لاسترداد

Quatremere (Trad.), Histoire des Mongols, pp. 227-229.

(١)

Quatremere, p. 229.

(٢)

سلطته أو الثأر لنفسه ، فلما هاجم المغول بغداد لم يخلص في الدفاع عنها . . .

٢ - ضعف الجيش : لم يكن الجيش العباسي في أيام الخلفاء العباسيين المتأخرين قويا بمعنى الكلمة . وقد رأينا كيف أن الخلافة في أيام الخليفة الناصر لم تعتمد عليه في القضاء على سلاجقة فارس ، كما أنه لم يتمكن من الوقوف أمام الجيوش الخوارزمية في أيام الناصر والمستنصر . ولكنه كان على كل حال قوة ثانوية وانتصر انتصارات لا بأس بها فقضى على بعض الخارجين في الداخل ، كما انتصر في خوزستان على جيوش خوارزمية صغيرة وصد غارات مغولية متعددة .

وفي أوائل حكم الخليفة المستعصم ظل الجيش العباسي على حاله هذه وانتصر في سنة ٦٤٣هـ على المغول عند بعقوبا من أعمال بغداد (١) . ولكنه بعد ذلك أخذ في الضعف شيئا فشيئا . ويرجع هذا الضعف الى أسباب متعددة منها أن المستعصم كان بخيلا جدا محبا لجمع المال فلم ينفق على الجيش اللازم . وقد وبخه على عمله هذا عدوه هولاء بعد أن وقع في يده ، فقد ذكروا أنه عندما استحوذ على ما كان لديه من الكنوز ، أمر بأن يقدم للخليفة من هذه الكنوز طعام ولما قال له الخليفة ان الكنوز لا تزيل جوعا ، رد عليه بقوله : « اذا كانت الكنوز لا تسد الرمق واذا كانت لا تحفظ الحياة فلماذا لم تعطها لجنودك ليحموك أو الى جنودي ليسالموك » (٢) . أضف الى ذلك أن مؤيد الدين بن العلقمي

(١) الديار بكرى ج ٢ ، ص ٤١٥ وأبو الفدا ج ٣ ، ص ١٨٢ .

(٢) Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 400.

(٢)

بعد أن رأى نفوذه قد ولى وأن الخليفة مال الى أيبك الدفتردار الصغير دونه وأن هولاءكو مقبل على بغداد بجيشه المظفر، اخذ يفكر فى عمل شىء يستدر به عطف الفاتح فأمر بتسريح جيش الخلافة . وسواء أكان ذلك قد تم بعد ان أقنع ابن العلقمي الخليفة بأن الأمراء المسلمين التابعين له كثيرون وأنهم اذا ما حلق الخطر بالبلاد مستعدون للدفاع عنها بجيوشهم (١) أم بعد أن أقنعه بأن الجيش يتكلف كثيرا من المال وان الأفضل أن يسترضى المغول بالمال المتوافر من تسريحه (٢) ، فان جيش الخلافة بعد أن كان فى أواخر أيام المستنصر وأول أيام المستعصم يبلغ مائة ألف فارس ، صار دون العشرين ألفا (٣) .

٣ - اضطراب الأمن فى بغداد : « جعلت المنازعات بين الأحناف والحنابلة الذين كانوا مصدر اضطراب لبغداد ، وبين أهل السنة والشيعة الذين كانوا يسكنون ضاحية الكرخ الغربية ، ومعظم المعارك بين الرعاع والطبقات الغنية - حياة المستعصم عبئا ثقيلا » (٤) .

أما المعارك بين أهل السنة والشيعة ، فقد كانت لا تنقطع قبل أيام المستعصم لما بين الفريقين من حزازات واحن كانت تنفجر لأوهى الأسباب ، غير أنها كثرت كثرة مزعجة فى أيام المستعصم . وقد تكون الفتنة التى وقعت بين الفريقين سنة ٦٥٥ هـ من أهم هذه المعارك ؛ لأنها امتازت عما عداها بتدخل عسكر الخليفة فيها وانتصاره لأهل السنة . وقد ذكروا أن

(١) Howorth, Vol. 1, p. 197.

(٢) أبو الفدا ج ٣ ، ص ٢٠٢ والديار بكرى ج ٢ ، ص ٤٢٠ وابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) أبو الفدا - المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396.

أبا بكر ابن الخليفة وركن الدين الدويدار أمرا العسكر فنهبوا الكرخ وهاكوا أعراض النساء وركبوا منهن الفواحش وقتلوا كثيرا من الرجال (١) ، أضف الى ذلك أن هذه الفتنة كانت السبب المباشر الذى جعل الشيعة يقفون موقف العداء للعباسيين عندما هاجم المغول بغداد على ما سنرى .

ولم تكن المنازعات الطائفية هى وحدها السبب فى اضطراب الأمن فى بغداد ، بل ان المنافسة بين الرؤساء كانت فى وقت من الاوقات من أكبر العوامل التى ادت الى هذا الاضطراب ، وذلك حين كان أعوان الدفتردار الصغير من العيارين يهاجمون الأبرياء ويقبضون عليهم ويملاون جو بغداد بفظائعهم وحشة ورهبة ، وقد بلغ من أمرهم ان الخليفة المستعصم فزع منهم وأمر فخر الدين الدامغانى رئيس الادارة باتخاذ ما يلزم للقضاء عليهم (٢) . ولم يكن ارضاء الدفتردار طبعاً بتقريبه الى الخليفة قاضيا على مشاغباتهم مرة واحدة بل لابد أنهم وقد تشبعوا بروح الفوضى مدة من الزمن كانوا يهددون الأمن بين حين وآخر .

(ج) الحالة الخارجية : ظلت الخلافة فى عهد الخليفة المستعصم محتفظة بما كان لها من علاقات طيبة مع الدول الاسلامية وبما كان لها فى نفوس المسلمين من احترام وقديسية . غير أنه وقد ضاقت رقعة العالم الاسلامى بعد زوال دولة السلاجقة فى فارس والدولة الخوارزمية كما سبق أن ذكرنا ، انحصرت علاقات الخلافة وأصبحنا لا نكاد نعثر فى ثنايا الكتب على غير ما كان بين الخليفة المستعصم

(١) أبو الفدا ح ٣ ، ص ٢٠٢ والديار بكري ، ح ٢ ، ص ٤٢٠ ، وتاريخ ابن خلدون ح ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٢)

Quatremere, pp. 227-229.

والأيوبيين ثم ما كان بينه وبين المماليك الذين خلفوهم على
عرش مصر من علاقات . هذا وسنتناول فيما يلي الكلام عن
حالة العالم الاسلامي في الفترة ما بين سنتي ٦٤٠ هـ و ٦٥٦ هـ
ثم بعد ذلك نبين علاقات الخلافة بالأيوبيين ثم بالمماليك .

١ - العالم الاسلامي : طرأ على العالم الاسلامي في تلك
الفترة كثير من الأحداث وجرت به كثير من التغيرات أدت
جميعها الى اضعافه وفل شوكته ، واننا لا نكاد نعر على دولة
من بين دوله قوية الجانب نافذة السلطان بل اننا لا نكاد نجد
واحدة من بين هذه الدول لا يتغلغل فيها النفوذ المغولي
ولا يخيفها شبح المغول .

(أ) مصر : كان الحكم في مصر في ذلك الوقت
للأيوبيين أولاً ثم بعد ذلك للمماليك ، أي أن نظامه لم يكن
مستقراً . وقد حكم من الأيوبيين نجم الدين أيوب من سنة
٦٣٧ هـ حتى سنة ٦٤٧ هـ وكان قوى الشكيمة تمكن من
الاحتفاظ بمركزه في مصر والشام ، على الرغم من أن
الفرنجة هاجموا مصر في آخر أيامه . وبعد موته استدعى
المماليك البحرية - الذين كان الصالح نجم الدين قد استكثر
منهم في جيشه - ابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن
كيفا ؛ ليخلف أباه وليقف أمام الفرنجة (١) .

على أن حكم الملك المعظم توران شاه لم يطل ، لأنه بعد أن
انتصر على الفرنجة أخذ يعتدى على المماليك البحرية فأوجسوا
منه خيفة وقتلوه سنة ٦٤٨ هـ ثم ولوا شجرة الدر (٢) حكم

(١) المقريزي - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٥١ وابن العبري ،
ص ٤٥٢ - ٤٥٥ .

و Lane-Poole, The Muhammadan, Dynasties, pp. 77-78.

(٢) ذكرها المقريزي في أكثر من موضع شجر الدر ، ولم يذكرها شجرة الدر على
ما هو مشهور .

البلاد - وكانت أرملة الصالح أيوب - كما نجعلوا عز الدين
أيبك التركمانى مقدم العسكر ، وبذلك انتهى عهد الأيوبيين
فى مصر (١) .

بدأ عهد المماليك فى مصر منذ قتل الملك المعظم على أن
الأمور لم تستقر لهم فيها الا بعد مدة طويلة . وكانت المدة
الباقية من الفترة التى نتكلم عنها - أى من سنة ٦٤٨ هـ حتى
سنة ٦٥٦ هـ - تسودها الاضطرابات والفتن ، فقد تزوج أيبك
التركمانى من شجرة الدر فى ١٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ
ثم خلعت شجرة الدر من الملك بعد أن حكمت نحو ثمانين
يوماً ، وأصبح عز الدين أيبك التركمانى فى الملك ولقب
بالمعز فى آخر شهر ربيع الآخر . وبعد ذلك أشرك
المماليك مع الملك المعز أحد أفراد أسرة بنى أيوب وهو الملك
الأشرف موسى ابن الملك الناصر يوسف ؛ حتى يجتمع الكل على
طاعته ويطيعه الملوك من أهله وذلك فى ٣ جمادى الأولى سنة
٦٤٨ هـ . كما أن المماليك فى يوم ٦ جمادى الأولى نادوا فى
القاهرة بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك
المعز نائبه بها . وبعد ذلك صار الأمر للملك المعز والأشرف
ثانية . ثم فى سنة ٦٥٠ هـ أزيل اسم الملك الأشرف موسى من
الخطبة وانفرد الملك المعز باسم السلطنة . وفى سنة ٦٥٥ هـ ،
قتل الملك المعز بتدبير شجرة الدر وتولى بعده ابنه الملك المنصور
نور الدين على وعمره خمس عشرة سنة تقريباً وظل فى الملك
سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام حتى قبض عليه الأمير
سيف الدين قطز يوم السبت ١٤ من ذى القعدة سنة
٦٥٧ . وقصارى القول ، إن هذه الفترة كانت فترة

(١) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٥١ - ٣٦٢ .

(٢) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٦٩ - ٤١٧ .

مضطربة لا يتوافر فيها شيء من الاستقرار وتتوالى فيها الحوادث سراعا .

(ب) بلاد الشام : تمكن الأيوبيون في هذه الفترة من الاحتفاظ بنفوذهم في الشام ، ذلك أن الناصر صلاح الدين يوسف الذي أصبح صاحب حلب منذ سنة ٦٣٤ هـ بعد أن قتل المماليك البخارية الملك المعظم تورانشاه في مصر سنة ٦٤٨ هـ - استولى على دمشق في نفس السنة ، ثم حاول بعد ذلك عدة مرات أن يستولى على مصر ولكن جيوش المماليك صدته . على أن قوة الناصر يوسف لم تكن كبيرة ، كما أنه كان يهاب المغول ، يدلنا على ذلك ما ذكره المقرئى عند كلامه على سنة ٦٤٨ هـ حيث قال : « وفيها وصل الى الملك الناصر من قبل القان ملك التتر طمغا (براءة) صورة أمان فصار يحملها في حياصته (حزامه) وسير الى القان هدايا كثيرة » (١) . أضف الى ذلك ما كان من ارساله ابنه الملك العزيز الى هولاكو سنة ٦٥٦ هـ ومعه الهدايا وطلب منه نجدة ضد المماليك (٢) .

(ج) آسيا الصغرى : سبق أن ذكرنا أن المغول هزموا غياث الدين كيخسرو سلطان الروم السلاجقة سنة ٦٤٠ هـ واضطروه الى دفع جزية سنوية . وقد مات غياث الدين سنة ٦٤٣ هـ وخلفه على العرش ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس الثانى وبدأت بذلك فترة كلها منازعات واضطرابات زادت في ضعف دولة الروم السلاجقة وخضوعها للمغول . ذلك أن غياث الدين كان له ولدان آخران غير عز الدين أحدهما

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ، ص ٣٧٠ - ٤١١ وابن العبري ، ص ٤٥٦ و ٤٠٢ -

علاء الدين والثاني ركن الدين لم يرضيا بانفراد عز الدين بالسلطة دونهما . وكان أول الخارجين على عز الدين أخوه ركن الدين الذي سار الى الخان المغولي كيوك وطلب معونته وكان من أثر ذلك أن اقتسم البلاد مع عز الدين . على أن الأمر لم يستقر بذلك وتجدد النزاع بين الأخوين وانتصر عز الدين على ركن الدين وأسره وحبسه . وقد كان من المصادفات أن وصل في ذلك الوقت القائد المغولي بيجونويان الى آسيا الصغرى بأمر الخان مانجو ليقوم بأعمال الفتح والتوسع ، فطلب من عز الدين أن يقدم له ولجنوده مشتي (سنة ٦٥٤ هـ) . ولما لم يجب عز الدين القائد المغولي الى طلبه قامت الحرب بينهما وانتهت بهزيمة عز الدين وفراره الى الامبراطور البيزنطي الاشكري Theodore II Lascaris في نيقية فأخرج بيجونويان ركن الدين من سجنه وولاه السلطنة في نفس هذه السنة (٦٥٤ هـ) . وقد تبع ذلك رحيل المغول عن البلاد ورجوع عز الدين الى قونية وقيام النزاع بين الأخوين مدة خربت فيها بلاد سلطنة الروم ، ولم ينته الا في سنة ٦٥٦ هـ ، حين اتفق الأخوان على جعل نهر قزل ارمق حدا فاصلا بين أملاكهما . على أن عز الدين وأخاه أرادا أن يعطيا هذا الاتفاق صفة عملية ؛ فذهبا الى هولاءكو وهو بهمدان بعد أن ترك بغداد بقليل وحصلا على موافقته (١) .

(د) بلاد الجزيرة : لم يكن في بلاد الجزيرة في ذلك الوقت (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) قوة اسلامية كبيرة فقد زال الفرع

(١) ابن العبري ، ص ٤٤٦ - ٤٦٨ .

Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, p. 155. و

Cambridge Medieval History Vol. IV, pp. 503-510. و

Encyc Of Islam Arts, Kaika'us II, Kilig Arslan IV. و

الأيوبي الذي كان فيها سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥م) حين قضى المغول على مظفر الدين غازي ، كما أن قوة مظفر الدين كوكبرى صاحب أربل انتهت بموته سنة ٦٣٠ هـ وأصبحت أربل من بعده خاضعة لنواب الخليفة العباسي . ولم يبق هناك إلا أتابكية الموصل التي كانت قد آلت الى بدر الدين لؤلؤ خادم أسرة زنكي ووزير عدة أفراد منها بعد موت ناصر الدين محمود بن القاهرة بن نور الدين ووصول التقليد بولايته اياها من الخليفة سنة ٦٣١ هـ ، وظل بدر الدين لؤلؤ صاحب الأمر في الموصل طوال خلافة المستعصم لا يشاركه في ذلك انسان بل انه ملك جزيرة ابن عمر التي كانت تقع على دجلة شمالي الموصل من صاحبها الملك مسعود ابن الملك المعظم من سلالة أتابك زنكي وأمر باغراقه . على أن ذلك ليس معناه أن قوة بدر الدين لؤلؤ بلغت الذروة ، اذ انه كان يخاف المغول ويهابهم حتى اننا نراه يرسل ابنه اسماعيل بالهدايا الى هولاء وهو بهمدان على أثر انتهائه من فتح بغداد ثم يذهب بنفسه بعد ذلك ليقدم له الخضوع (١) .

(هـ) الاسماعيلية : لم يكن « الاسماعيلية » أحسن حالا من غيرهم من المسلمين ، ذلك أنه بعد موت رئيسهم جلال الدين حسن سنة ٦١٨ هـ ترك خلفه علاء الدين محمد (٦١٨ - ٦٥٣ هـ) سياسة الرجوع الى أحكام الاسلام ومصادقة المسلمين وسار تبعا لعقائد الاسماعيلية التي تبيح التمتع بالملذات والبعد عن أحكام الاسلام . هذا الا أنه أصيب بمرض عقلي وأصبحت أوامره ونواهيه بعيدة عن جادة الصواب واضطربت شئون طائفته واعتلت ادارة حكومته حتى كثر اللصوص في أملاكه . وبعد موته سنة ٦٥٣ هـ خلفه ابنه ركن الدين

(١) المقرئى ج ١ ، ص ٢٤٧ وابن العبري ، ص ٤٣٥ و ٤٥٦ و ٤٨٢ .

و Lane-Poole, The Muhammadan Dynasties, pp. 77, 162-163

خورشاه الذى يقال انه حرض على قتل أبيه فسار سيرة سيئة وارتكب كثيرا من المظالم ونزع الى الاستبداد وانتهى أمره بقضاء المغول عليه وعلى طائفته سنة ٦٥٥ هـ (١) .

٢ - علاقة الدول الإسلامية بالخلافة

فى أيام المستعصم

تكاد العلاقات بين الخلافة العباسية فى أيام المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وبين العالم الاسلامى تنحصر فيما كان بينه وبين أمراء بنى أيوب فى مصر والشام ثم بينه وبين المماليك فى مصر بعد زوال سلطان الأيوبيين منها بقتل الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ . وليس العيب فى هذا راجعا الى الخليفة المستعصم ، بل اننى لا أستبعد أن يكون هذا الخليفة قد فكر فى السير على طريقة الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ = ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ومالت نفسه الى نشر نفوذ الخلافة على العالم الاسلامى ولكن الظروف لم تساعد على تنفيذ فكرته . اذ كان الاسماعيليه قد عادوا الى معاداة العالم الاسلامى كما كانت الأمور فى دولة الروم السلاجقة تتحرك بالأصابع المغولية وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل لا يجرؤ على السير فى طريق غير طريق المغول .

ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد تعلق - حين رأى المغول يغيرون على بلاده مرة بعد أخرى ويصبحون المحركين للأمور فى دولة الروم السلاجقة - بأخر خيط من خيوط النجاة وأراد أن يحافظ على الحكومات الإسلامية التى كانت فى مصر والشام ؛ حتى تمد له يد المساعدة حين يشتد به الخطر

D'Ohsson, Tome III, pp. 174, 186-187.

(١)

Quatremere, p. 185.

المغولى ، كما لا يبعد أيضا أن يكون هذا هو السبب الذى من أجله نرى الخليفة يقوم بمحاولات عدة للتوفيق بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام من جهة ، وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم الملك المعز أيبك فى مصر من جهة أخرى .

فقد أرسل الخليفة المستعصم سنة ٦٤٦ هـ الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبى سعد البادرانى لعقد الصلح بين الملك الناصر يوسف - وكان فى ذلك الوقت صاحب حلب فقط - وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب على أثر استيلاء الناصر على حمص من صاحبها الأشرف ثم سير الصالح نجم الدين أيوب من مصر الى دمشق وارساله للجيش لمحاصرة حمص واستردادها من الملك الناصر ، ونجح الرسول فى مهمته وتقرر الصلح . كما أن الخليفة أرسل رسوله هذا سنة ٦٥٠ هـ الى مصر للاصلاح بين الملك المعز أيبك والملك الناصر يوسف ، وكان فى ذلك الوقت قد أصبح صاحب دمشق وحلب معا على أثر ما كان من سير الملك الناصر سنة ٦٤٨ هـ الى مصر ومعه كثير من أمراء بنى أيوب بغية الاستيلاء عليها وملاقاة الملك المعز له ثم انتصاره عليه واضطراره الى العودة الى بلاد الشام . وقد نجح الرسول أيضا فى تقرير الصلح بين الملكين سنة ٦٥١ هـ . وأرسل الخليفة الرسول نفسه مرة ثالثة سنة ٦٥٤ هـ لتجديد الصلح بين الملك الناصر والملك المعز على أثر ما كان من تسيير الناصر العساكر سنة ٦٥٣ هـ ومعهم بعض المماليك البحرية الذين كانوا قد تركوا مصر عندما قتل الملك المعز الأمير أقطاي خوفا من ازدياد نفوذه . سنة ٦٥٢ هـ ، ونجح الرسول أيضا كماداته فى عقد الصلح (١) .

(١) المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ و ٢٨٢ -

ويرجع نجاح الخليفة المستعصم في محاولته التوفيق بين مصر والشام في ذلك الوقت الى أن الأيوبيين سواء في مصر أو في الشام كانوا يسرون على طريقة من سبقوهم من حيث احترام الخليفة العباسي وتلقى الخلع منه . وهكذا كان يفعل المماليك حين أصبح لهم الأمر في مصر . فقد بعث الخليفة المستعصم سنة ٦٤٢ هـ جمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين ابن الجوزي الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه الخلع التي كانت تتكون من عمامة سوداء وفرجية مذهبة وثوبين من ذهب وسيف مذهب وطوق ذهب وعلمين من حرير وحصان فلبسها الملك نجم الدين أيوب (١) . كذلك بعث الخليفة المستعصم ابن الجوزي مرة أخرى الى الملك الصالح سنة ٦٤٣ هـ «ومعه التقليد والتشريف الأسود وهو عمامة سوداء وجبة وطوق ذهب وفرس بمركوب بحلية ذهب ، ونصب المنبر وصعد عليه الرسول وقرأ التقليد في الدهليز السلطاني والسلطان قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفة (٢) » ولم ينس الصالح أيوب ذلك للخليفة المستعصم ، فلما حضرته الوفاة سنة ٦٤٧ هـ لم يعهد الى أحد بالملك ، بل قال : « اذا مت لا تسلم البلاد الا للخليفة المستعصم بالله ليرى فيها رأيه » (٣) .

ولم يحد المماليك عن طريق احترام الخلافة العباسية والاحلاص لها في ذلك العهد ، فلما قتلوا الملك المعظم تورانشاه سنة ٦٤٨ هـ وتركوا جثته في المنصورة على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يدفنوه شفع فيه رسول الخليفة فقبلوا شفاعته ودفنوه (٤) . هذا الى أنهم عندما وضعوا على عرش

(١) المقرئ - السلوك ج ١ ، ص ٣١٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٦٠ .

مصر شجرة الدر بعد قتل الملك المعظم تورانشاه ولم يرض عن عملهم الخليفة المستعصم وأرسل اليهم كتابا ينكر عليهم فيه تعيين امرأة ويقول : « ان كانت الرجال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » ، تـ بلوا نصيحته وعزلوا شجرة الدر عن الحكم وعينوا عز الدين أيبك التركمانى فى الملك ولقبوه الملك المعز ، وذلك فى أواخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ (١) . ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ، بل انهم فى يوم الأحد ٦ جمادى الأولى نادوا فى القاهرة ومصر بأن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز أيبك نائبه بها (٢) . وفى سنة ٦٥٤هـ عندما أتم الشيخ نجم الدين البادرانى رسول الخليفة تجديد الصلح بين الملك المعز والملك الناصر يوسف صاحب الشام ، أرسل الملك المعز بصحبته الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا الى الخليفة ببغداد يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر (٣) .

على أن الخليفة المستعصم اذا كان قد نجح فى وضع نفسه فى موضع الحكم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك الصالح أيوب ثم بين الملك الناصر يوسف وبين الملك المعز أيبك ، وادا كان قد نجح أيضا فى الاحتفاظ للخلافة بالاحترام فى مصر والشام وجعل حكاهما يلتمسون خلع الخلافة وتقاليدها ، فان نجاحه لم يكن عظيما لأن الملك الناصر لم يكن شديد القوى كما أن المماليك لم يكونوا قد استقروا بعد فى الحكم على ما تقدم .

(١) المقرئى - السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٣٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٩٨ .

الفصل الثمانى

حملة هولاكو

١ - اعداد الحملة

رأينا فيما تقدم أن المغول فى أيام جنكيزخان وابنه أجمطاي وحفيده كيوك تمكنوا من نشر نفوذهم فيما وراء النهر وفى خوارزم وخراسان وفارس والعراق العجمى وأذربيجان وبلاد الكرج وأرمينية ، كما اعترف بسيادتهم سلطان الروم السلاجقة ووصل نفوذهم الى شمال الشام، ولم يبق خارجا عن دائرة نفوذهم فى غرب آسيا الا بلاد الاسماعيلية فى قوهستان والخلافة العباسية فى العراق العربى ، وسنرى فيما يلى أن المغول لم يتركوا تلك الجهات طويلا بل أوقعوا بها كما أوقعوا بغيرها عندما سنحت لهم الفرصة . ذلك أن مانجوخان بن تولى الذى ارتقى عرش الخانية سنة ١٢٥١م بعد أن وضع حدا للنزاع القائم بين بيتى جفطاي وأجمطاي (١) وبعد أن ثبت مركزه وقتل أحفاد أجمطاي الذين دبروا المؤامرة ضده (٢) ، أخذ يعيد المجد المغولى القديم ويحيى روح الحماس فى نفوس قومه فأعد

(١) Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 641.

(٢) ابن العبرى - تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٩ .

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

العدة لارسال حملتين حربيتين احدهما الى الصين والاخرى الى فارس (١) .

أما حملة فارس فهي التي تهمنا وقد أسندها مانجو الى أخيه هولاكو وعنى بها عناية فائقة وآية ذلك أنه خصص لها كثيرا من القوات المغولية المحاربة فوضع تحت تصرف هولاكو الجيش الذى كان قد أرسله الى ايران تحت قيادة بيجونويان Baigunoyan وجورماجون Gourmajoun والآخر الذى أرسله نحو كشمير وهندستان تحت قيادة طاير بهادور Tair Behadur ، كما أمده بألف من الرجال ذوى الخبرة فى ادارة آلات الحرب وقاذفات النفط الذين أحضرهم من بلاد الخطا لهذه الغاية . وكانت بعض هذه الآلات عبارة عن جاذبات أقواس ميكانيكية تدور بعجلات ويمكنها أن تجذب ثلاثة أقواس فى وقت واحد وكل قوس منها يرمى سهاما يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أو أربعة أذرع (١) . وكانت السهام مغطاة بريش الصقور والنسور ولها حافات قصبة قوية . وأمر مانجو فوق ذلك بأخذ اثنين من كل عشرة رجال من جنود جنكيزخان التى قسمت بين أبنائه وأخوته وأبناء أخوته لتكوين حرس خاص لهولاكو . ولم يهمل فى الوقت نفسه تموين الجيش فخصص لكل جندي ألف رطل من النبذ ومثل ذلك من اللبن الحامض الذى كان يحبه المغول وألف رطل من اللحم ، كما أنه لم ينس أن يسهل لهذه الجيوش مهمة السير وأرسل رسله الى البرارى والمراعى التى تمتد من قره

Howorth, Vol. I, p. 193.

(١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 452.

و

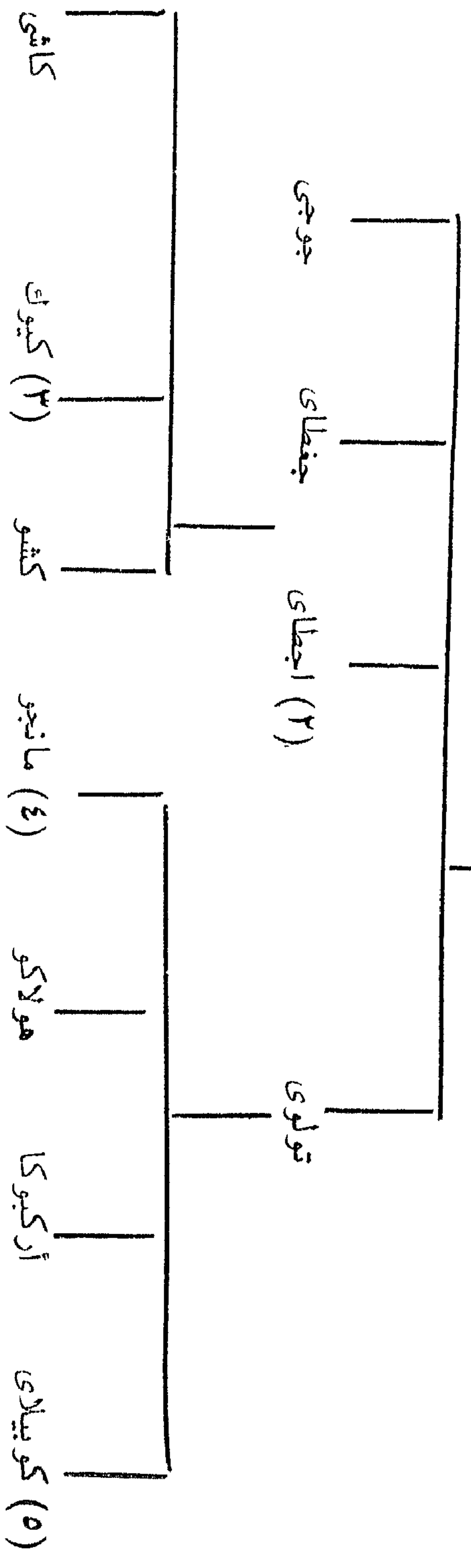
Cambridge Medieval History Vol. IV, p. 641.

و

(٢) الذراع مقياس يبلغ طوله ثلاثة أرباع الياردة .

سلسلہ نسب ہولاکو

(۱) جنکیز خان



قورم الى شاطيء جيحون والتي ستمر بها هذه الجيوش ليدعوا
أهلها الى تقديم المعونة لها أثناء سيرها ولينذروهم من
التعرض لها وليقيموا الجسور المتينة على الأنهار العميقة
ومجارى المياه السريعة التي تعترض طريق هذه الجيوش (١) .

وبعد أن أعد مانجو ما يلزم من الرجال والمؤن والذخيرة
لم ينس أن يضع لهولاءكو خطة العمل ويزوده بما يلزمه من
النصائح وقد كان مما قاله : « لاحظ فى كل خطواتك أعمال
جنكيزخان وعاداته وقوانينه جملة وتفصيلا . وعامل بالحسنى
واغمر بشواهد محبتك وعطفك كل من يخضع لك ويطيع
أوامرك ونواهيك من شواطىء جيحون حتى أطراف مملكة
مصر . أما اذا ثار عليك انسان أو عصاك فشنته فى
الصحراء هو وزوجته وأولاده وأسرته وجميع أقاربه واجعله
فريسة للشدة والذل . وعندما تبدأ بقوهستان خرب القلاع
والحصون واجعل أعالي كردكوه ولنيسير أسافلها ولا يهمنك
إبقاء أى حصن فى العالم أو أية بقعة من بقاع الأرض .
حتى اذا أتممت كل هذا فسر الى العراق واقض على ساداتها
وعلى من فيها من الأكراد الذين يقطعون الطرق بلصوصيتهم .
واذا قدم لك خليفة بغداد فروض الطاعة والخضوع فلا تأخذ
منه شيئا ، أما اذا تظاهر بالغرور واذا كانت أقواله ونواياه
تعوزها المودة فعامله كما تعامل أعدائك الآخرين » (٢) .

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

D'Ohsson, Tome III p. 137.

Howorth, Vol. II. p. 193.

Quatremere, pp. 129-137.

Richard Coke, Baghdad the City of peace, p. 137.

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 453.

D'Ohsson, Tome III, p. 136-137. Quatremere, p. 141.

(٢)

١ - قضاء هولاء على الاسماعيلية

كان ظهور طائفة الاسماعيلية على يد الحسن بن الصباح وكان اول مركز لها في الموت على ما ذكرنا . وقد كان قدوم جنكيزخان الى ما وراء النهر في أيام جلال الدين جد ركن الدين خورشاه الذي حكم من سنة ١٢١٠م حتى سنة ١٢٢٠م ، كما كان رسول جلال الدين هذا اول من قدم اليه فروض الطاعة بعد عبوره نهر سيحون (١) . بل ان الاسماعيلية ظلوا مدة طويلة في صفاء مع المغول ويفال انهم هم الذين دعوا جنكيزخان الى القضاء على جلال الدين خوارزمشاه بعد رجوعه من الهند لما لحقهم على يديه من العنت ، ولكنهم بعد ما رأوا مطامع المغول لا تقف عند حد وان فتوحهم مستمرة في الصين واوريا وخراسان والعراق العجمي وآسيا الصغرى خافوا خطرهم وعولوا على مناجزتهم وأخذوا يرسلون رسلهم الى أوربا سنة ١٢٣٨م يطلبون معونة ملوكها الذين عرفوهم ابان الحروب الصليبية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل انهم حاولوا عمل اتحاد من جميع الامارات المجاورة لهم لصد خطرهم المشترك (٢) .

ولا بد ان خطة الاسماعيلية هذه أغضبت المغول وكانت سببا في سوء معاملتهم لرسول شيخ الجبل الذي حضر مجلس انتخاب كيوك سنة ١٢٤٦م (٣) كما كانت أيضا سببا في تقرير المغول بعد ذلك في مجلس انتخاب مانجو ، ارسال حملة من ضمن اغراضها القضاء على الاسماعيلية هي حملة هولاء .

D'Ohsson Tome III, p. 174.

(١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 456.
Cambridge Medieval History, Vol. IV, 1. 638.

و

(٢)

(٣) ذكر ابن العبري ، ص ٤٥٠ أن كيوك صرف رسل الملاحدة مذلين مهانين سنة

٦٤٥ هـ .

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 451.

و

وقد جاء فى صبح الأعشى « وعلت كلمة منكوتان (يقصد مانجوخان) صاحب التخت ووصلت اليه كتب أهل قزوين وبلاد الجبل يشكون من سوء مجاورة الملاحدة وهم الاسماعيلية فجهز اليهم منكوتان أخاه مكوقان (لا بد أنها هولاكو خان لان بقية الكلام تدل على ذلك) لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم » (١)، أى انه يرجع ارسال هولاكو هذه الحملة الى طلب أهل قزوين وبلاد الجبال المعونة من المغول ضد الاسماعيلية .

وقد خرج هولاكو من قره قورم فى فبراير سنة ١٢٥٤م بعد أن أقام مانجو له ولجنوده الولائم ، وسار حتى وصل الى الملق ثم منها الى سمرقند فى سبتمبر سنة ١٢٥٥م . وبعدها سار فى برارى كنفول حيث قدم له مسعود بك حاكم ما وراء النهر وتركستان خيمة مطرزة بالذهب ووصل مدينة كش التى كانت تقع الى الجنوب الغربى من سمرقند فى يناير سنة ١٢٥٦م . وقد مكث فى هذه المدينة شهرا تقبل فيه فروض الطاعة والولاء من الأمير أرغون حاكم خراسان وغيره من الكبراء الذين جاءوا حاملين الهدايا من العراق وخراسان وأذربيجان وأران وشروان وبلاد الكرج والذين كان من بينهم السلطان عز الدين وركن الدين من بلاد الروم السلاجقة وسعد بن الأتابك مظفر الدين من فارس ، كما أنه وجه الرسائل الى ملوك ايران وسلاطينهم ، يدعوهم فيها الى مساعدته ويقول : « آتينا طبقا لأمر الخان الأعظم لندك حصون الاسماعيلية ونقضى على هذه الطائفة قضاء تاما ، فان حضرتم بأنفسكم أمامى وعضدتم مشروعى بتقديم الجند والذخيرة والآلات احتفظت لكم بما فى أيديكم من الولايات والجيوش والقصور ، أما ان أظهرتم على العكس من ذلك توانينا

(١) صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

واهمالا فى تنفيذ أوامرى سرت اليكم بعد اتمام مشروعى
بعون الله ولم أسمع منكم اعتذارا وعاملت حكوماتكم
وأملاكم كما لو كانت ملكا للكفار» (١) .

بقى أمام هولاکو أن يلاقى الاسماعيلية بعد أن اطمأن
الى عدم وجود أخطار وراءه ، وبعد أن اكتسب محالفة الأمراء
فيما وراء النهر وفارس . وقد عول على ذلك فعلا فعبر بقواته
نهر جيحون فى أول ذى الحجة سنة ٦٥٣ هـ (٢ يناير سنة
١٢٥٦ م) وسار نحو قوهستان . ولما كان قد أرسل من قبل
قائده قطبغا نويان بجيش عدده اثنا عشر ألفا فى خريف
سنة ١٢٥٢ م الى هذه الجهة ليمهد له السبيل ، ولما كان هذا قد
قام بواجبه خير قيام ، فان هولاکو لم يلق صعوبة كبيرة ولم
يبدل مجهودا شاقا فيها ، وكل ما يذكر له فتحه ساوه وخواف
حوالى آخر مارس سنة ١٢٥٦ م (٢) .

وقد ترك هولاکو قوهستان واتجه نحو بحر قزوين مارا
بالمنصورية وسهول راذكان ثم خبوشان التى كانت مخربة
منذ حملات المغول الأولى فأعاد بناءها ، ولم يحل يوم ١٠
شعبان سنة ٦٥٤ هـ الا وكان أمام أسوار خراكان وبستام (٣)
وأصبح عليه أن يفتح معاقل الاسماعيلية الحصينة .

لو أن هولاکو عزم على فتح هذه المعاقل بالقوة للمضى من
شجاعة الاسماعيلية وروح التضحية المتأصلة فيهم ما أتعبه

D'Ohsson, Toine III, pp. 137-138.

(١)

Howorth, Vol. I, p. 193.

و

Quatremere, p. 151.

و

Richard Coke, p. 137.

و

Browne, Literary Hist of Persia, Vol. II, p. 453.

و

Drowne, Lit. Hist. of Persia, Vol. II, p. 458.

(٢)

Quatremere, pp. 183, 184, ,

(٣)

وأقضى مضجعه وأطال حروبه وكبده الخسائر الكبيرة ، ولكنه
وقد كان بعيد النظر اتبع خطة أخرى وفرت عليه كثيرا من
الجهود وقربت له أمنيته ، تلك هي الاستفادة من جبن
ركن الدين خورشاه رئيس الاسماعيلية المقيم وقتذاك في
ميمون ديزه وادخال الرعب في قلبه حتى يسلم ثم استخدامه
في فتح معقل الاسماعيلية •

بدأ هولاکو بتنفيذ هذه الخطة وهو أمام اسوار بستان
فأرسل حاكم هراة مرکتاي Merketai ربه منكلمش Monkelmesh
وأوصاهما بتهديد خورشاه وأرهابه • ثم توالت المراسلات
بينهما مدة طويلة (١) • وأخيرا أرسل اليه هولاکو عطا ملك
الجوينى حتى اذا لم يصل الى نتيجة بدأت جيوشه في ضرب
المدينة ، وهنا آثرت خطته ثمرتها الأولى اذ خرج ركن الدين
خورشاه من ميمون ديزه في يوم ٢٩ شعبان ٦٥٤ هـ (١٩
نوفمبر ١٢٥٦ م) وقدم خضوعه لهولاکو واستولى المغول
بعد ذلك مباشرة على ميمون ديزه وخربوها ونهبوها
وأحرقوها (٢) • ثم أيضا يستغلون ركن الدين خورشاه
ويستفيدون من وجوده في أيديهم فعاملوه بالحسنى في اول
الأمر حتى أطاعهم ودعا مدن الاسماعيلية الى التسليم لهم •
وقد سلمت لهم نتيجة دعوته أكثر من خمسين قلعة (٣) أما

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٢ - ٤٦٤ •

Quatremere, p. 185.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 195-196. ,

(٢)

Browne, Vol, II, p. 458.

و

(٣) ابن العبرى ، ص ٤٦٤ •

D'Ohsson, Tome III, pp. 197-198.,

و

Howorth, Vol. I, p. 196.

و

ويلاحظ أن دوسون يذكر أن المدن التي سلمت للمغول أكثر من أربعين لا أكثر من

خمسین •

المدن التي أبت سماع دعوة خورشاه بالتسليم مثل الموت فقد فتحت بالقوة في ٣٠ ذى القعدة سنة ٦٥٤ هـ (٢٠ ديسمبر سنة ١٢٥٦ م) ، وحدث بعد ذلك أن أرسل هولاکو ركن الدين خورشاه الى قره قورم لمقابلة الخان الأعظم مانجو ولكن هذا الأخير لم يقابله وأمر بقتله وقتل جميع من بقى على قيد الحياة من أهل طائفته فقتل المغول على الاسماعيلية في ايران كقوة سياسية ؛ وان كان لا يزال لهم حتى الوقت الحاضر نسل في تلك البلاد (١) .

واذا كنا قد رأينا أن جبن ركن الدين خورشاه وسوء تدبيره كانا السبب في قضاء هولاکو على الاسماعيلية بهذه السهولة ، فيجب ألا يعزب عن بالنا عامل آخر لا يقل أثرا وهو الدور الذي قام به نصير الدين الطوسي الذي كان في الموت عندما دارت المحادثات بين هولاکو وركن الدين خورشاه . وقد أتى بهذا الرجل الى الموت نصير الدين حاكم قوهستان من قبل الاسماعيلية في أيام علاء الدين والد ركن الدين خورشاه وظل بها منذ ذلك الحين محترما مكرما (٢) . ولكن هذه الإقامة كانت على غير رغبة منه ؛ لذلك لم يخلص لحكامها وبلغ كرهه لها أشده في أيام ركن الدين خورشاه . ويتلخص الدور الذي قام به في أنه اتفق مع جماعة ممن كانوا يقيمون مثله في الموت على غير ولاء على تسليم الاقليم لهولاکو اذا استدعى الأمر (٢) . وقد خدمته الظروف اذ لم تضطره

(١) ابن العبري ، ص ٤٦٥ .

D'Ohsson, Toml III, pp. 101-102. ,

Browne, Vol. II, pp. 458-460.

D'Ohsson, Tome III, p. 256. ,

Browne, Vol. II, p. 456.

Quatremere, p. 185.

و

و

(٢)

و

(٣)

الى تدبير مؤامرة لتسليم البلاد ولم تظهر للملأ خيانتة هو واخوانه ؛ لأن خورشاه سرعان ما اقتنع بضرورة التسليم للمغول مع أنه الخائن الذى غرر بخورشاه وخدعه وشجعه على التسليم وكلفه بذلك أمرا أفقده حياته ومملكه وطائفته (١) .

٣ - قضاء هولاکو على الخلافة العباسية

بعد انتهاء هولاکو من أمر الاسماعيلية ذهب الى قرب قزوین فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ وأقام الحفلات لجيوشه المنتصرة ، ثم تحرك منها الى همدان فوصل اليها فى أوائل المحرم سنة ٦٥٥ هـ (أوائل يناير سنة ١٢٥٧ م) وعسكر بجيوشه فيها وأخذ يعمل على تنفيذ الشرط الثانى من برنامج الحملة التى بيده قيادتها . ويلوح لى أن هولاکو عندما فكر فى الخلافة العباسية وهو بهمدان عزم لأول وهلة على ابادتها ، على الرغم من أن مانجو بنصيحته التى وجهها اليه يوم أقام له ولجيوشه الولائم فى قره قورم لم يدعه الى القضاء على الخلافة العباسية بل طلب منه أن يترك أملاك الخليفة له اذا قدم فروض الطاعة وأظهر نواياه الحسنة . ويحقق ذلك لدى تقرير هولاکو للقائد المغولى بيجو نويان حين وصل الى همدان قادما من أذربيجان على عدم فتحه بغداد وقضائه على الخلافة (٢) . ولا بد أن هولاکو عندما ترك قره قورم كان على رأى الخان الأعظم ؛ ولكنه بعد أن سار الى الغرب ورأى الأمراء يقدمون له فروض الطاعة حيثما وصل بينما الخليفة العباسى لم يكلف نفسه مؤونة ارسال رسول

Quatremere, p. 185.

(١)

Quatremere, p. 223.

(٢)

D'ohsson, Tome III, p. 206.

من قبله كما أنه لم يمدده بالمعونة عند محاربته للاسماعيلية -
لما رأى هولاكو ذلك كله حقق على الخليفة وعزم على
الانتقام منه .

واذا كان هولاكو لم يسير جيوشه الى العراق حالما انتهى
من محاربة الاسماعيلية ، فمن المحتمل أن يكون ذلك رغبة منه
فى الاستعداد للحرب خصوصا وأن بيجو نويان حين دافع عن
نفسه أمام تقرير هولاكو على تركه بغداد دون فتحها بالغ
فى قوتها ووصفها بقوله : « الحقيقة أن هذه المدينة بسبب
كثرة سكانها وجيوشها العديدة ، وبسبب ما تحتوى عليه من
آلات الحرب والذخيرة وبسبب هذه الطرق الصعبة الضيقة
التي يجب سلوكها قبل الوصول اليها . بسبب ذلك كله
لا يمكن لأى جيش أن يقتحمها الا بصعوبة » (١) . اذ ليس
من الحكمة والأمر على ما ذكره بيجو نويان الاسراع بمهاجمتها
قبل اعداد العدة . كما أنه قد يكون الدافع بهولاكو الى
التريث رغبته فى الظهور بمظهر المطيع لتعليمات الخان
الأعظم المنفذ لها .

= ذكر دوسون أن هولاكو عادر الجهات المجاورة لقروين تاصدا همذان فى ربيع الأول
سنة ٦٥٥ هـ (مارس سنة ١٢٥٧ م) وذكر رشيد الدين (ترجمة كترمير) أن هولاكو وصل
همذان فى ١٢ رجب سنة ٦٥٥ هـ (يوليو سنة ١٢٥٧ م) على أن مجرى الحوادث على
ما سنرى فيما بعد يدل على أن هذه التواريخ غير صحيحة . اذ كيف نستطيع التوفيق بين
هذه التواريخ وبين قول رشيد الدين نفسه فيما بعد ان وصول هولاكو الى كرمشاهان
كان فى ٢٧ من المحرم . ان الأقرب الى الصحة فيما أرى أن تكون مغادرة هولاكو للجهات
المجاورة لقزوین وذهابه الى همذان قد وقعت فى أوائل المحرم ، وأن يكون سيره منها بعد
العشرين من المحرم . وهذا هو الذى أخذت به فى هذا الكتاب .

D'Ohsson, III, p. 207.

Quatremere, p. 225.

(أ) دعوة الخليفة المستعصم الى التسليم : وعلى كل حال ، فقد كان أول ما قام به هولاء في همدان هو أن أرسل الى الخليفة المستعصم رسالة يعتب فيها عليه بسبب عدم امداده بالجند عند محاربته للاسماعيلية ويذكره بأن المغول لم يهزموا قط ويدعوه الى تجريد حصونه من السلاح والحضور شخصيا اليه أو ارسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه نيابة عنه * ويقول له انه ان فعل ذلك ضمن حرите وحفظ مركزه وان أبى أحل بنفسه وبأهله الدمار ؛ لأن جيوش المغول في تلك الحالة ستسير الى بغداد وتستولي عليها منه لتخفضه من عزه ولا تدع أحدا في قيد الحياة في جميع أرضه ، ويختتمها بقوله : « القمر يضيء فقط عندما تغيب الشمس فلا تدق مسمارا بقبضتك ولا تخطيء الشمس بنور الشمعة أو تظن أنه يمكنك التوبة » (١) أى ان هولاء اتبع في أول الأمر وصية الخان الأعظم مانجو فدعا الخليفة الى اظهار ميوله الحسنة نحو المغول وتقديم خضوعه لهم وان أحاط كل ذلك بتهديدات تفصح عن كراهيته للخليفة ورغبته في النيل منه *

وقد جاء رد الخليفة المستعصم على هولاء شديدا وان حرص على صوغه في قالب مرن ، اذ دعاه الى الاقلاع عن غروره والرجوع الى خراسان وقال له : « أيها الشاب يا من بدأت بحياتك وشيكاً وشربت كأس العز والحظ الحسن من عشرة أيام وجعلت نفسك تبعا لذلك فوق العالم أجمع وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء ، كيف تطلب مني طلبا لا يمكنك تنفيذه ؟ أيخيل اليك أنك بذكائك وقوة جيشك وشجاعتك ستتأسر نجما من النجوم ؟ اتبع طريق الحسنى وعد الى

D'Ohsson, Tome III, pp. 215-217.

Quatremere, pp. 231-233.

(١)

خراسان * * « (١) - وأخذ يذكره بمجد الخلافة الفايبر وسلطة الخليفة الحالية وانتشار نفوذه على جميع المسلمين ويقول له : « ان ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن اشارتى حتى اذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر » (٢) ، كما أنه لم ينس في آخر الأمر أن يذكر أنه لا يريد حرباً لأنه لا يود أن تقاسى رعيته من سير الجيوش * فكانت النتيجة أن هولاكو وجد فيه مبرراً لتشدده ازاء الخلافة العباسية وتكأة لتنفيذ ارادته فى سحقها ، ورأى أنه ان حارب الخليفة بعد أن ظهرت نواياه السيئة وغروره القبيح لم يتخط الدائرة التى رسمها له مانجو * ويدلنا على ذلك أنه أرسل الى الخليفة يقول : « انك تركت نهج آبائك فاستعد للحرب وانتظر جيشاً قوياً ، ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خطى لانتصرت عليه بعون الله » (٣) .

لم يهتم هولاكو بعد ذلك ولم يدخل الرعب الى قلبه حين وصله من قبل الخليفة المستعصم بدر الدين ديريكي وقاضى البندنجين وأخذا يقولان له ، ان كل من حاول فتح بغداد فشل ورجع بالخيبة ويضربان له الأمثال ببيعقوب بن الليث الصفار الذى سار لفتحها ولكنه مات ، وأخيه عمرو الذى أراد ما أراد أخوه ولكنه وقع فى يد اسماعيل بن أحمد السامانى أسيراً وأرسل الى بغداد ليلاقي جزاءه ، والبساسيرى الذى أقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر ولكن طغرل بك السلجوقى قضى عليه ، والسلطان محمد السلجوقى الذى تقدم لغزو بغداد ولكنه عاد هارباً ومات فى الطريق ، ومحمد خوارزمشاه الذى

D'Ohsson, Tome III, pp. 217-218.

(١)

Richard Coke, p. 141.

و

Quatremere, p. 335,

(٢)

Ibid, 233.

(٣)

سار لهذا الغرض ولكن البرد اشتد عليه ونزل الثلج على جيشه واضطر الى التقهقر بعد أن مات كثير من جنوده ثم لم يلبث أن مات هو نفسه في إحدى الجزر النائية في بحر قزوين (١) . نعم ، لم يتأثر هولاء بهذه الأقوال ، بل ازداد عزمه قوة وتمثل لهما بقول الفردوسي في الشاهنامه « أقيموا حوله مدينة وسورا من الحديد وشيدوا حصنا وحاجزا من الصلب . اجمعوا جيشا من الشياطين والجن وسيروا بعد ذلك ضدى تحرقكم الرغبة في الثأر فساخفضه ولو كان في السماء وسأصل اليه رغم أنفه ولو كان في معقل الأسد » (٢) ثم أخذ يعد العدة لمحاربة الخليفة المستعصم .

(ب) الاستعداد للحرب : ساءت العلاقات بين هولاء والخليفة المستعصم ، ولم يكن لتبادل المراسلات بينهما من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها ، وقد رأى هولاء بثاقب نظره أن يستولى على الجهات الواقعة في طريقه الى بغداد قبل أن يعزم على السير اليها . لهذا أرسل الى حسام الدين أكه صاحب مدينة ديرتنك Dertenk وما جاورها من قبل الخليفة واستدعاه اليه وغمره بعطفه وحاول أن يضمه اليه ، ولما لم يأنس فيه الاخلاص له ورآه يميل الى الرجوع الى صف الخليفة استدعى قطبغا نويان من ايران الوسطى ثم كلفه بمحاربته فسنار اليه وقتله واستولى على بلاده ثم رجع اليه منتصرا (٣) . ويلاحظ أن هولاء لم يكتف بذلك ، بل أخذ يثير أحقاد الشيعة والمسيحيين ضد الخلافة العباسية (٤) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 212-222.

(١)

Quatremere, p. 251.

و

Quatremere, p. 253.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.

(٣)

Quatremere, pp. 255-259.

و

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 142,

(٤)

وعندما تأكد هولاكو أن في امكانه السير الى بغداد دون أن تعترضه مصاعب ذات بال بدأ في أخذ رأى الفلكيين على عادة المغول اذا قدموا على غزو أو عزموا على أمر مهم . أما الفلكي حسام الدين الذى أرسله الخان مانجو مع هولاكو وكان سنيا يعطف على الخليفة العباسى فقد حاول أن يننى هولاكو عن عزمه واخذ يبين أن مشروعا يراد به فتح بغداد لن يعقبه خير ، وكان مما قاله : «الحقيقة انه حتى هذه اللحظة كل ملك تجاسر على السير ضد بغداد وأبناء العباس لم يبق له العرش ولا الحياة ، واذا أبى الأمير أن يسمع لنصائحنى وتمسك بمشروعه فسينتج عنه ست مصائب كبيرة ، أولا - ستموت الخيول جميعها وتصيب الجنود أمراض مختلفة ثانيا - لن تطلع الشمس ، ثالثا - لن يسقط المطر ، رابعا - ستهب رياح شديدة وسيعانى العالم من هزات الارض ، خامسا - لن تخرج الأرض نباتا ما ، سادسا - سيموت الخان الأعظم فى هذا العام » . وقد كان فى تحديده وقتا لوقوع هذه الكوارث أكبر الخطأ لأن هولاكو اعتقله عنده حتى حل الوقت المعين ولما لم يحدث ما أشار به قتله (١) . وقد خالف الفلكي خوجه نصير الدين الطوسى حسام الدين وانضم الى صف الأمراء المغول الذين كانوا متمسكين بضرورة غزو بغداد وكانوا يرون أن حملة ضدها مشروع من أنسب المشروعات . وعندما سأل هولاكو عن رأيه فيما قاله حسام الدين أجابه بأن شيئا من الكوارث التى عددها لن يقع، وأكد له أنه سيجزم مكان الخليفة . ويذكر لنا رشيد الدين (٢) أن نصير الدين الطوسى ذكر ما ذكره لأنه خاف أن يتحققوا من كلامه ويفعلوا

D'Ohsson, Tome III, pp. 224-225.

(١)

Quatremere, p. 261.

و

Quatremere, p. 263.

(٢)

به ما فعلوا بحسام الدين ، أى انه يحاول أن يبرئه من وصمة تشجيع هولاكو على غزو بغداد * بينما يذكر لنا غير رشيد الدين من المؤرخين (١) أن نصير الدين فعل ذلك نكايه فى الخليفة العباسى الذى كان يكرهه لاختلافه عنه فى المذهب الدينى ولأنه جاء مرة الى بغداد وقدم اليه قصيدة شعرية فلم يجزه عليها .

والواقع ، اننى لا أجد فى سيرة نصير الدين الطوسى ما يبرئه من هذه التهمة ، فهو الذى كان سببا فى اقناع خورشاه بالتسليم لهولاكو، هذا الى أن هولاكو عندما أحضر حسام الدين ليناكش نصير الدين ويدافع أمامه عن رأيه أخذ نصير الدين يأتى بالحجج الدامغة للدلالة على كذب دعوى حسام الدين ، وكان مما ذكره أن كثيرين من أصحاب الرسول ماتوا فى الدفاع عن الدين ومع ذلك لم تقع كارثة ما وأن كثيرين من الناس خرجوا على بنى العباس ولم يلحقهم أذى وجعل يمثل بطاهر قائد المأمون الذى قتل محمد الأمين وبالأمراء الذين قتلوا المتوكل والمنتصر والمعتز وغيرهم (٢) * فلو أن نصير الدين لم يكن يكره الخليفة ويعمل على سقوطه أو لو أنه كما يقول رشيد الدين كان مضطرا الى تحبيذ المشروع ؛ لما وقف موقف المدافع عن الفكرة المحبذ لها الذى لا يتهاون فيها ولاكتفى بالقول بنجاح المشروع دون أن يفند أقوال حسام الدين .

هذا ما قام به هولاكو استعدادا للحرب ، أما الخليفة المستعصم فعلى الرغم من أنه وافق الدفتردار الصغير وسليمان

D'Ohsson, Tome III, pp. 225-226.

(١)

Coke, Baghdad the City of peace, p. 142.

و

D'Ohsson, Tome III, p. 226.

(٢)

Quatremere, p. 263.

و

شاه على المقاومة (١) فانه لم يقيم بما يجب عليه لصد هذا الخطر المدلهم ولم يقيم بعمل الاستعدادات اللازمة ، بل انه بعد أن أمر وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي بجمع الجند وبعد أن نفذ الوزير أمره بعد مراوغة بلغت خمسة شهور عاد فنكص على عقبه ولم يوزع عليهم شيئاً من ماله وعارذته طبيعة البخل المتحكمة فيه (٢) . وقد قيل انه كان ينتظر معونة الهية ، كما ذكروا انه كان ينتظر مساعدة أمراء المسلمين له كما قال له وزيره ابن العلقمي (٣) ، هذا وقد ذكر ابن العبري (٤) « وكان اذا نبه على ما ينبغي أن يفعله في أمر التاتار (كذا) اما المداراة والدخول في طاعتهم وتوخي مرضاتهم أو تجييش العساكر وملتقاهم بتخوم خراسان قبل تمكنهم واستيلائهم على العراق ، فكان يقول أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا ايضاً يهجمون على وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي » . وعلى كل حال فانه لزم خطة الجمود ولم يقيم بعمل يستحق الذكر ولم تنزل عليه معونة الهية ولم يخف الأمراء المسلمون لنجدته ، كما أن المفول لم يراعوا عواطفه ولم يفكروا في ترك بغداد له .

(ج) مسير هولاكو الى بغداد : وضع هولاكو وهو بهمدان خطة السير الى بغداد ، وكانت هذه الخطة ترمي الى جعل بغداد في وقت من الأوقات محاطة بجيوشه من جميع النواحي على أن يكون هو في القلب ، بينما يؤلف جورماجون وبيجونيان ومن معهما الجناح الأيمن ويذهبون الى الموصل عن طريق

D'Ohsson, Tome III, pp. 219- 220.

(١)

Ibid, p. 221.

(٢)

Quatremere, p. 248.

D'Ohsson, Tome III, p. 213.

(٣)

(٤) ابن العبري ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

أربل ويعبرون جسر الموصل ويكونون في وقت معين
معسكرين غربى بغداد ، ويكون الجناح الأيسر مؤلفا من
جيش كتبخانويان بعد أن يخترق لورستان (١) .

وقد بدأ هولاءكو سيره من همدان في أواخر المحرم سنة
٦٥٥ هـ (أواخر يناير سنة ١٢٥٧ م) وأخذ معه من أمراء
المغول كوكا الكا Kouka Ilka واركاتو Arkatou وأرجوناكا
Argounaka ، ومن أمراء المسلمين آبا بكر سعد بن زنكى
أتابك شيراز وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، ومن الكتاب
والعلماء قرطاي Karatai وسيف الدين وسكرتيره عطا ملك
الجوينى صاحب كتاب جهان جشا وخوجه نصير الدين
الطوسي (٢) . ولما وصل الى آسد آباد أرسل رسولا يدعو
الخليفة المستعصم الى المشول بين يديه ، ثم واصل سيره . وفى
دينور لقيه رسول الخليفة شرف الدين عبد الله بن الجوزى
برسالة كلها تهديد ووعيد وفيها يطلب الخليفة من هولاءكو
الرجوع ويعده فى مقابل ذلك بدفع جزية سنوية . وقد رد
هولاءكو هذا الرسول وقال له ساخرا : « لقد قطعنا طريقا
طويلا فكيف نرجع دون أن نرى الخليفة . اننا بعد أن نتشرف
بالمشول بين يديه وبعد أن نتحدث معه سنسمع أوامره
ونعود مباشرة . » (٣) . ثم بعد ذلك استمر فى سيره
وعبر بجيوشه الجبال الكردية حتى وصل الى كرمانشاهان فى
يوم ٢٧ من شهر المحرم سنة ٦٥٥ هـ .

Howorth, Vol. I, p. 199.

(١)

D'ohsson, Tome III, p. 227.

(٢)

Quairemere, p. 265.

و

Erowne, Literary History of Persia' Vol. II, p. 460.

و

Dohsson, Tome III, p. 228.

(٣)

Quatremere, pp. 265-267.

و

صارت جيوش هولاکو في کرمانشاهان قريبة من قوات الخليفة التي كانت معسكرة في المكان الواقع بين بلدتي بعقوبا وباجسرا تحت قيادة مجاهد الدين آيبك الدفتردار الصغير وابن قره (١) . وأصبح التصادم بينهم أمرا لا بد منه . ولكن المغول حالوا دون هذا التصادم بكل الطرائق الممكنة لأنهم على ما يظهر كانوا يخافون عواقبه وقنعوا في أول الأمر بالعمل على تمزيق القوات الخلافية وذلك باستمالة الأتراك الموجودين فيها ، وقد استعملوا لهذه الغاية الأتراك الذين يعملون في صفوفهم ، معتقدين أن تأثيرهم على أبناء جنسهم لا بد أن يكون كبيرا ولكنهم فشلوا وأثبت الأتراك الذين في صف الخليفة انهم مخلصون له وأنهم عازمون على البقاء معه حتى النهاية ، وتجلى اخلاصهم في رد أحدهم المسمى قره سنقر الذي كان يقود مقدمة جيش الخليفة على كتاب أرسله اليه أحد الكشاف الأتراك في الجيش المغولي واسمه سلطان جوك Sultan Djouk . فقد كتب سلطان جوك يقول انه تركي مثله خضع لهولاکو فلم يلق منه الا كل خير ، ودعا الى الانضمام الى هولاکو هو الآخر حتى يحتفظ بحياته وحياة أبنائه وأسرته ، ولكن قره سنقر رد عليه ردا شديدا قال له فيه ان كل من حاولوا فتح بغداد أو الاعتداء على الخليفة العباسي باءوا بالفشل ، وذكر له أن الخليفة عندما علم بسير هولاکو حنق وعزم على القضاء عليه ، ثم طلب منه اذا كان يريد سلما أن يبدأ باقناع هولاکو بالرجوع الى همدان ووعدته

بأنه في هذه الحالة سيوسط الدفتردار لاقتناع الخليفة بالرضاء بالسلم (١) .

اغتاظ هولاء هذا الفشل وكان مما قاله عندما علم بما رد به قره سنقر : « ان قوتي قائمة على سيف الخالق وليست قائمة على الذهب والفضة ، واذا أحبنى الله وقانى فمن ذا الذى يخيفنى من الخليفة وجنده » ان ناظرى لا تختلف أمامه النملة والبعوضة والفيل أو النبع والنهر والبحر والنيل . . (٢) « ولكنه مع ذلك لم يجسر على أن يتبع طريق القوة بل أراد أن يراوغ الخليفة ويكسب الوقت فأرسل اليه يقول : « اذا كان الخليفة عازما على التسليم فليأت بنفسه الينا واذا كان عازما على محاربتنا فليرسل الوزير وسليمان شاه والدفتردار قبل كل شيء ليصفوا الى مطالبنا » (٣) ثم أراد أن يتخلص من مقاومة جيوش الخليفة له بعد أن فشل في تمزيقها فاستدعى بيجونويان وسنجاك Soundjak وسنتوا Sountoi وبغاتيمور Boukatimour على عجل وأمرهم بالاسراع الى عبور دجلة ومهاجمة بغداد من الغرب (٤) . وكان النجاح حليفه ، لأن قوات الخليفة المعسكرة بين بعثوبا وباجسرا عندما علمت بمهاجمة القوات المغولية لبغداد من الغرب تحركت من مركزها وعبرت نهر دجلة لتصددها وبذلك تركته حرا طليقا فसार حتى وصل شاطئ نهر حلوان في يوم ٩ من ذى الحجة سنة ٦٥٥ هـ (١٨ ، ديسمبر سنة ١٢٥٧ م) ثم عسكر في خانقين حتى يوم ٢٢ من الشهر نفسه ، ثم واصل

D'Ohsson, Tome III, pp. 228-229.

Quatremere, p. 269.

Ibid, p. 272.

D'Ohsson, Tome III, p. 229.

Quatremere, p. 279.

Quatremere, p. 267.

(١)

و

(٢)

(٣)

و

(٤)

سيره حتى عسكر شرقى بغداد فى يوم ١١ من المحرم سنة ٦٥٦ هـ (١٨ يناير سنة ١٢٥٨ م) (١) أى بعد سنة تقريبا من تركه همدان .

ويجب ألا ننسى هنا أن بيجونويان وزملاءه قاموا بهذا الدور تبعا للخطة التى رسمها هولكو لجيوشه فى همدان، وكل ما فى الامر أنه سيرهم فى الوقت المناسب فرمى عصفورين بحجر واحد ، اد وصل أسوار بغداد الشرقية دون أن يلقي مقاومة كما وصلت جيوش بيجونويان وزملائه الى بغداد الغربية .

وقد بذلت قوات بيجو نويان وزملائه مجهودا كبيرا ؛ إذ أسرع منذ دعاها رسول هولكو وقابلته فى المكان المسمى طاق كسرى Tak-kesra ثم تلقت أوامره وأحرقت أكتاف الحيوانات على عادة المغول ثم يمت شطر بغداد الغربية وعبرت نهر دجلة عند تكريت على جسر من القوارب اقامته فى أربع وعشرين ساعة بعد أن قطع أهل تكريت الجسر الذى كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقامه لعبورها . وسارت فى محاذاة قناة دجيل حتى عسكرت على شاطئ نهر عيسى . وبعد أن استراحت من العناء الذى لاقته طلب سنجاك من بيجو نويان أن يؤمره على مقدمة الجيش ثم سار حتى وصل قريبا من حى الحربية ، ولكن قوات الخليفة كانت قد عبرت نهر دجلة فلاقته فى ٩ المحرم سنة ٦٥٦ هـ (١٦ يناير سنة ١٢٥٨ م) وهزمته بقرب الأنبار على بعد

(١) ابن العبرى ، ص ٤٧٢ .

D'Ohsson, Tome III, p. 232.

Quatremere, p. 281.

تسعة فراسخ من بغداد واضطرت الى التقهقر والاسراع للانضمام الى قوات المغول التي تركها وراءه . وقد حدث بعد ذلك أن سارت قوات الخليفة متتبعة الجيش المنهزم غير مكتفية بما أحرزته من نصر ، فاضطرت قوات بيجو نويان وزملائه ازاء ذلك الى ملاقاتها ، ووقعت بذلك موقعة شديدة فى منطقة دجيل استغرقت مساء ٩ وصباح ١٠ من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٦ و صباح ١٧ يناير سنة ١٢٥٨ م) . وعلى الرغم من أن قوات الخليفة أحرزت الغلبة فى مساء ٩ المحرم ، فان المغول نجحوا ليلا بسبب قطع أحد الجداول واغراق ما وراء معسكر الجيش العباسى . ويقول الديار بكري (١) ان أتباع الوزير ابن العلقمى هم الذين أغرقوا المعسكر ، كما يقول براون (٢) ، ان المغول فعلوا ذلك بمعاونة المهندسين الصينيين الذين أحضروهم معهم . وعلى كل حال ، فان المغول لم يهزموا هذا الجيش فى صباح ١٠ المحرم فحسب بل أنزلوا به الخسائر الفادحة أيضا ، فقتل من قواده فلاح الدين وابن قره وقره سنقر ، كما قتل من جنده اثنا عشر ألفا عدا من غرقوا وغطاهم الطين ، ولم ينج منهم الا من رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام أو الحلة أو الكوفة وكان الدفتردار الصغير ممن نجوا اذ تمكن من الوصول الى بغداد على رأس شزيمة صغيرة (٣) .

(١) الديار بكري - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) Brown, Litterary History of Persia, Vol. II, p. 461.

(٣) ابن العبري ، ص ٤٧٣ والفخرى ، ص ٢٤٦ .

D'Ohsson, Tome' III, pp. 228-230-232.

Browne, Literary History of Persia, Vol. II. p. 461.

ملاحظة - كان عسكر الخليفة فى هذه الموقعة فى غاية القلة على ما ذكره صاحب الفخرى (ص ٢٤٦) وعشرين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتى ناصرى (براون - تاريخ فرس الادبى ج ٢ ص ٤٦١) ، بينما كان حش بيجونويان وزملائه يريد على ثلاثين ألفا على ما ذكره صاحب الفخرى (ص ٢٤٦) وثمانين ألفا على ما ذكره صاحب طبقاتى ناصرى (براون ، ص ٤٦١) .

وعلى كل حال ، فقد كان انتصار القوات المغولية عظيما
مكنهم من دخول بغداد الغربية في ١٥ المحرم سنة ٦٥٦ هـ
(٢٢ يناير سنة ١٥٢٨ م) والسيطرة على جميع أجزائها (١) .

هذا فيما يختص بالجناح الأيمن والقلب ، أما الجناح
الأيسر الذي كان يقوده قطبغا نويان فكل ما نعلمه عنه أنه
اخترق لورستان وتقدم حتى أصبح في يوم ١٥ المحرم سنة
٦٥٦ هـ عند صرصر (٢) .

(٥) حصار بغداد : إذا ذكرنا حصار بغداد فاننا نقصد
حصار المغول لبغداد الشرقية ، وذلك لأن تلك المدينة الشرقية
كانت مقر الخليفة وحكومته كما أن أهل بغداد الغربية
تدفقوا اليها منذ عبرت جيوش بيجو نويان وزملائه نهر دجلة
عند تكريت عازمة على غزو بغداد من الغرب ، ويقول صاحب
الفخرى : وقد بلغ من شدة رغبتهم في الذهاب اليها أنهم

= وأحب أن انبه في هذا المقام الى ان براون اخطأ حين ذكر ان الجيش الذي كان
يزيد على ثلاثين ألفا هو جيش هولاكو لا جيش بيجونويان ، ناسبا هذا الخبر الى صاحب
الفخرى (براون ، ص ٤٦١) فتد رجعت الى هذا الكتاب فلم نجد فيه شيئا من هذا
القبيل بل وجدت هذا النص « فلما وصل العسكر السلطاني الى دجيل وهو يزيد على
ثلاثين ألف فارس خرج اليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيوش مجاهد الدين أيبك الدويدار
وكان عسكرا في غاية القلة فالتقوا بالحانب الغربي من بغداد قريبا من البلد » وهو
يبين بكل وضوح أن الجيش الذي كان يربو على ثلاثين ألفا هو جيش بيجونويان وزملائه
الذي هاجم بغداد من الغرب لا جيش هولاكو الذي هاجمها من الشرق . ولا بد أن براون
حين وجد ابن طباطبا يذكر أن العسكر السلطاني يربو على ثلاثين ألفا ، ظنه عسكر هولاكو
وهو معذور في ذلك لأن ابن طباطبا ذكر كلمة العسكر السلطاني قبل ذلك مرات وكان يقصد
بها دائما عسكر هولاكو الذي هاجم بغداد من الجهة الشرقية .

D'Ohsson, Tome III, p. 232.

(١)

Quatremere, p. 281.

و

D'Ohsson, Tome III, p. 232.

(٢)

صرصر بالفتح وتكرار الصاد والراء وهما قريتان من سواد بغداد صرصر العليا
وصرصر السفلى وهما على ضفة نهر عيسى . . . وبين السفلى وبغداد نحو فرسخين (راجع
لفظ صرصر في معجم البلدان لياقوت) .

كانوا يعطون الجذافين الذين ينقلونهم بقواربهم من ضفة دجلة الغربية الى ضفته الشرقية أسورة من الذهب وملابس سطرزة من الذهب وعددا كبيرا من الدنانير (١) .

وقد أحاط المغول ببغداد الشرقية منذ وصولهم احاطة السوار بالمعصم . فهولاكو الذى وصل عن طريق خراسان عسكر فى وسط القوات التى توجد أمام الأسوار الشرقية تجاه برج العجم ، بينما عسكر من الأمراء الذين كانوا يرافقونه الكا نويان Ilka Noyan رتربا Ferba امام باب كلواذى على يسار هولاكو ، وانضم اليهم قطبغا نويان الذى كان يدون بجيشه الجناح الايسر للقوات جميعها . على ان المؤرخين ، ومن بينهم هورث ودوسون ، لم يذكروا عند كلامهم على ترتيب الجيوش المغولية أثناء حصارها مدينة بغداد شيئا عن انضمام قطبغا نويان الى هذه القوات التى عسكرت أمام باب كلواذى ، ونستطيع أن نؤيد ما ذهبنا اليه مما ذكره هؤلاء المؤرخون فى موضع آخر من أن الخليفة بعد أن خرج من بغداد نقل الى معسكر قطبغا نويان أمام هذا الباب ووضع فى خيمة . أما كولى Kouli وبلجا Boulga رتوتا Toulai وشيراسون Shiramoun وأركيو Arkiou ، فعسكروا تجاه الجزء الأكبر من السور الشرقى بقرب باب السلطان على يمين هولاكو ، هذا بينما عسكرت جيوش بيجو نويان وسنجاك فى محلة المستشفى العضدى كما عسكرت قوات بغاتيمور فى محلة القرية ، وكانت بذلك جميعها تطل على بغداد الشرقية من الغرب وتحول دون وصول المدد اليها عن طريق نهر دجلة (٢) .

(١) الفخرى ، ص ١٤٦ .

D'Ohsson, Tome III, p. 230.

D'Ohsson, Tome III, p. 232, 239

Quatremere, pp. 281-283, 299.

ولم تترك هذه القوات منذ اتخذت أماكنها حول بغداد فرصة تمر دون أن تستخدمها في تقريب الغاية التي تسعى إليها وهي الاستيلاء على هذه المدينة ، فأقامت أمام أسوارها أسواراً أخرى موازية لها من الأتربة كما حفرت خندقاً بجانب المدينة ووراء هذه الأسوار ، وأتمت هذه الأعمال جميعها في أربع وعشرين ساعة وتمكنت بذلك من فصل المدينة عما جاورها * هذا إلى أنها كونت من الانقراض الموجودة حول المدينة أكواما عالية جعلتها مقاعد لقاذفات الأحجار (العراصات) وآلات النفط وبذلك جعلت المدينة تحت رحمتها * أضف إلى ذلك أنها عندما وجدت أن الحجارة التي تحتاج إليها العراصات لا توجد حول بغداد أحضرتها من جبل حميرين وجالولا وهي أماكن تبعد عن بغداد شمالاً بمراحل طويلة تقطع في ثلاثة أو أربعة أيام ، كما أنها كانت تستعويض بالأحجار عند عدم وجودها بقطع من جذوع النخل * ومن الغريب أن الجيوش المغولية لم تهمل الناحية المعنوية فيها وفي أعدائها ، فكانت تقويها في أفرادها بحثهم على العمل كما سنرى ، وكانت تضعفها في أعدائها ينشر عوامل الانقسام في صفوفها إما برمي النشرات عن طريق تشبيتها في سهام ترميها داخل الأسوار أو بالاتصال برجال من أعوان الخليفة (١) .

بدأ هجوم هذه القوات المغولية على الأسوار الشرقية في ٢٣ من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨ م) فضربت هذه الأسوار ضرباً شديداً في جميع نقاطها ،

(١) ابن العبري ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ .

D'Ohsson Tome III, pp. 232, 234.

Howorth, Vol I, p. 199.

Quatremere, pp. 283-285.

و

و

و

ويلاحظ أن عدد الأبراج التي كانت تقوم على هذه الأسوار كان يبلغ مائة وثلاثة وستين وكان من أهمها برج العجم . وقد ظل الضرب عدة أيام متوالية ثم أخذ أثره في الظهور في يوم ٢٥ المحرم (أول فبراير) حين تصدع برج العجم أمام هجمات فرقة هولاءكو ، كما ظهر هذا الأثر أيضا في يوم ٢٩ المحرم (٥ فبراير) حين استولت هذه الفرقة نفسها على الشجرة التي أحدثتها بالقوة . ثم اشتد حماس القوات المغولية المواجهة لباب السلطان على أثر لوم هولاءكو لها على تكاسلها ، فهاجمت السور المواجه لها واستولت عليه وأصبح بذلك جميع السور الشرقي في قبضة المغول . ومما تجب ملاحظته أن المغول حين كانوا يهاجمون السور الشرقي لجأ هولاءكو الى اضعاف الروح المعنوية في أهل بغداد في الوقت الذي قوى فيه الروح المعنوية في جنوده ، وقد استعمل لهذا الغرض نشرات ثبتها في سهام رمى بها داخل الأسوار وفيها يقول : « ليتأكد القضاة والعلماء والشيوخ والشيعية والتجار وكل من لا يحمل سلاحا ضدنا أننا سننصون حياتهم (١) » .

وبعد أن سيطر المغول على الأسوار الشرقية أرادوا أن يجعلوا اشرافهم على الجهة الغربية تماما ؛ حتى لا يتمكن أحد من المحاصرين أن يجد له مهربا وحتى لا يترك الباب مفتوحا أمام أهل بغداد ليستمدوا العون من خارجها ، فأمر هولاءكو بإقامة جسرين من القوارب المسلحة على نهر دجلة شمالي

(١) ابن العبري ، ص ٤٧٤ .

D'Ohsson. Tome III, pp. 233-234.

Howorth, Vol. I p. 199.

Quatremere, pp. 183-289,

Coke, Baghdad the City of Peace, p. 147.

Osborn, Islam Under The Caliphs of Baghdad, p. 392.

بغداد وجنوبها ، كما أمر بإقامة حواجز من الأتربة على شاطئ النهر ووضع العرادات عليها ، هذا الى أنه أمر بوضع قوات تشرف على الطرق الموصلة الى البصرة وعهد الى بغاتيمور ومعه عشرة آلاف بحراسة طريق المدائن ، وكانت هذه الاحتياطات التي اتخذها المغول في محلها . اذ ان الدفتردار الصغير حين رأى أن المغول يضيقون الدائرة على بغداد أراد أن يقنع الخليفة بالفرار عن طريق قناة دجيل والفرات فلما أخفق عول على الهرب وحده وسار في دجلة نحو الجنوب ؛ ولكن القوات المغولية ردت به بوابل من الحجارة وبمقذوفات النفط بعد أن استولت على ثلاثة من القوارب التي كانت ترافقه وبعد أن أفقدته كثيرا من أتباعه (١) . وعلى كل حال ، فإن حلقة الحصار أصبحت كاملة حول بغداد ولم يبق أمامها الا طريق واحد هو التسليم .

(هـ) سقوط بغداد : منذ تجمعت القوات المغولية حول بغداد وبدأت في حصارها ، أحس الخليفة المستعصم بالخطر الكبير الذي يهددها وبدأ يفكر في انقاذها . وقد اتبع لهذه الفاية طريقة استمالة هولاكو واسترضائه ، فأرسل في أول الأمر وزيره ابن العلقمي وأمره بأن يقول لهولاكو باسمه : « طلب مني الأمير المغولي ارسال وزيرى وهأنذا اليوم أقتنع بما طلب مؤملا أن يحفظ الأمير كلمته » . وقد رمى بذلك الى اقناع هولاكو بارسال الوزير اليه والرجوع من حيث أتى . وكان مع الوزير بطريق نساطرة بغداد أرسله الخليفة عندما علم بأن لهولاكو زوجة مسيحية . ولكن هولاكو رد عليه بقوله : « عندما وعدت هذا الوعد (وهو الرجوع اذا

D'Ohsson, Tome III, p. 235.

(١)

Quatremere, p. 291.

و

Coke, Baghdad the City of Peace, p. 146.

و

أرسل الخليفة وزيره) كنت لا أزال تحت أسوار همدان ، أما الآن وأنا أعسكر أمام بغداد وقد أصبح بحر المشاكل والعداوة في أشد الهيجان كيف أكتفى باستقبال أحد كبار رجال الدولة . يجب أن يرسل الخليفة رؤساء حكومته الثلاثة الوزير والدفتردار وسليمان شاه » . وفي اليوم التالي أرسل الوزير وتسعة من حاشيته وعددا من أشهر كبار رجال بغداد؛ ولكنه لم يصل الى غرضه أيضا وردهم هولاكو دون أن يعيرهم أى اهتمام (١) . ولما ضيق المغول الخناق على بغداد وحاصروها من جميع جهاتها ولم يمكنوا الدفتردار من الهرب كما تقدم فكر الخليفة مرة أخرى في استمالة هولاكو وأرسل فخر الدين الدامغانى وابن درنوش ثم ابنه الأوسط آبا الفضل عبدالرحمن وكثيرا من رجال حكومته يحملون الأموال الكثيرة . وفي اليوم الثالث الموافق آخر المحرم سنة ٦٥٦ هـ (٦ فبراير سنة ١٢٥٨ م) أرسل الخليفة ابنه الأكبر ومعه الوزير وعدد من أشهر رجال الحاشية ولكن هولاكو لم يسمع لهم وردهم جميعا وفدا بعد الآخر يجرون أذيال الخيبة والفشل وطلب من الخليفة ارسال الدفتردار الصغير وسليمان شاه ، وهكذا لم تفلح الطرائق التى اتبعها الخليفة لاستمالة هولاكو نهائيا (٢) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 233-234.

Howorth, Vol. I, p. 199.

Quatremere, p. 283.

D'Ohsson, Tome III, pp. 235-236.

Howorth, Vol. I, p. 200.

Quatremere, p. 295.

وقد خالف ابن العدى (ح ٤٧٤) المؤرخين السابقين حين ذكر أن الدفتردار عاد من الحاريق بحجة أنه يرجع ريمع المقاتلين في الدروب والأزقة ؛ لئلا يقتلوا أحدا من المغول .

فهم الخليفة فشله هذا وعرف في الوقت نفسه أن هولاءكو مصمم على اتباع طريق العنف فبادر الى اجابة طلباته حتى يسلم من اذاه على الأقل وأرسل اليه في اول صفر سنة ٦٥٦هـ (٧ فبراير سنة ١٥٢٨م) الدفتردار الصغير وسليمان شاه فكان ذلك اول خطوة في سبيل التسليم . ولكن هولاءكو رأى أن الفرصة سانحة وأن في امكانه أن يصل الى درجة ابعد فأعاد الدفتردار الصغير وسليمان شاه الى المدينة وطلب منهما الرجوع اليه ومعهما أتباعهما ، ولما عادوا اليه ومعهما الأتباع الذين خرجوا من المدينة على امل السير الى سورية امر بالأتباع فوزعوا على الجند المخولي وقتلوا أفضع قتلة ثم قتل الدفتردار الصغير وابنه كما قتل سليمان شاه بعد أن أنبه على مسلكه ، وكان مما قاله له : « وأنت يا من تعرف سيرالنجوم (فقد كان فلكيا) وما يقع من خير وشر لم لم تعرف يوم مصرعك وتنصح سيدك وتدعوه الى المسالة » ثم أرسل رؤوس الثلاثة الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وصديق سليمان شاه ليعلقها في مجلسه (١) . وهكذا ، لم يحل تساهل الخليفة دون وقوع الكوارث المتوالية برجاله ورعيته .

ويجب أن نلاحظ أن قتل سليمان شاه والدفتردار وأتباعهما كان له أثر كبير في سيرالأمور فيما بعد، ولم يقتصر هذا الأثر على تصرفات أهل بغداد ازاء المغول بل تعدى ذلك الى تصرفات الخليفة نفسه . أما أهل بغداد فقد دب الرعب في قلوبهم على أثر هذا الحادث وطارت نفوسهم شعاعا ، فأخذ فريق منهم يختبئ في المزارات وفي أفران الحمامات كما خرج بعض كبراءهم من المدينة ليعرضوا تسليمها على هولاءكو وليعدوا بأن الخليفة أراد بارسال أولاده أولا أن يحضر

Howorth, vol. I, p. 200, D'Ohsson, Tome III, pp. 236-238.

Quatremere, p. 295.

بشخصه بعد ذلك . وقد ذكر ابن العبري (١) أن الدين خرجوا من بغداد في هذه المهمة هم شرف الدين المراغي وشهاب الدين الزنكاني وأن أهل بغداد هم الذين أرسلوهم . ولم يسمع لهم هولاء ولم يجب طلبتهم ، خصوصا عندما أصابت سهم طائشة خارجة من داخل المدينة عين سكرتيره هندو ، بل أمر نصير الدين الطوسي أن ينصب خيامه أمام باب الحلبة ليستقبل من يسلم منهم ثم لم يلبث حين تجمع منهم عدد كبير أن أمر بقتلهم (٢) .

أما الخليفة المستعصم ، فقد تسرب الخوف الى نفسه على أثر قتل الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما ولم يلبث حين رأى هولاء يقتل من خرج اليه من أهل المدينة ، أن تحقق مصير بغداد وأهلها ، ورأى أن كل شيء لا بد ضائع ، خصوصا وأنه أراد أن يستعين بالوزير فلم يجد منه معينا بل وجد منه مشبها لهمة ومدخلا لليأس في نفسه . وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قال له عندما سأله عما يصنعه في هذا الموقف الحرج :

يظنون أن الأمر سهل وانما

هو السيف حدث للقاء مضاربه

ولذلك لم يجد الخليفة بدا من تسليم نفسه الى عدوه وخرج من بغداد يوم الأحد ١٢ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ومعه أولاده الثلاثة أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك وثلاثة

(١) ابن العبري ، ص ٤٧٤ .

(٢) D'Ohsson, Tome III, p. 237., Quatremere, p. 397.,

و Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 393.

آلاف شخص من السادة والأئمة والقضاة وكبار رجال الدولة وأعيان المدينة وسلم نفسه الى هولاكو (١) .

أدى تسليم الخليفة المستعصم الى سقوط بغداد فى أيدي المغول ، وذلك لأن هولاكو منذ رآه أراد أن يتخذه آلة لتحقيق هذا الغرض فقابله بالترحاب وطلب منه أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم بقصد عمل تعداد لهم ، فأجابه الخليفة الى ذلك وأرسل رسولا من لدنه نادى فى طرقات بغداد على الناس أن يرموا سلاحهم ويخرجوا من الأسوار ، ولما فعلوا ذلك أمر هولاكو المغول فانقضوا عليهم وقتلوهم (٢) .

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة كما أمر بنصب جسر على دجلة ، ولما تم له ذلك أمر القوات المغولية فى شرق بغداد بدخول المدينة من الشرق، كما أمر القوات المغولية الموجودة على الشاطئ الغربى بعبور الجسر ودخول المدينة من الغرب ، فدخلوها فى يوم ٧ من صفر سنة ٦٥١ هـ (١١ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ووزعوا أنفسهم على محلاتها وظلوا فيها أسبوعا تاركين لأنفسهم العنان ؛ فخرّبوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخرّبوا المكاتب وأتلفوا الكتب التى بها اما باحراقها أو برميها فى دجلة كما قتلوا معظم أهل المدينة

(١) ابن العبرى ، ص ٤٦٥ .

D'Ohsson, Tome III, p. 238.

Howorth, Vol. I p. 200.

Quatremere, p. 299.

D'Ohsson, Tome III, p. 238.

Howorth, Vol. I p. 200.

Quatremere, p. 299.

و

و

و

(٢)

و

و

دون أن يستثنوا امرأة أو طفلاً ودون أن يعطفوا على مريض أو يقدروا عالماً (١) . وكان استهتار المغول بالنفوس بالغاً أشده فقتل اثنان منهم ناعاً حملاً بما جمعا من الأسلاب رجلاً قابلهما في الطريق وشقاً جوفه لا لشيء الا ليتخذاه أداة لحمل ما معهما كما دخل أحدهم زقاقاً وقتل أربعين طفلاً شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل (٢) . ولذلك فإن المؤرخين يبالغون في تعداد الآنفس التي أزهقوها حين دخلوا بغداد ، فمنهم من قدرها بمليون وثمانمائة ألف نفس (٣) ومنهم من قدرها بمليون نفس (٤) وفريق ثالث قدرها بثمانمائة ألف نفس (٥) بل وهناك من قدرها بألفي ألف نفس (٦) . ومما لا شك فيه أن المدينة فقدت معظم سكانها في هذه الكارثة ، كما أن الثروة الأدبية والفنية التي سهر على جمعها خلفاء بنى العباس منذ اتخذوها عاصمة لهم ضاعت وأصبحت أثراً بعد عين (٧).

هذا ولم ينفرد جنود المغول دون رئيسهم بارتكاب ما ارتكبهوه من الفظائع ، بل ان هولاءكو شاركهم وزاد عليهم

(١) أبو الفدا - المحقصر في أخبار السر - ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

D'Ohsson, Tome III, pp. 239, 241. و

Howorth, Vol. I, p. 200. و

Quatremere, p. 301. و

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, p. 401. و

Richard Cike, Baghdad the City of Peace, p 146 (٢)

(٣) الدهى - دول الاسلام ج ٢ ، ص ١٢٣ والديار بكرى - الخميس ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٤) هوان التوفيات ، ج ١ ، ص ٢٣٧ والسيوطى - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٩ .

(٥) D'Ohsson, Tome III, p 241. و Howorth, Vol. I, p. 200. و

Coke, Baghdad, p. 148. و Browne, Lit, Hist. Vol. II, p. 463. و

(٦) المقربرى - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 463. (٧)

فدخل بغداد الشرقية حين دخلوها وأقام معسكره في محلة المأمونية حتى اذا كان يوم ٩ صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٥ فبراير سنة ١٢٥٨ م) ذهب هو وأمرأؤه الى قصر الخليفة المستعصم الذي كان يراففهم ونهبوه وأذلوا صاحبه وقتلوا الانفس البريئة التي تقيم فيه ، وكان سلوك هولاكو في ذلك اليوم - لوكا سيئا تتجلى فيه قلة الذوق والوحشية اذ بدا عمله بأن طلب من الخليفة أن يقدم له ولأمرائه ما يليق بهم وهم ضيوف في قصره ولما أتى له بالفى كساء وعشرة آلاف قطعة ذهبية وبعض الاحجار الكريمة وحليا من أصناف مختلفة ، أخذها منه بازدراء وقدمها الى أتباعه وقال له : « ان الكنوز التي تملكها والتي توجد فوق سطح الأرض من السهل معرفتها وهي تحت تصرفي وتصرف أتباعي ، انما ما نريده هو أن تظهر لنا ثروتك المدفونة وتبين لنا موضعها » ولما أخبره الخليفة أن في وسط القصر جرة مملوءة بالذهب امر بالحفر في الموضع الذي عينه * وقد وجدوا بها عددا كبيرا من القطع الذهبية التي تزن الواحدة منها مائة مثقال * هذا الى أنه جرد القصر من سبعمائة جارية كانت به وألف خصي ولم يدع للخليفة الا مائة جارية فقط من هذه الجوارى *

أما في اليوم التالي ، فقد أرسل سنجاك أحد القواد المغول الذين كانوا في صحبة بيجو نويان عندما هاجم بغداد من الغرب الى القصر فجمع ما به من ثروة اقتناها الخلفاء العباسيون في مدة خلافتهم الطويلة وعاد بها الى حيث وضعت حول خيمة هولاكو فصارت كجبل قائم (١) *

(١) ابن العبري . ص ٤٧٥ *

D'Ohsson, Tome III, pp. 239-240.

و

Quatremere, pp. 301-303.,

و

ولم تقف أعمال هولاءكو انقاسية عند هذا الحد ، بل انه بعد ذلك بعدة أيام (١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ) = (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) وفي الوقت الذي أمر فيه جند المغول بالذلف عن أعمال النهب والقتل في بغداد على أثر مقابلاته لو قد ممن بقى في قيد الحياة من اهلها ، على رأسه شرف الدين المراغي وشهاب الدين ابن نجاشي ، ارتكب اكبر جرائمه بقتله الخليفة المستعصم وولده الاكبر أبا بكر وخمسة من خصيائه المخلصين الذين لم يتركوه عندما نزلت به المصائب وكان ذلك في قرية وقف ، في مساء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) (١) .

وقد كتب عن مسألة قتل الخليفة المستعصم كثير من مؤرخي العرب والفرس والفرنجة ، ويظهر الخلاف بينهم حين ينشأون تحديد تاريخ هذا القتل أو طريقته " فالمؤرخون من العرب يذكرون أن القتل حدث في المحرم سنة ١٥١ هـ دون أن يحددوا اليوم الذي قتل فيه (٢) بينما الفرس يذكرون انه حدث مساء يوم ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م) وعنهم يأخذ الفرنجة (٣) . ويظهر الخلاف بين هؤلاء المؤرخين كذلك في الطريقة التي قتل بها الخليفة ، فيقول بعض مؤرخي العرب انه قتل رفسا ويقول البعض انه وضع في عدل ورفس حتى مات ، كما يذكر البعض الآخر أنه خنق ، ويقول غير هؤلاء ان جسمه

D'Ohsson, Tome, III, pp. 241-242.

Quatremere, p. 30E.

Howorth, Vol. I, p. 200

(٢) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ ، والخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

D'Ohsson, Tome III, p. 242. Howorth, Vol. I, p. 201.

Quatremere, p. 305.

(١)

و

و

(٣)

و

مزق اربا ، كما يذكر غيرهم أنه لف في بساط والقى في دجلة (١) . أما مؤرخو الفرس والأرمن ومن أخذ عنهم من مؤرخي الفرنجة ، فقد ذكروا عن الطريقة التي قتل بها الخليفة أن هولاءكو وضع أمامه شيئا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وطلب منه أن يأكلها إذا أراد بعد أن وضعه في حجرة مغلقة (٢) . وعلى كل حال ، فإن هذه المسألة غامضة ولعل غموضها يرجع الى أن هولاءكو أخفى عن الناس قتل الخليفة ردحا من الزمن فلم يقفوا على الطريقة التي لقي بها حتفه ، أو الى أن هذا الحادث كان شديد الوقع على المؤرخين من العرب فأدهشهم وحال بينهم وبين تدوينه ، وقد جاء هذا الرأي في كتاب فوات الوفيات حيث ذكر ما نصه « توئى الخليفة في اواخر المعمر سنة ٦٥٦ هـ وما أظنه دفن وكان الأمر أعظم من أن يوجد من يؤرخ موته أو يسواري جسده » (٣) .

هذا وقد اعتمدت عند الكلام على حوادث الحصار المغولي على التواريخ التي ذكرها مؤرخو الفرس ومن أخذ عنهم من الفرنجة ، وأن كانت لا تتفق مع التواريخ التي ذكرها مؤرخو العرب ، وذلك لأنها تتفق وحوادث الفتح ولأن مؤرخي العرب لم يحددوا التاريخ الذي وقعت فيه هذه المأساة للسبب الذي أدلى لنا به ابن شاكر .

أما فيما يختص بطريقة قتل الخليفة ، فلا أرى داعيا الى الأخذ برأي دون رأي ، وحسبى أنني تعرضت لذكر هذه الآراء على اختلافها .

(١) أبو الفدا ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ وفوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٧ و الحميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ وتاريخ الخلفاء ، ص ١٨٩ .

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 244-246. Coke, Baghdad, pp. 151-152.

Browne, Literary History of Persia, vol. II, p. 463. و

(٣) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

ولم يكن قتل هولاءكو للخليفة المستعصم راجعا الى كراهة شخصية ، بل كان للتخلص منه باعتباره عدوا سياسيا كان في بقائه في قيد الحياة خطر كبير ، يهدد نفوذ هولاءكو وسلطانه في بلاد العراق . لذلك نجده يأمر في اليوم التالي بتعقب افراد الأسرة العباسية وقتلهم جميعا ، ويقال انه ظفر ببغيته هذه ولم ينبج من افراد هذه الأسرة المنكوبة الا أصغر ابناء الخليفة واسمه مبارك شاه ، وكان ذلك بناء على طلب زوجة هولاءكو وقد أرسل الى الشرق حيث تزوج من مغولية ، وممن نجا أيضا ابنة الخليفة التي أرسلت الى الخاقان مانجو والتي يقال انها عندما وصلت الى سمرقند استأذنت المرافقين لها في ان تزور قبر قثم بن العباس (١) ولما أجابوها الى طلبها وقفت على القبر وقالت : « ربى ، اذا كان لقثم بن العباس عندك قدر فاقبض عبدتك اليك ونجها من أيدي هؤلاء الناس » واستجاب لها ربها وسقطت على القبر ميتة (٢) .

وكانت واقعة بغداد وقتل الخليفة من أعظم الوقائع ، قال الشيخ شمس الدين الكوفي يذكر خراب بغداد وينوه بقتل الخليفة وأسرته :

عندى لاجل فراقكم آلام
فالام أعذل فيكم والام
من كان مثلى للحبيب مفارقا
لا تعذلوه فالكلام كلام

(١) هو قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم أخو عبد الله بن العباس . حرج مع سعيد بن عثمان بن عفان الى سمرقند فاستشهد هناك (الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ . ج ٥ ، ص ٢٣١) .

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 244-246. Coke, Baghdad, p. 151.

قف فى ديار الظاعنين ونادها
يا دار ما صنعت بك الأيام
يا دار أين الساكنون وأين
ذياك البهاء وذلك الاعظام
يا دار أين زمان ربك مونقا
وشعارك الاجلال والاكرام
يا دار مذ افلت نجومك عمنا
والله من بعد الضياء ظلام
فلبعدهم قرب الردى ولفقدهم
فقد الهدى وتزلزل الاسلام
فمتى قبلت من الأعادى ساكنا
بعد الأجابة لا سقاك غمام

كما ذكر أيضا يرثى أهلها (١) :

ان لم تقرح أدمعى أجفانى
من بعد بعدكمو فما أجفانى
انسان عيني مذ تناءت داركم
ما راقه نظره الى انسان
ما للمنازل أصبحت لا أهلها
أهلى ولا جيرانها جيرانى

(١) فوات الوفیات ح ١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

وحياتكم ما حلها من بعدكم
غير البلى والهدم والنيران
مالي أردد ناظري ولا أرى
الأحباب بين جماعة الاخوان

وبعد أن استولى الجيش المغولي على بغداد ونهبها وقتل سكانها وبعد أن قتل هولاء الخليفة وأعوانه وأفراد أسرته، أصبح الأمر في هذه المدينة لهولاءكو * ولذلك نجده في نفس اليوم الذي تخلص فيه من الخليفة يعين الحكام فيها وفيما جاورها من البلاد، فيجعل على بهادور حاكما عليها ويحتفظ لابن العلقمي بالوزارة ويجعل فخر الدين الدامغاني صاحب الديوان ويسلم أحمد بن عمران ادارة المناطق الواقعة شرق بغداد ، ويعين نظام الدين عبد المؤمن قاضيا للقضاة (١) . هذا وقد كان في عدم ذكر الخليفة في الخطبة في يوم الجمعة التالي لوقوع بغداد في أيدي المغول (٢) اعتراف ضمني بالأمر الواقع زاده تأكيدا تلك الفتوى التي أصدرها علماء الشريعة الاسلامية في الاجتماع الذي عقده في المدرسة المستنصرية ، حيث طرح عليهم هولاءكو هذا السؤال : «أيهما أفضل : السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟» ، وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفصل على المسلم الجائر (٣) .

وأحب أن أنه في هذا المقام بأن علماء المسلمين حين وأفتوا بأن الكافر العادل يجب أن يفصل على المسلم

D'Ohsson, Tome III, pp. 246-248.

Howorth, Vol. I, p. 201.

Quatremere, p. 309.

D'Ohsson, Tome III, pp. 250-254.

Ibid, pp. 254-255.

(١)

و

و

(٢)

(٢)

لمصلحة القوى تحت ضغط الخوف ولم يكن موقفهم هذا فريداً في بابيه ، بل ان التاريخ يوضح لنا أن الناس دائماً يميلون مع القوة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ومراكزهم ، والا فكيف نفسر موقف البابا زخارياس zacharias حين أرسل اليه بيبيين Pippin ابن شارل مارتل Charle Martel حاجب قصر الفرنجة وصاحب الأمر والنهي في المملكة يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكاً : أهو صاحب اللقب الذي لا قوة عنده أم صاحب القوة الذي لا يحوز لقباً ؟ ورد عليه بأن صاحب القوة يجب أن يحوز اللقب أيضاً ويصبح ملكاً . وبذلك شجعه على خلع آخر ملك من الفرع الميروفنجي Merovingians الذي أسسه كلودويج Clodwig ملك الفرنجة المتوفى سنة ٥١١م والقضاء على حق موروث بالقوة القاهرة سنة ٧٥١م (١) .

ولو أن هولاكو لم يكن مطمئناً الى أن بغداد قد أصبحت في قبضة المغول نهائياً ، لما رفع معسكره من جوار قرية وقف في يوم الجمعة ٣٠ من صفر سنة ٦٥٦هـ (٨ مارس سنة ١٢٥٨م) ليصل بعد نحو خمسة أسابيع (١١ ربيع الآخر = ١٧ أبريل) قرب همدان ، غير تارك في بغداد سوى ثلاثة آلاف فارس مغولي على رأسهم الكانويان وقره بقا Cara Boca (٢) .

(و) اتمام فتح العراق : بعد فتح بغداد لم تبق أمام المغول أية مقاومة في العراق ، وقد ذكر لنا المؤرخون أن أهل حلة من الشيعة أرسلوا الى هولاكو وهو يحاصر بغداد

(١) Thatchor & Schwill, A General History of Europe, Vol. I, 42.

(٢) D'Ohsson, Tome III, pp. 248, 256.

Quatremere p. 309.

يقدمون خضوعهم ويلتمسون ارسال حاكم عليهم من قبله
ويذكرون له أن الأحاديث التي تناقلوها عن الامام على
والأئمة الاثنى عشرية تؤكد نجاحه في القضاء على الخليفة
العباسي . ويذكر المؤرخون أيضا أن هولاء اجابهم الى
ما طلبوا وأرسل اليهم بفاتيمور زوج أخته على رأس قوة
مغولية حتى يتأكد من اخلاصهم ، وأنهم قابلوه بالترحاب
وأقاموا على الفرات جسرا عبر عليه هو ومن معه الى بلدهم .
وقد اقتنص بفاتيمور هذه الفرصة ليخضع جنوب العراق
لسلطان المغول فسار الى واسط وحاصرها بقواته في ١٧
صفر سنة ٦٥٦ هـ (٢٣ فبراير سنة ١٢٥٨ م) . ولما
قاومته فتحها بالقوة وقتل الكثيرين من أهلها ، وقد ذكروا أن
عدد القتلى بلغ أربعين ألفا . وبعد ذلك استولى على تستر
والبصرة وغيرها من البلاد . ثم رجع الى بغداد في ١٢ ربيع
الأول من نفس السنة ، بعد أن أتم فتح العراق العربي
وانضم الى القواد الذين تركهم هولاء في بغداد (١) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 254-256.

Howorth, Vol. I, p. 202.

Quatremere, p. 311.

(١)

و

و

الفصل الثالث

موقف أهل بغداد من الفتح

رأينا فيما تقدم أن أهل بغداد كانوا طوائف مختلفة .
منهم أهل السنة الشيعة والنصارى واليهود ، كما رأينا أن
لكل طائفة ميولا خاصة بها ومركزا يختلف عما لسواها .
وسنرى فيما يلي أن موقف كل طائفة من هذه الطوائف ازاء
غارة المغول اختلف تبعا لميولها ومصالحها . أما أهل السنة
الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من الأهلى فقد دافعوا
دفاع المستميت خوفا على نفوذهم ، وأما من كان يجد فى
الحالة الراهنة عبئا عليه فقد اقتنص هذه الفرصة ليحرر
نفسه من القيود ويتخلص من هذا العبء . والآن سنتناول
الكلام بشيء من الايجاز عن موقف كل من هذه الطبقات .

١ - موقف أهل السنة

كانت هذه الطائفة هى صاحبة الأمر فى بغداد لأن
مذهبها هو مذهب الخليفة العباسى صاحب الأمر والسلطان
وكانت تعتبر سقوط بغداد سقوطا لها وضياعا لنفوذها ؛
لذلك كانت هى التى وقفت أمام المغيرين وهى التى لاقت من
ظلمهم الشيء الكثير . وقد كان رأس هذه الطائفة الخليفة
المستعصم وأتباعه الدفتردار الصغير وسليمان شاه . وإذا

أردنا أن ندرس موقف هذه الطائفة وجب أن نتكلم عن موقف كل من هذه الشخصيات الثلاث لأن الجميع كانوا يسرون وراءهم ويأتمرون بأمرهم .

(أ) **الخليفة المستعصم** : أما الخليفة المستعصم فكان تقيا طيب القلب الا ان آفته كانت في ضعف ارادته وانقياده لأتباعه وتردده ، وهو من هذه الوجهة كلويس السادس عشر والتبعة التي تقع عليه في سقوط بغداد كالتبعة التي تقع على لويس السادس عشر في قيام الثورة الفرنسية . فكما أن آباء لويس السادس عشر أورثوه فيما أورثوه له عوامل الثورة الفرنسية ، كذلك أورث الخلفاء السابقون عوامل ضعف الدولة العباسية وانهيارها للمستعصم . وكما أن لويس السادس عشر ارتكب بضعف ارادته وتردده وانقياده للملكة ماري أنطوانييت والأشراف أغلاطا جرت عليه الثورة من الشعب وفقدان ملكه وحياته ، كذلك المستعصم بانقياده للدفتردار الصغير وسليمان شاه وضعف ارادته جر على نفسه وعلى الاسلام الدمار . ولو أنه نفذ نواياه وجرى على خطة اختطها لكان من الجائز أن تتخذ الحوادث مجرى غير الذي سلكته . فقد كان من أول الأمر - وعندما وصل اليه خطاب هولاءكو يعتب عليه فيه عدم مساعدته له ضد الاسماعيلية ويدعوه الى التسليم - يتفق مع وزيره ابن العلقمي في ضرورة مسالة المغول واستمالتهم بالمال ، ولكنه لم يلبث غير قليل حتى عدل عن رأيه هذا بسبب تردده وانقياده واتبع رأى الدفتردار الصغير وسليمان شاه الذي يقضى بمقاومة المغول ، ولذلك نجده يرسل خطابه الثانى المملوء بعبارات التهديد الى هولاءكو ، ثم يتابع سياسة العداء ويقدم بذلك الى هولاءكو تكأة يعتمد عليها في تبرير خطته التي ترمى الى القضاء على

الدولة العباسية أمام الخان الأعظم مانجو الذى أوصاه بعدم مهاجمة الخلافة العباسية الا اذا وقف الخليفة منه موقف العداء والحرب كما تقدم *

ولو أن الخليفة المستعصم كان قوى الارادة حازما لما ضره أن يأخذ برأى الدفتردار وسليمان شاه الذى كان يقضى بضرورة المقاومة ، لكنه وقد عرف بالطيبة والضعف والبخل قد أخطأ خطأ عظيما حين اتبع مشورتهم * وينجلي ذلك من مجرى الحوادث ، فقد أمر الوزير وهو لا يزال متحمسا لفكرة الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند استعدادا للملاقاة المغول ، ولكنه بعد ذلك حين عاد الى حالته الطبيعية وأخبره الوزير بأنه قد جمع الجند وأنهم ينتظرون توزيع الاموال عليهم عاد فأهمل أمر التعبئة ولم يتكون الجيش اللازم لصد الأعداء (١) * اضيف الى ذلك انه بميله الى الحسب وضيق نظره كان يضيع الفرص اذا واثته ، وليس أدل على صحة ما نقول من أنه لم يحرك ساكنا حين أخذ هولاءكو يمهّد الأمر لغزو بغداد واستمال حسام الدين حاكم مدينة ديرتنك وما جاورها * وعلى الرغم من عمل حسام الدين هذا للتقرب من الخليفة وتكليفه ابن صلايا صاحب أربل بالتوسط بينهما ، فانه لم يطلب للأمر وأوضاع هذه الفرصة الذهبية - فرصة كسب صاحب ديرتنك الذى كان فى مقدوره أن يقف فى وجه المغول ويحول دون مواصلتهم السير الى بلاده ولو الى حين (٢) *

D'Ohsson, Tome III, p. 221.

(١)

Quatremere, p. 249.

و

D'Ohsson, Tome III, pp. 222-224.

(٢)

Quatremere, pp. 255-257.

و

كذلك كان من أثر تردد الخليفة وضعف ارادته ضياع حياته ، لأنه حين استولى المغول على الأسوار الشرقية وأمر هولاكو بإقامة جسرين على دجلة شمالي بغداد وجنوبها وبذلك ضيق على بغداد الخناق ، عرض الدفتردار عليه فكرة الفرار عن طريق قناة دجيل والفرات ولكنه لم يبت في الأمر ، مما جعل الدفتردار يفكر في الفرار وحده على ما ذكرنا سابقا ، هذا الى أن تباطؤ الخليفة وبقائه في بغداد في الوقت الذي كان فيه المغول يشددون في حصارها كان معناه ضرورة تسليمه لهم في يوم من الأيام مادام لا يبدى نشاطا يستحق الذكر .

(ب) الدفتردار الصغير : كان الدفتردار الصغير رجلا انانيا يعمل لمصلحته ، وقد اتبع طرائق شاذة حتى نال الخطوة عند الخليفة وأصبح أمره نافذا في شئون الدولة ، فجمع الأوباش والعيارين حوله وأخذ يدبر المؤامرات لخلع الخليفة ويأتي بالأعمال المنكرة . ولكن موقفه ازاء الفتح لا غبار عليه . فقد سار من أول الأمر على رأس جيش الخليفة لانتظار هولاكو على حدود العراق الشرقية وصدده عند اللزوم ، وعسكر بين بعقوبا وباجسرا ، ولكنه رجع بهذه القوات قبل ملاقاته هولاكو عندما علم بأن بيجو نويان وزملاءه قد عبروا دجلة عند تكريت ويمموا شطر بغداد الغربية ، ولاقى جماعة من المغول وعلى رأسها سنجاك وهزمهم عند الأنبار ثم تبعهم حتى منطقة دجيل حيث دارت بينه وبين قوات بيجو نويان وزملائه معركة انتصر فيها أولا ولكنه اضطر الى الفرار والرجوع الى بغداد ، حين علم بأن المغول قد لجأوا الى الحيلة وأغرقوا معسكره ليلا (١) .

D'Ohsson, Tome III, pp. 230-232.
Quatremere, p. 281.

(١)

وقد ظل الدفتردار الصغير ببغداد الشرقية حتى ضيق هولاكو عليها الخناق ففكر في الفرار ، وبعد أن فشل في اقناع الخليفة بالفرار معه دبر أمر الفرار وحده وسار عن طريق دجلة جنوباً ولكن المغول كانوا قد اتخذوا الحيلة فأحبطوا عمله (١) . ولو أنه نجح في الفرار ، لكان من المحتمل أن يجمع جيشاً لمناوأة المغول في غير بغداد ، ولكن فشله قد جعل خضوع العراق أمراً محتوماً بعد سقوط بغداد .

وقد تبع ذلك خروج الدفتردار مع سليمان شاه في أول يوم من صفر سنة ٦٥٦ هـ وذهابه إلى هولاكو تنفيذاً لأوامر الخليفة ثم قتله هو وابنه في اليوم الثاني على ما ذكرنا .

(ج) سليمان شاه : لا يختلف الدور الذي قام به سليمان شاه عن الدور الذي قام به الدفتردار الصغير ، فقد كان سليمان شاه رجلاً عسكرياً أقنع الخليفة بضرورة مقاومة هولاكو ، وكان مما قاله له أنه مستعد للدفاع عن البلاد ضد المغول ، وان « أعز شيء للرجل الشجاع أن يموت وسط القتال » ، ولذلك عينه الخليفة قائداً للجيش ووكلاً إليه أمر الدفاع (٢) . وقد اشترك مع الدفتردار الصغير في الوقائع التي تقدمت الإشارة إليها كما قتل على يد هولاكو في يوم ٢ من صفر سنة ٦٥٦ هـ وقتل معه سبعمائة من أتباعه .

٢ - موقف الشيعة

أما الشيعة فكان موقفهم ازاء الفتح من أسوأ المواقف ، لم يراعوا معاملة العباسيين لهم بالحسنى طوال مدة خلافتهم

Ibid, pp. 291-293.

(١)

D'Ohsson, Tome III, p. 235.

د

D'Ohsson, Tome III, p. 220.

(٢)

Quatremere, p. 244.

و

ولم يراعوا أن العراق وطنهم يجب الدفاع عنه أمام غارة المغيرين . وقد حاول بعض المؤرخين من الشيعة أن يدافع عن موقفهم الشاذ ويجد لهم عذرا فذكر أنهم تأثروا لأنفسهم مما حل بهم من البلاء في الفتنة التي وقعت ببغداد سنة ٦٥٥ هـ على أيدي أهل السنة ورجال الشرطة الذين هاجموا محلات الشيعة وارتكبوا كثيرا من الجرائم . ولكنني لا أجد في هذا ما يبرر عملهم . وأرى في الوقت نفسه أن أهل السنة وإن كانوا قد بطشوا بهم بعض البطش فليس ذلك ببالغ معشار ما ارتكبه الشيعة في أيام الدولة البويهية الشيعية ، فقد قال هلال الصابىء : « كانت طائفتهم (يقصد طائفة الشيعة) قد أسرفت بالتبسط والتسلط وركوب المنكرات واتيان المحظورات » (١) .

بدات نوايا الشيعة في الظهور عندما راوا قوات المغول تطوق بغداد . فقد بذلوا كل ما في استطاعتهم لمساعدتهم في هجومهم كما أن المقيمين منهم في حلة أرسلوا الى هولاكو وهو يحاصر بغداد وفدا يحمل رسالة يذكر فيها انه لا بد منتصر على الخليفة ، طبقا لحديث أثر عن الامام على والأئمة الاثنى عشرية ويطلبون منه أن يعين حاكما عليهم ، وقد أجابهم الى ما طلبوا وأرسل اليهم بغاتيمور أخا أولجاي خاتون زوجته ليتبين حقيقة ميولهم ، فقابلوه بالترحاب وأقاموا له جسرا على نهر الفرات ، كما كافأهم على مسلكهم هذا فوضع بناء على طلبهم مقابر على والحسين تحت حراسة مائة جندي مغولي ، في الوقت الذي قام فيه المغول بأعمال التدمير والنهب في بغداد (٢) .

(١) هلال الصابىء - ذيل الذيل لتجارب الأمم ، ص ٢٣٩ .

(٢) Quatremere, p. 311. و Coke, Baghdad, p. 149.

Howorth, vol. I, p. 202. و D'Ohsson, Tome III, p. 255.

وقد جاء فى كتاب الخميس ما يأتى : « وأما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد من أن التتار يبذلون السيف فى أهل السنة فجاء بخلاف ما أراد وبذلوا السيف فى أهل السنة والرافضة كلهم (١) » ، كما ذكر ابن شاکر الکتبى (٢) فى ممرض كلامه على الوزير مؤيد الدين بن العلقمى أيضا « حكى أنه كان جالسا بالديوان فدخل عليه بعض التتار ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فسار الى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد وبالفرس على البساط وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وأنه بلغ مراده ، وقال له بعض أهل بغداد يا مولانا انت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قل من الأشراف الفاطميين خلقا (كذا فى الأصل وصحتها خلق) لا يحصى وارتكبت الفواحش مع نساءهن ، فقال بعد ان قتل الدوادار (الدفتردار) ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك » . ومعنى ذلك أن الشيعة قد حل بهم فى أثناء الاضطرابات ما حل بأهل السنة ، وهذا بعيد لا أصدقه خصوصا اذا علمنا أن ميدان فضاء المغول كان بغداد الشرقية التى لم يسكنها الشيعة ، كما نعلم أنه حين دخل المغول بغداد الغربية وتحول أهل السنة الى بغداد الشرقية ظل هؤلاء الشيعيون فى أماكنهم ولم يبرحوها . وليس من المعقول أن تكون العلاقة بين هؤلاء والشيعية على ما ذكرنا فى أثناء الحصار ثم لا يحميهم من جنده وهو الذى أرسل مائة من جنوده لحماية قبر من يتشيعون له ، كما أنه هو الذى عين فخر الدين الدامغانى صاحب الديوان ببغداد ونظام الدين عبيد المؤمن قاضيا لقضاتها وهما من الشيعة . وعلى كل حال ، فانه اذا كان قد

(١) الخميس . ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

حل بالشيعة عنت ما ، فانه لا بد أن يكون قليلا بالنسبة لما حل بأهل السنة .

(أ) موقف الوزير ابن العلقمى : . ومما يوضح هذا الموقف الذى وقفته الشيعة ما فعله مؤيد الدين بن العلقمى وهو كما نعلم من أكبر الشخصيات البارزة فيهم . فانه على الرغم من أنه كان وزير الخليفة المستعصم لم يسلم من وصمة الخيانة ولم ينزله كثير من المؤرخين عما فعله غيره من الشيعة . وسنحاول فيما يلى أن نفصل الكلام عن آراء المؤرخين فى موقف ابن العلقمى من الفتح المفلو لبغداد ثم ندلى برأينا بعد ذلك .

١ - المؤرخون الذين يتهمون ابن العلقمى بالخيانة وأقوالهم : تنقسم المراجع الأصلية التى تكلمت عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى الى قسمين أحدهما يحمل أصحابه وهم من الفرس والعرب على السواء على الوزير حملة شديدة ويتهمونه بالخيانة ولا يكادون يتركون شيئا فى سبيل الصاق هذه التهمة به . وهؤلاء يدينون بعقائد المذهب السنى الذى يختلف عن المذهب الشيعى الذى يدين بعقائده الوزير ، وهم فى الوقت نفسه كثيرون ، وليس من عجب فى ذلك اذا علمنا أن العصر الذى تلا سقوط بغداد كان لا فيه كتاب الا وعليه هذه العبارة : « لعن الله من لم يلعن ابن العلقمى » . ومن بين هؤلاء المؤرخين ابن شاکر فى كتابه فوات الوفيات وأبو الفدا فى كتابه المختصر فى أخبار البشر والديار بكرى فى كتابه الخميس فى أحوال أنفس نفيس وابن خلدون فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر المشهور باسم تاريخ

ابن خلدون والسيوطي في كتابه الخلفاء والمقرئزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك والحافظ شمس الدين الذهبي في كتابه دول الاسلام ، وهؤلاء كلهم من مؤرخي العرب (١) . ومنهاجي سراج صاحب كتاب طبقاتي ناصري وميرخند ووصاف الحضرة الذين كتبوا في حكم أحد المغول وهم من الفرس .

ويتلخص رأى أصحاب هذا الفريق من المؤرخين في رمى ابن العلقمي بالتهمة الآتية :

أولاً : أنه حث المغول على الاستيلاء على بغداد . وفي ذلك يقول المقرئزي (٢) : « انه استجر التتار حتى كان ما كان » ، ويقول أبو الفدا (٣) : « انه أرسل الى التتر أخاه يستدعيهم » ، بينما يذكر ابن خلدون (٤) أن الوزير أوصى ابن الصلايا صاحب أربل وهذا أرسل كتابا الى هولاءكو وهو في طريقه الى قلعة الموت يستحثه للمسير الى بغداد ويسهل عليه أمرها . أما ابن شاكر (٥) ، فقد أظهر الوزير بمظهر الماكر الغادر حيث يقول : « انه لما كان يكتب التتار تحيل الى أن أخذ رجلا وحلق رأسه حلقا بليغا وكتب ما أراد عليه بالابر ورفض عليه الكحل وتركه عنده الى أن طلع شعره وغطى ما كتب فجهزه وقال اذا وصلت مرهم بحلق رأسك

(١) يمكننا أن نضيف الى هؤلاء القلقشندى فقد ذكر في كتابه صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٢٧٧ أن الوزارة ظلت في الدولة العباسية حتى انقرضت بقتل التتار المستعصم سنة ٦٥٦ هـ ثم قال « وزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمي وقتله هولاءكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لمالاته على المستعصم مع التتار ، غير أن القلقشندى متأخر كما أنه يخالف جميع المؤرخين في قوله ان هولاءكو قتل ابن العلقمي .

(٢) المقرئزي - السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٢ .

(٣) أبو الفدا ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٥) فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٥٢ .

ودعهم يقرّون (هكذا) ما فيه « ولم يهمل الذهبى الصاق هذه التهمة بالوزير فذكر (١) : « أنه أخذ يكاتب التتار ويراسلونه والخليفة غافل » .

ثانيا : انه مهد لانتصار المغول بأن أقنع الخليفة بانقاص الجند ودعاه الى بذل المال المتوفر من ذلك فى استمالة المغول ،
وقد قال الديار بكري (٢) : « فان وزيره (يقصد وزير المستعصم) ابن العلقمى الرافضى كان كتب كتابا الى هولاءكو ملك التتار فى الدشت (هكذا) أنك تحضر الى بغداد وانا أسلمها لك » وكان قد داخل قلب اللعين الكفر ، فكتب هولاءكو أن عساكر بغداد كثيرة فان كنت صادقا فيما قلتة وداخلا فى طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر . فلما وصل كتابه الى الوزير دخل الى المستعصم وقال ان جندك كثيرة وعليك كلفة كبيرة والصدوق قد رجع من بلاد العجم والصواب انك تعطى دستور الخمسة عشر ألفا من عسكرك وتوفر معلومهم » فأجابه المستعصم لذلك ، فخرج الوزير لوقتة ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الاقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ، ثم كتب الى هولاءكو بما فعل . وقال السيوطى (٣) عند كلامه على الخليفة المستعصم : « وكان أبوه المستنصر قد استكثر من الجند جدا وكان مع ذلك يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، فلما استخلف المستعصم كان خليا من الرأى والتدبير فأشار عليه

(١) دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٢) الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٣) السيوطى - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

الوزير بقطع أكثر الجند وأن مصانعة التتار واکرامهم يحصل به المقصود • ففعل ذلك • ولم يخالفهم المقریزی (١) بل قال انه قطع أرزاق الجند •

ثالثا : ولم يكتف أفراد هذا القسم الأول بالصاق التهمتين السابقتين وهما مراسلة التتار واستدعائهم لفتح بغداد ثم التمهيد لهم بانقاص جيش الخلافة ، بل أضافوا الى ذلك تهمة أشد ورموه في الصميم حين ذكروا أنه عندما استجاب المغول دعوته وجاءوا الى العراق أخذ يساعدتهم ضد الخلافة العباسية التي يتولى وزارتها بثشي الطرائق ، فمن ذلك انه كان اذا جاء خبر من التتار كتبه عن الخليفة وكان يطالع بأخبار الخليفة التتار (٢) « • هذا الى أنه أرسل أتباعه ليلاً فقطعوا دجلة وأغرقوا معسكر الدفتردار الصغير (٣) وبذلك مكنوا المغول من الانتصار في منطقة دجيل بعد أن هزموا في الأنبار • وأهم من ذلك أنه أقنع الخليفة بالخروج من بغداد ومقابلة هولاء كما أخرج منها كثيرا من العلماء وكان بذلك سببا في قتلهم وتسليم بغداد ، وفي ذلك يقول ابو الفدا (٤) : « وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي الى هولاء فتوثق منه لنفسه وعاد الى الخليفة المستعصم وقال ان هولاء يبقون في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد ان يزوج ابنته من ابنك أبي بكر ، وحسن له الخروج الى هولاء فخرج اليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمثال فاجتمع

(١) المقریزی - السلوك - لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤١٣ •

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ •

(٣) الديار بكری - الخميس في أحوال أنفس نفيس ج ٢ ، ص ٤٢٠ •

(٤) أبو الفدا - المختصر في أخبار البشر ج ٢ ، ص ٢٠٢ •

هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان بينهم محيي الدين ابن الجوزي وأولاده ، وكذلك بقي يخرج الى التتر طائفة بعد طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم » وذكر السيوطي (١) أيضا : « ولما دخلت سنة ٦٥٦ هـ وصل التتار الى بغداد وهم مائتا ألف ويتقدمهم هولاءكو ، فخرج اليهم عسكر الخليفة فهزم العسكر ودخلوا بغداد يوم عاشوراء ، فأشار الوزير - لعنه الله - على المستعصم بمصانعتهم وقال أخرج اليهم أنا في تقرير الصلح ، فخرج وتوثق لنفسه منهم وورد الى الخليفة وقال ان الملك قد رغب في ان يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ويبقيك في منصب الخلافة كما بقي صاحب الروم في سلطنته (كذا) ولا يريد الا أن تكون الطاعة له كما كان من أجدادك مع السلاطين السلجوقية وينصرف عنك بجيوشه فليجب مولانا الى هذا فان فيه حقن دماء المسلمين ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد ، والرأي أن تخرج اليه » فخرج اليه في جمع من الأعيان فأنزل في خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والأمثال ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم » ولم يختلف ما ذكره الديار بكرى أو الذهبي (٢) في ذلك عما تقدم .

هذا ولم يغفل هؤلاء المؤرخون عن ذكر بعض الأسباب القوية التي دفعت مؤيد الدين محمد بن العلقمي الى هوة الخيانة . ومن تلك الأسباب حنق الوزير على الخليفة المستعصم لتقديمه الدفتردار الصغير عليه وغل يده بعد ان كان متصرفا في جميع الشئون . وقد أدلى ابن شاکر بهذا

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء . ص ١٨٦ .

(٢) الديار بكرى - الخميس ج ٢ ص ٤٢٠ ، والذهبي - دول الاسلام ، ج ٢ ، ص

السبب (١) ولم يكتف بذكره مجردا ، بل حاول أن يزيد في أهميته وذكر أن المغول بعدما نالوا ما يريدون عاملوا الوزير معاملة سيئة وأن الناس ذكروا ذلك للوزير فقال لهم : « بعد أن قتل الدوادار ومن كان على رأيه لا مبالاة بذلك » كما أتى أيضا بشعر ونسبه الى الوزير محاولا أن يثبت أن الوزير أحسن بضياع نفوذه وأنه غضب له ، وها هي الأبيات :

وزير له من بأسه وانتقامه

بطل رقا ع حشوها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهي حمامة

وليس لها نهى يطاع ولا أمر

وقد ذكر السيوطي (٢) ما يثبت أن الوزير كان يأمل رجوع نفوذه على أيدي المغول . حيث قال : « ان الوزير كاتب التتار وأطمعهم في البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعده بذلك » .

وهناك سبب آخر ذكره المؤرخون هو انتقامه لطائفته الشيعة لما نزل بها من أعمال الظلم والعنف على أثر فتنة قامت بينها وبين أهل السنة سنة ٦٥٥ هـ وتدخل ابن الخليفة أبو بكر والدوادار وأمروا الشرطة فنهبوا الكرخ محلة الشيعة وأسأوا الى الأهليين ، وقد ذكر هذا السبب أبو الفدا والديار بكري - أما أبو الفدا فقال عند كلامه على سنة ٦٥٦ هـ (٣) : « في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتار بغداد وملكها في العشرين من المحرم وقتل الخليفة المستعصم بالله ، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمي

(١) فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

(٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٧ .

(٣) أبو الفدا - المختصر ، ج ٣ ص ٢٠٢ .

كان رافضيا وكان أهل الكرخ أيضا روافض ، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جرى عادتهم ، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر ، فنهبوا الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش ؛ فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي وكاتب التتر وأطعمهم في ملك بغداد » * وقال الديار بكري (١) : « وفي سنة خمس وخمسين وستمائة نارت فتنة مهولة ببغداد بين السنية والرافضة أدت الى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتنمر ابن العلقمي الوزير وجر التتار على العراق ليشتفي من السنية » *

وهناك سبب ثالث يضاف الى هذين السببين هو رغبة ابن العلقمي في ازالة الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية محلها . وقد ذكر الذهبي (٢) أن : « ابن العلقمي الرافضي جهد أن يزيل دولة بني العباس ويقيم علويا » * كما ذكر الديار بكري (٣) : « وكان قصد الوزير بمجيء هؤلاء اشياء منها أنه كان رافضيا خبيثا وأراد أن ينقل الخلافة من بني العباس الى العلويين » وقال السيوطي (٤) أيضا : « ركن المستعصم الى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وناصحهم في المجيء الى العراق وأخذ بغداد وقطع الدولة العباسية ليقوم خليفة من آل علي » *

واذا كنا قد ذكرنا أن ميرخند ووصاف الحضرة ومنهاجي سراج من ضمن أفراد هذا القسم الأول الذي يتهم الوزير

(١) الديار بكري - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٢) الذهبي - دول الاسلام ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٣) الديار بكري - الخميس ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

(٤) السيوطي - تاريخ الخلفاء ، ص ١٨٦ .

ابن العلقمى بالخيانة ، فليس ذلك منا الا اعتمادا على ما ذكره بعض مؤرخى الفرنجة ، اذ ان سيد أمير على (١) يذكر أن ميرخند ووصاف الحضرة من ضمن المؤرخين الذين يرون أن الوزير مؤيد الدين بن العلقمى كان خائنا كبيرا ، كما أن براون (٢) يذكر لنا أن منهاجى سراج صاحب كتاب طبقاتى ناصرى اتهم الوزير بالخيانة ويصمه بأنه أنقص قوات الخليفة وأقنعه بالتسليم لهولاكو ويرجع ذلك الى طمعه ورغبته فى الانتقام لطائفته مما حل بها على أيدي ابن الخليفة الأكبر من العنت والارهاق ، ويستعمل أشنع الأوصاف اذا ما تكلم عنه وينزل عليه أشد اللعنات . ولم ينس دوسون ان يذكر لنا شيئا يوضح رأى وصاف الحضرة فى الوزير ، ومن ذلك ما نقله عنه من قوله (٣) « أخطأ ابن العلقمى فى حسابه حين ظن أنه سيحوز حكومة بغداد لأن ابن عمران هو الذى حاز هذا المركز وضم اليه ابن العلقمى لذلك أخذ هذا يعدل عن سياسته التى تنطوى على الخيانة بعد أن رفض طاعة الخليفة وأصبح تابعا لحاكم بعقوبا » . كذلك ذكر دوسون رأى ميرخند فى الوزير بقوله ان ما ذكره ميرخند لا يختلف الا قليلا عما ذكره الذهبى ، بعد أن بين هذا يرى أن الوزير كاتب التتار وجرهم الى بغداد بعد أن أنقص جند الخلافة وأقنع الخليفة بعد ذلك بالتسليم (٤) . وعلى ذلك ، فان آراء وصاف الحضرة وميرخند ومنهاجى سراج والتهمة التى يرمون بها الوزير لا تخرج عما ذكرنا حين لخصنا آراء مؤرخى العرب .

Sayed Ameer Ali, A Short History of the Saracens, p. 396. (١)

Browne, Literary History of Persia, Vol. II, p. 464 (٢)

D'Ohsson, Tome III, p. 252, Note I. (٣)

Ibid, p. 253, Note, I. (٤)

٢ - المؤرخون الذين يبرئون ابن العلقمى وأقوالهم :

أما القسم الثانى من المؤرخين فلا يتهم أفرادهم مؤيد الدين بن العلقمى بالخيانة ، بل يحاولون أن يظهره بمظهر الوطنى الغيور ، ومنهم ابن طباطبا صاحب الفخرى فى الآداب السلطانية ورشيد الدين الذى ترجم كترمير Quatremere جزءا من كتابه جامع التواريخ وسماه Hist-des Mongols تاريخ المغول . وقد سلك هؤلاء المؤرخين طريقا يختلف كل الاختلاف عن الطريق الذى سلكه الأولون . فابن طباطبا يذكر بصريح العبارة ما يأتى عند كلامه على ابن العلقمى : « ونسبه الناس الى انه خامر ، وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة (يقصد دولة الخانات فارس) فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير (ابن العلقمى) واحسن اليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه » . ويروى ابن طباطبا بعد ذلك هذه الحكاية ، زاعما أنها تبرئ الوزير (١) : « حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاک وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين بن العلقمى قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير اليه . قال : فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه فقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغى أن تخرج اليه . فخرج الوزير من ذلك وقال : يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام ؟ فقال له الخليفة لا بد من أن تخرج . قال : فقال : السمع والطاعة . ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج ، فلما حضر بين يدي السلطان وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان وكان الذى تولى تربيته (كذا فى الأصل ولعلها

ترتيبه بمعنى ادخاله على السلطان للمثول بين يديه كما يفعل الأمناء في الوقت الحاضر) في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسي - قدس الله روحه - فلما فتحت بغداد سلمت اليه والى على بهادر الشحنة فمكث الوزير شهورا ثم مرض ومات رحمه الله في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة * .

أما رشيد الدين (١) فيتكلم عن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي باعتباره رجلا مخلصا يريد للخلافة كل خير ولكنه يخالف غيره من اتباع الخليفة فيرى ضرورة مسالة المغول واستمالة هولاء بالمال ، ويذكر من أقواله : « ببذل المال يمكننا ان نتغلب على منافس كهذا » ولذلك دعا الخليفة المسنعم - بعد أن تسلم خطاب هولاء الثاني الذي ارسله اليه من همدان يدعو الى الاستعداد للحرب - الى تقديم الخيل العربية المطهمة الى أمراء هولاء وارسال الرسل العقلاء لنسبه هذا الى التسليم بالخطبة له وصك العملة باسمه * وقد كان الدفتردار الصغير وسليمان شاه قائد جند الخليفة يريان غير رأييه في ضرورة مقاومة المغول بالقوة ، ولذلك ترى رشيد الدين يذكر في أكثر من موضع ، أن الدفتردار الصغير هو الذى اتهم الوزير بممالة المغول ، من ذلك ما ذكره أن الوزير ابن العلقمي أخبر الخليفة بما كان يدبره الدفتردار وأعوانه من المؤامرات والمكايد ، حتى ان الخليفة استدعى الدفتردار وسأله عن حقيقة تلك المؤامرات ثم أمره بالاقلاع عنها ، فقال له الدفتردار ان « الوزير رجل مضلل أقصته نزغات الشيطان عن الطريق المستقيم ، وأدى به عقله المظلم الى مساعدة

هولاكو والجيش المغولي • ولقد حاك المكائد ضدى حتى يحول الشكوك التى تحوم حوله • ولا شك أنه عدو الخليفة وأنه يتآمر لمصلحة هولاكو ، حتى انهما يتبادلان الجواسيس والأخبار بعضهما مع بعض » • ومن ذلك أيضا ما ذكره نفس المؤلف عند كلامه على الوقت الذى أعقب المراسلات بين هولاكو والخليفة فقد قال : « فى هذه الفترة كان الدفتردار عدو الوزير وأعوانه الذين كانوا من عامة الشعب ومن المشاغبين فى بغداد يقولون ، ان الوزير على اتفاق مع هولاكو خان وانه يرغب فى نصره هذا الأمير وفى ضياع الخلافة ويعمل على تدبير مؤامرة ترمى الى تحقيق سياسته » • وعلى كل حال ، فان رشيد الدين لا يظهر أقل شك فى سيرة الوزير بل ويحاول أن يوهم القارىء بأنه رجل يعمل على انقاذ الخلافة من محنتها وأن الخليفة ظلمه حين قرب الدفتردار الصغير وجعل له الكلمة النافذة فى الوقت الذى شل فيه يد الوزير ابن العلقمى •

٣ - مجهود الفرنجة فى بحث موقف ابن العلقمى : الآن وقد انتهينا من سرد آراء أصحاب المراجع الأصلية من عربية وفارسية فى الحكم على الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى وجب علينا أن نذكر آراء مؤرخى الفرنجة المحدثين فى هذا الموضوع • ومن الغريب أن نجد هؤلاء المؤرخين الذين لم يدعوا موضوعا الا وكشفوا عن مجاهله حين يتكلمون فى هذا الموضوع لا يأتون بجديد ، بل يخرجون منه كما دخلوا فيه ، ثم لا يسعهم الا الاقرار بأن الباب مازال مفتوحا للبحث والتنقيب •

وقد يكون أسبرن Osborn صاحب كتاب الاسلام فى عهد خلفاء بغداد أقل مؤرخى الفرنجة اهتماما بهذا الموضوع؛ لأنه اذا ما تكلم عنه ظهر لنا اقتناعه بخيانة الوزير ابن العلقمى فسرده ما قاله أصحاب القسم الأول فيه من انه دعا المغول للقضاء على الخلافة العباسية ، ومهد لهم بانقاص قوات الخلافة (١) .

ويأتى فى الصف الثانى السيد أمير على فى كتابه موجز تاريخ الأمم الاسلامية وسير وليام ميور فى كتابه الخلافة قيامها وانحلالها وسقوطها ، فانهما اكتفيا بالقول بأن هناك مؤرخين يتهمون ابن العلقمى بالخيانة وآخرين يعسبرونه وطنيا غيورا ولكنهما لم يبديا رأيا خاصا أو يأخذا باحد الرايين * قال السيد أمير على فى هذا الصدد (٢) : « ويقال انه - أى مؤيد الدين محمد بن العلقمى - دعا التتار للحضور الى بغداد ، وقد وصف مؤرخو العرب من أمثال ابن خلدون وأبو الفدا والمقرئى والسيوطى الوزير بأنه خائن ، وأيدهم فى ذلك ميرخند ووصاف * أما رشيد الدين وحده فيصفه بأنه خادم أمين كان يرغب كل الرغبة فى انقاذ البيت العباسى من السقوط المحقق ولكنه لم يكن له حول ازاء جنون الخليفة وتردده » على حين يقول سير وليام ميور (٣) : « ومن العجيب أن الوزير كان شيعيا * لذلك نرى المؤرخين السنين يحملون عليه بل ويتهمونه بالعمل ضد مواطنيه المنكوبين باتصاله بالمغول ، بينما يتكلم عنه غيرهم باعتباره وطنيا غيورا * والحقيقة أننا لا نرى حاجة الى البحث فيما وراء

Osborn, Islam Under the Caliphs of Baghdad, pp. 94-395. (١)

Sayed Ameer Ali. A Short History of the Saracens, p. 396 (٢)

Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall, p. 587. (٣)

أعمال الخليفة الجنونية واضطراب أمور مملكته المتداعية
إذا ما أردنا استقصاء أسباب هذا السقوط المريع .

أما هورث وريتشارد كوك فقد سارا خطوة أبعد ممن
ذكرنا فنراهما يميلان الى أحد هذين الرأيين دون أن يحكما
على ابن العلقمى كشخصية مستقلة بل كأحد أفراد الشيعة .
وفى ذلك يقول هورث (١) : « ويتهمه أغلبية مؤرخى المسلمين
بالخيانة ، ولما كان من طائفة الرافضة فقد كان طبيعيا أن
يفرح بالقضاء على نفوذ الأسرة العباسية واقامة نفوذ
العلويين ، ومن المحتمل أن تكون الفقرة (لعن الله من لم
يلعن ابن العلقمى) لها ما يحققها » . كما قال ريتشارد
كوك (٢) : « وقد لطح المؤرخون السنيون اسم الوزير .
ويجب أن نقول هنا ان الحوادث مضافا اليها عدم اخلاص
الشيعة الذين ينسب اليهم تؤدى الى الشك فى أنه كان على
اتصال مشين بالمفول . وقد كان الشعور ضده على أشده بين
أهل السنة ، حتى ان الكتب التى ظهرت بعد بسنين غدة
وكانت تدرس فى معاهد العلم الاسلامية كانت تحمل هذه
العبارة « لعن الله من لا يلعن العلقمى » وبصرف النظر عن
سلوك الوزير الشخصى فان مساعدة الشيعة الخونة
والمسيحيين للمفول لا تدع الا مجالا ضيقا للشك » .

وقد تكون أبعد خطوة فى بحث مسألة ابن العلقمى
وابدأ رأى فيها لدوسون وبراون . أما دوسون فانه بعد
أن أدلى بآراء المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمى بالخيانة
قال (٣) : « يتهم الوزير ابن العلقمى عادة بالخيانة . . . »

Howarth, History of the Mongols, Vol. I, p. 201. (١)

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152. (٢)

D'Ohsson, Histoire des Mongols, Tome III, pp 249, 252-254. (٣)

والحقيقة أن سلوكه يساعد على تحقيق هذا الرأي » . وأما براون فهو الوحيد من بين مؤرخي الفرنجة الذين اهتموا بهذا الموضوع ، فقد خصص له صفحتين في كتابه (١) وأتى برأى صاحب طبقاتي ناصري ممن يتهمون الوزير بالخيانة ثم برأى ابن طباطبا الذي يدافع عنه ، وذكر أنه يأسف حين يرى أن ما أتى به ابن طباطبا يمكن استعماله ضده ، وأخيرا أدلى برأيه قائلا ، انه لا يستبعد أن يكون ابن العلقمي قد اغتر بوعود المغول فاشترك مع نصير الدين الطوسي - الذي كان شيعيا مثله ، والذي سبق أن خان الحشيشة وحرص هولاكو على القضاء على الخلافة العباسية - في اقناع الخليفة بالتسليم للمغول وبذلك كان سببا في سقوط بغداد وقتل الخليفة . ويرى براون أن موت الوزير بعد قتل الخليفة بثلاثة شهور يؤيد رأيه في أن المغول استغلوه حتى حصلوا على ما يبتغون ثم نبذوه نبذ النواة . ولكنه في آخر الأمر يقول : « ومع ذلك ، فالمسألة مشكوك فيها وكل الاحتمالات تجعل وضوحها الآن على درجة من التحقيق مستحيلا ، لذلك يجب على من لا يتبع ابن الطقطقي في الدعاء للوزير بالرحمة ألا يؤيد على الأقل اللعنات التي صبها عليه مؤلف كتاب طبقاتي ناصري ، الذي أظهر تعصبا لأهل السنة أشد مما أظهره ابن الطقطقي للشيعية » . ومن ذلك نرى أنه قد ترك هذه المسألة دون أن تحل حلا نهائيا .

٤ - تحليل أقوال المؤرخين في موقف ابن العلقمي :

بقي علينا وقد استعرضنا آراء المؤرخين من أقدمين ومحدثين ومن عرب وفرس وفرنجة أن ندلي برأينا في هذا الموضوع

الدقيق . وسنتبع دون شك نصيحة براون فلن نغالى فى اتهام الوزير ولن نغالى فى تبرئته وانما سنحاول أن نتخذ لنا رأيا يؤيده الواقع وتسنده البراهين القوية . ونحب قبل أن ندلى برأينا أن نعلق على آراء الفريقين من أصحاب المراجع الأصلية كل بما يستحقه .

(أ) تحليل أقوال المؤرخين الذين يتهمون ابن العلقمى :

أما الفريق الأول الذى اتهم الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى بالخيانة فلا شك أنه بالغ كثيرا وحمل الحماس أكثر مما يجب أن تحمل . يتضح ذلك إذا ما تناولنا آراءه بالتحليل ، فمثلا اهتمام أفرادة بالقول بأن ابن العلقمى جرح المصول الى بغداد ومباغتتهم فى التبعة التى تقع عليه من وراء ذلك ، أمر يدل على ضيق نظرهم وجهلهم بالشئون الخارجية فى العالم اذ ذاك ، ولو أن محيط معارفهم كان متسعا لعلموا ان المجلس الذى اختار الخان الأعظم مانجو قرر ارسال حملة بقيادة هولاكو للقضاء على الحشيشية واخضاع الخليفة العباسى (١) ، ونو كانوا بعيدى النظر لعلموا أن الوزير لو فرض وأنه استدعاهم ما كان ليؤثر فيهم لو لم تكن دعوته موافقة لمبادئهم . كما أنهم حين ذكروا أن الوزير مهد للمغول بانقاص جند الخليفة لم يشذوا عن هذه القاعدة . ونحن من جانبنا لا يمكننا أن نقبل ما ذكروه فيها على علته ؛ لأننا نعلم أن الخليفة كان قد سلب كل السلطة من الوزير وأبعده عنه

Browne, Literary History of Persia. Vol. II, p. 452.

(١)

Camb, Med. Hist. Vol. IV, p. 641.

و

Howorth, Vol. I, p. 193.

و

وقرب الدفتردار وسليمان شاه (١) • وكيف يمكن للوزير في مثل تلك الظروف أن ينقص الجند ونحن نعلم في الوقت نفسه أن الدفتردار وسليمان شاه كان من رأيهما مقاومة المغول • ولو فرضنا أن الوزير كان قد مهد لهولاكو وانقص الجند قبل مجيئه بعدة سنين ، فلماذا لم يبادر الدفتردار وسليمان شاه بجمع الجند والاستعداد لملاقاة العدو بعد أن صار لهما الأمر والنهي • وقد ذكر أحد أفراد الفريق الأول كما سبق أن الوزير أرسل بعض أعوانه لقطع دجلة واغراق معسكر الخليفة عند دجيل ليلا ، ولا يمكننا أن نصدق هذا الخبر، لأن مثل هذا العمل يستدعي معرفة الوزير وتتبعه اخبار المعارك التي دارت بين جيش الخليفة والمغول أولا بأول • ولو علمنا أن الوزير في ذلك الوقت كان في بغداد بعيدا عن ساحة القتال وأن الحوادث كانت متلاحقة فانتصر جيش الخليفة على جيش سنجاك عند الأنبار في يوم ٩ المحرم سنة ٦٥٦ هـ ثم تبعه وتلاقى مع جيوش المغول التي كانت تحت قيادة بيجو نويان عند دجيل في اليوم التالي وانتصر عليها في آخر النهار ثم أغرق معسكر جيش الخليفة الذي أدى الى هزيمته في المساء (٢) — اذا عرفنا ذلك صعب علينا أن نصدق أنه كان للوزير دخل في هذه المسألة ، ولو أنه فعل ذلك فهل من المعقول أن يظل تدبيره خافيا على الخليفة ؟ واذا كان الخليفة قد علم به فهل من المعقول أن يظل الوزير في بغداد دون أن يلحقه أذى مع أن أعداءه الدفتردار وسليمان شاه كانوا يتربصون به الدوائر ؟ أضف الى ذلك أن الخليفة أرسله

D'Ollsson, Tome III, p. 214-2-5.

(١)

Quatremere, p. 229.

و

Ibid, pp. 279-281.

(٢)

عدة مرات في مراسلات الى هولاءكو، وهذه أمور لا تترك مجالا للشك في أن الخليفة كان يزال يثق به ، وان كان قد أعطى السلطة لأعدائه الدفتردار وسليمان شاه تحت ضغط الخوف وأنه لم يصله شيء عن عمل الوزير على اغراق الجيش * ومع ذلك فنحن نعلم أن مهاجمة الجيوش المغولية لبغداد الغربية دبرت فجأة ولم يعلم بها أحد في حاضرة الدولة العباسية بدليل أن جيوش الخلافة كانت على حدود العراق الشرقية ولم تتركها إلا بعد أن علمت بذلك الهجوم * هذا وقد ذكر براون أن اغراق معسكر الخليفة قام بتدبيره المهندسون الصينيون الذين كانوا يرافقون الجيش المغولي (١) ، كما ذكر دوسون أن المغول هم الذين أغرقوا السهل الواقع خلف معسكر جيش الخليفة (٢) ، وهذا القول أقرب في نظري الى الحقيقة *

وليست هذه الأمثلة هي كل ما يدل على شطط افراد الفريق الأول ، بل هناك مسألة أخرى لا تقل أهمية عما ذكرنا وهي مبالغة هؤلاء المؤرخين في أهمية اقناع الوزير للخليفة بالخروج الى هولاءكو ، كأنهم يعتقدون أنه لولا اقناع الوزير للخليفة وقوله ان هولاءكو يريد أن يزوج ابنته من ابنه أبي بكر لما خرج ، وهذا خطأ محض * والواقع أن حصار المغول لبغداد كان قد بلغ أشده في ذلك الوقت وأن مركز الخليفة كان قد أصبح حرجا خصوصا بعد أن قتل المعول الدفتردار وسليمان شاه وأتباعهما وبعد أن دب الرعب في قلوب البغداديين ؛ فخرج بعضهم يعرض تسليم المدينة على هولاءكو * ولو أن الخليفة لم يسارع الى الخروج وتقديم نفسه

Browne. Literary History of Persia, Vol. II, p. 461.

(١)

D Ohsson, Tome III, p. 231.

(٢)

الى هولاءكو لا اضطر فيما نرى الى التسليم بعد قليل او لدكيت عليه بغداد دكا .

(ب) تحليل أقوال المؤرخين الذين يدافعون عن ابن

العلقمي : واذا كنا لم نوافق الفريق الأول على مبالغته ، فأجدر بنا ألا نوافق الفريق الثاني على رأيه من أساسه . وليس هذا من جانبنا تسرعاً بل لأننا لو حاولنا أن نحلل ما قاله أفراد هذا الفريق لما ثبت لنا منها شيء . فابن طباطبا حين يحاول أن ينفي عن ابن العلقمي تهمة المخامرة ويدلل على ذلك بحسن معاملة هولاءكو ويقول « فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه » يبرهن على غير ما يقصد كما قال براون ويثبت بذلك أنه نظري يتناسى الناحية العملية في الموضوع . اذ المعقول أن هولاءكو وقد خامر من أجله الوزير لابد أن يكافئه ويقربه ثم يشركه في حكومة بغداد على أثر انتصاره كما أشرك غيره ممن خامر مثل ابن عمران . وليس هذا هو كل ما نراه في هذه المسألة المهمة بل ان ابن طباطبا حين يحاول مرة أخرى تبرئة ابن العلقمي في هذه الحكاية الطويلة التي تقدمت الإشارة إليها لا يوفق التوفيق كله لأن : أولاً - الذي يحكى عنه هذه الحكاية الطويلة هو ابن أخت الوزير ، وثانياً - لأنه يقول فلما حضر (ابن العلقمي) بين يدي السلطان (هولاءكو) وسمع كلامه وقع بموقع الاستحسان . وأى كلام يستحسنه هولاءكو الا اذا كان في مصلحته . وأى رجل يرضى عنه الا اذا كان في صفه او على الأقل قد ارتاح اليه . وثالثاً - لأنه يقول ان الذي تولى ترتيبه في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصير الدين محمد الطوسي . وهو على ما نعلم الخائن الذي كان سبباً في تسليم ركن الدين خورشاه رئيس الحشيشية ، كما انه هو الذي حرّض هولاءكو

حين حذره الفلكي حسام الدين من غزو بغداد على عدم سماع كلامه وعلى السير في تنفيذ خطته حتى النهاية ، وأكد له أنه سينجح فيما يقدم عليه . رابعا - لأنه يقول في آخر الأمر ان بغداد لما فتحت سلمت الى الوزير والى على بهادر ، وهل يعقل أن يسلمها هولاءكو اليه دون أن يكون ذلك مكافأة له على عمل أتاه ؟ وأي عمل أعظم في نظر هولاءكو من مساعدته على الوصول الى غرضه من دخول بغداد وازالة الخلافة العباسية منها .

أما رشيد الدين فانه وان حاول أن يظهر الوزير كرجل مخلص لا يختلف عن غيره من أتباع الخليفة الذين عملوا على نصرته في محنته النهم الا باختلاف رأيه في ضرورة استمالة المغول ، فانه في سياق كلامه ذكر أموراً لا يسمنا أن ندعها تمر دون أن نأخذها عليه لأننا نرى أنها كفيلة بهدم رأيه :

أولاً : ما ذكره من أن رسل هولاءكو عندما جاءوا الى بغداد لأول مرة يحملون الرسالة الأولى التي يدعو هولاءكو فيها الخليفة الى تجريد بغداد من الحصون وتقديم فروض الطاعة ، أهانهم أهل بغداد وبصقوا عليهم ومزقوا ثيابهم وأن الوزير هو الذي أرسل من خلصوهم منهم (١) .

ثانياً : بعد أن ذكر رشيد الدين أن الدفتردار وسليمان شاه أقنعا الخليفة بضرورة استعمال القوة ضد المغول قال(٢) : « وقد كان من أثر ذلك أن طلب الخليفة من الوزير أن يعد الجند حتى يوزع عليهم الذهب والفضة وأن يسلم قيادتهم لسليمان شاه حتى يبر بوعده ، وقد أحس الوزير بعدم رغبة

Quatremere, p. 237.

Ibid.

(١)

(٢)

الخليفة في صرف أمواله ولكنه أراد ألا يتعرض لغضب أعدائه فأمر بجمع الجند ولكنه طلب أن يكون جميعهم برفق وببطء حتى لا يحس العدو بحركتهم هذه ، وبعد أن أخبر الضابط الذي عهد اليه بجمع الجند الوزير بأن مهمته قد انتهت بعد خمسة أشهر وأن الجند ينتظرون الخليفة ليوزع عليهم الأموال ، لم يكن من الوزير الا أن أخبر الخليفة بذلك « فهو هنا يذكر أن الوزير عندما أمره الخليفة باعداد الجند لم تكن له رغبة في اعداده ولولا خوفه من أعدائه لما نفذ هذا الأمر ، هذا الى أن المؤرخ رشيد الدين لا يخفى عنا أن الوزير حين بدأ في التنفيذ أخذ يماطل ، محتجا بأن العدو عن قرب ويجب ألا يحس بحركتهم هذه ، وهذا يكفي فيما أرى لاظهار نواياه السيئة نحو الخلافة ولا أهمية لما ذكره قبل ذلك من أنه أحس بعدم رغبة الخليفة في صرف أمواله لأنه لو كان يريد حقا جمع الجند لما فقد الوسائل لجمع المال اللازم لهم » .

ثالثا : هذا الى أن رشيد الدين ذكر لنا أن الوزير خرج أكثر من مرة الى هولاءكو أثناء تبادل المراسلات بينه وبين الخليفة ، ومع ذلك لم يذكر لنا أن هناك أحدا اعتدى عليه ، مع أن الدفتردار وسليمان شاه كان نصيبهما القتل عندما وقعا في يد هولاءكو (١) .

رابعا : أن رشيد الدين لم يضمن علينا بما حدث في آخر الأمر حين ضاقت الدنيا في أعين الخليفة ، فانه ذكر أنه لما اشتدت به الحال على أثر قتل هولاءكو للدفتردار وسليمان شاه استدعى وزيره وسأله عما يفعله فأجابه بقوله :

يظنون أن الأمر سهل وانما
هو السيف حدث للقاء مضاربه

كما يذكر لنا أيضا أن هولاءكو بعد أن ذهب من بغداد
الى قرية وقف فى ١٤ من صفر سنة ٦٥٦ هـ استدعى الخليفة
اليه ، وأن الخليفة فى ذلك الوقت العيص سأل وزيره عما
يفعله فلم يكن منه الا أن أجاب بقوله « ان ذقنا طويلة »
متهمكما ومشيرا الى ما قاله الدفتردار عنه عند بدء الخطر
المغولى (١) . فقد أشار الوزير على الخليفة بارسال هدية
ولكن هذا لم يسمع له وسمع للدفتردار الذى نهاه عن سماع
الوزير واصفا له بهذا الوصف الذى قصد به أنه مكر
خبيث .

٥ - **الرأى الأخير فى ابن العلقمى :** اننا لا نسمعنا
بعد كل هذا الا أن نقول ان الوزير مؤيد الدين محمد بن
العلقمى لا يمكن أن يكون بريئا من تهمة الخيانة للخلافة
العباسية ، الا أنه فى الوقت نفسه لا يمكن أن يكون قد
ارتكب كل الجرائم التى حاول المؤرخون السنيون أن يسندوا
ارتكابها اليه . وكل ما فى الأمر أنه غضب لما حاق بطائفته
من المظالم ولتقديم الدفتردار الصغير عليه ؛ ولكنه كان عاجزا
كل العجز عن أخذ الثأر لنفسه وابعاد الأذى عن طائفته .
فلما جاء المغول وأحاطوا ببغداد وجد فيهم من يأخذ بثأره
وثأر طائفته ، كما رأى ببعد نظره أن النصر سيكون حليفهم
لقوتهم وضعف الخلافة العباسية ، لذلك نراه لا يتردد فى
اتخاذ سياسة تقربه من المغول وفى الوقت نفسه لا تثير شك

الخليفة فيه ، ولذلك أيضا نراه يتظاهر بأن من رأيه استمالة المغول بالمال لا ملاقاتهم بالقوة ، حتى اذا جاءت رسل هولاكو الى بغداد تحمل رسالته الأولى وهاجمهم البغداديون عند عودتهم أرسل الوزير بعض أعوانه ليخلصوا هؤلاء الرسل من أيديهم ، ومما تجب ملاحظته أيضا أن الوزير تباطأ في جمع الجند عندما كلفه الخليفة بجمعهم تنفيذا لرأى الدفتردار وسليمان شاه * وما امتناع الوزير عن تقديم المشورة للخليفة في آخر أمره وعندما أصبح الموقف حرجا الا لأنه رأى أن الانتصار قد أصبح من نصيب المغول ، كما أراد أن ينتقم من الخليفة الذي أبعده وشل يده عن مباشرة أمور الدولة * وليس ببعيد أن يكون ابن العلقمي في مراسلاته العديدة بين الخليفة وهولاكو عمل على الحصول على ثقة هولاكو باخباره بما يدور في بغداد ، كما أن نصير الدين الطوسي الذي كان مقربا من هولاكو محترما عند المغول استعمل نفوذه في مساعدته للحصول على رضا هولاكو فمهد له الطريق كل التمهيد ، وان لنا من قول ابن طباطبا الشيعي لدليلا على صحة هذا القول الأخير *

٣ - موقف أهل الذمة

علمنا مما تقدم كيف كان النصارى واليهود في بغداد يتمتعون بالطمأنينة في أحيائهم المنبثة في جميع الأنحاء ، ورأينا كيف كان رؤساؤهم ينعمون بالفنى والاحترام ، هذا الى أنهم كانوا جميعا يتمتعون بالحرية في أداء شعائر دينهم * وقد يدعونا ما كان لهم من مركز ممتاز في بغداد الى الاعتقاد بأنهم سيقفون جميعا صفا واحدا أمام أى خطر ينزل بالعباسيين ، ولكننا سنرى فيما يلى أن الواقع يكذب هذا الاعتقاد *

حقيقة أن اليهود وقفوا ازاء فتح المغول لبغداد موقفا يحسدون عليه ، فقد حاربوا حتى آخر لحظة مع اخوانهم المسلمين وقاسوا معهم ما قاسوا من المذابح التي أعقبت دخول بغداد (١) ، ولكن المسيحيين وقد كانوا يفوقونهم عددا كما كانوا أكثر منهم تقربا الى الخلفاء واتصالا بالحياة العامة في بغداد لم يفعلوا مثل ما فعل اليهود ، بل سالموا المغول وتقربوا اليهم وتمكنوا من كسب عطف هولاءكو بتأثير زوجته المسيحية دوكوز خاتون (٢) .

ولو أن فعل المسيحيين اقتصر على ذلك ، لكان من السهل ايجاد مبرر لهم سواء في حبهم في الحياة وتعلقهم بها أو في خوفهم من المغول خصوصا بعد أن أصبح نجاحهم أمرا متوقعا . ولكنهم وقد ضنوا بالحياة على بعض المسلمين عندما كان في قدرتهم تقديم المساعدة لهم لن يجدوا من يحاول الدفاع عن موقفهم . فقد صرح هولاءكو للبطريرك النسطوري بجمع المسيحيين في احدى الكنائس حتى يميزوا عن غيرهم فلا يتعرض لهم الجند المغولي عند نهب بغداد ، ففعل ، وحاول بعض المسلمين أن يأووا الى الكنيسة مع اخوانهم المسيحيين حتى ولو بتقديم كل ثرواتهم فلم يقبل البطريرك النسطوري وتركهم تحت رحمة السيف المغولي (٣) .

وعلى كل حال، فان المسيحيين لم يشتركوا مع المسلمين في الدفاع عن المدينة التي عاشوا فيها زمنا طويلا تحت ظل

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 152.

(١)

D'Ohsson Tome III, p. 270.

(٢)

D'Ohsson, Tome III, p. 241.

(٣)

Richard Coke, Baghdad the City of Peace, p. 149.

و

الخلفاء العباسيين ونجوا من العذاب الذى صبه المغول على
تلك المدينة وأهلها وكان موقفهم فى هذا الأمر يشبه تماما
موقف الشيعة • ولم يدافع عن بغداد فى محنتها ويلاقى
العذاب ألوانا الا أهل السنة واليهود •

خاتمة القول فى زوال الخلافة العباسية من بغداد

سرت موجة الضعف فى الخلافة العباسية منذ أيام المعتصم وانتهى الأمر بوقوع الخلافة تحت سيطرة الأجانب من بويهيين وسلاجقة * وهى وان تمكنت بعد ذلك من استعادة السلطة والتخلص من الأجانب والاستقلال بأمورها (٥٥١ - ٦٥٦ هـ) ، فان ذلك لم يكن سوى استيقاظ فجائى تبعه الزوال ، كما يحدث حين يتوهج المصباح قبل أن يخبو نوره *

ولا يمكننا أن ننسب زوال الخلافة العباسية من بغداد الى سبب واحد أو أن نبالغ كما بالغ مؤرخو العرب فى الدور الذى قام به مؤيد الدين محمد بن العلقمى حتى كادوا ينسبون اليه وحده سبب زوال الخلافة العباسية ، بل يحق لنا أن نرجع هذا الزوال الى عدة أسباب مشتبكة بعضها ببعض، منها اختلال الحالة الداخلية فى أملاك الخلافة من جميع نواحيها الحربية والسياسية والطائفية والعمرانية فى عهد الاستقلال الأخير ، ومنها اشتداد ساعد المفول وتوسعهم فى الفتح حتى أصبحوا فى أواخر عهد المستعصم يطوقون أملاك الخلافة العباسية من جميع الجهات تقريبا * ولا نكون مغالين اذا قلنا ان من هذه الأسباب نجاح الخلافة العباسية فى

سياستها الخارجية فى ذلك العهد ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك النجاح قد نظر إليه من ناحية الخلفاء بأكثر مما يستحق فظنوا أن الدول الإسلامية التى تحترمهم يمكنها أن تعين الخلافة اذا نزل بها مكروه أو حاق بها خطر من الأخطار ، على حين كانت هذه الدول قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال حتى أصبح أكثرها خاضعا لسلطان المغول . ولا يبعد أن يكون الخليفة المستعصم قد ترسم خطأ الخلفاء الذين سبقوه فى هذا المضممار ولا أدل على ذلك من عدم اهتمامه بدعوة هولاءكو له الى التسليم وركوبه متن الشطط حتى قال له فى كتابه اليه كما سبق أن ذكرنا : « ان ملايين من الخيالة والرجالة على استعداد للحرب رهن اشارتى حتى اذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر » .

كان زوال الخلافة على أيدي المغول سنة ٦٥٦ هـ حدا فاصلا بين عهدين فى بغداد ، عهد تسلط على العالم الاسلامى فى السياسة والآداب والعلوم والفنون انقضى وعهد تقلص فى النفوذ السياسى والأدبى والفنى بدأ يظهر شبحة المخيف . فقد كانت بغداد قبل هذا الحادث المشؤم حين كان يقيم فيها الخليفة العباسى - اللهم الا اذا استثنينا هذه الفترة التى انتقلت فيها حاضرة الدولة الى سامرا (٢٢١ - ٢٧٩ هـ) - رأس العالم الاسلامى وقلب الاسلام النابض . وكانت وان فقدت قوتها المادية لما أصاب الخلافة من ضعف وانحلال لا تزال محل احترام جميع المسلمين ، كما ان نفوذها المعنوى كان لا يزال ينتشر فى الأرجاء الإسلامية ، وكان الأمراء والسلاطين المسلمون يلتمسون القوة لعروشهم والشباب فى نظر الجماهير باعتراف الخليفة العباسى بسلطانهم . هذا الى أن الخلفاء العباسيين كانوا يعملون على تشجيع العلماء وتقريب أهل

الأدب ويشيدون العمارات الفخمة ويجمعون الكنوز النفيسة التي أدهشت المغول حين استولوا على بغداد ، كما أدهشت كنوز فارس العرب عندما فتحوا تلك البلاد في فجر الاسلام . وبعد أن انتشر النفوذ المغولي ذبلت بغداد وتخلت عن مركز الرئاسة السياسية وذلك لأن أبناء هولاء حين أقاموا مملكة لأسرتهم في غرب آسيا تدخل تحت سيطرتها فارس والعراق العربي قسموها الى قسمين ، وجعلوا بغداد عاصمة لأحدهما وهو العراق العربي ولكنها لم تكن ذات نفوذ وكان يزورها أبناء هولاء أحيانا كما كان بعضهم يقضى الشتاء فيها ، وكانت أصبهان عاصمة للقسم الثاني أعلى منها درجة وارفح مكانة (١) .

تلك هي حالة بغداد السياسية منذ زالت الخلافة منها على أيدي المغول . أما الحالة الأدبية فيها فقد انحطت تماما بعد ذلك الوقت ؛ إذ أحرق المغول الكتب وقتلوا الأدباء وشتتوا من نجا منهم من الموت ، كما أنهم بعد أن استقر لهم الأمر في بغداد لم يكن يهمهم ازدهار الأدب العربي وذلك يفسر لنا كيف تنحط بغداد عن مركز الصدارة الأدبية وخلفتها في ذلك مدينة القاهرة التي أصبحت في أيام المماليك مركزا للعلماء والأدباء ، والتي ساعدت على نقل آراء الشرق الى الغرب ، ثم كانت بذلك من بين العوامل في ايقاظ النهضة في أوروبا (٢) .

ولم يقتصر التغيير الذي حدث في بغداد بعد زوال الخلافة العباسية منها على الناحية السياسية والأدبية بل

Coke, Baghdad, p. 155.

(١)

Nicholson, Literary Hist. of the Arabs, p. 443.

Camb. Med. History Vol, pp. 464-643.

(٢) ر

تعدى ذلك الى الناحية الاجتماعية وحالة الطبقات . فالشيعة الذين مالوا المغول وتقربوا الى هولاء ظلوا طوال حكم أحفاده ايلخانات فارس في احسن حال ، وبلغ من ذلك ان بنى السلطان غازان محمود (١٢٩٦ م) تكايا تعرف بدار السیادات لأحفاده على الفقراء ، كما أن اخاه السلطان أوبلايتو اعتنق مذهبهم وحاول أن يفرضه على أفراد أسرته (١) . وكان السنيون على العكس من ذلك في أسوأ حال في حكم المغول . أما المسيحيون الذين ساعدوا هولاء فقد لاقوا من ايلخانات فارس كثيرا من العسف وفقدوا ما كان لهم من الحقوق في أيام الخلفاء العباسيين ، وكان ذلك أحسن جزاء لهم على خيانتهم ، وقد بلغ من سوء حالهم أن البطريق النسطوري اضطر الى نقل بطريقيته من بغداد الى أربل؛ ليتفادى ما كان ينزل به من اضطهاد ، كما أن جميع المسيحيين في بغداد في أيام السلطان محمود غازان (١٢٩٦ - ١٣٠٥ م) حين قوى الشعور ضدهم اضطروا الى التزام منازلهم وصارت نساءهم يذهبن الى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم ؛ وذلك لأنهن كن يلبسن ثياب المسلمات فلا يمكن تمييزهن (٢) .

ولم يقتصر الأثر الذي أحدثه زوال الخلافة العباسية على تغيير الحال في بغداد ، بل تعدى ذلك الى العالم الاسلامي كله ، ذلك لأن زوال الخلافة العباسية من بغداد كان معناه زوال آخر حكومة عربية لها شبه سيطرة على العالم الاسلامي وتحول النفوذ الى الدول الأعجمية . فالمغول نشروا نفوذهم في فارس والعراق العربي (١٢٥٧ - ١٢٣٥ م) وقامت على أنقاض دولة الروم السلاجقة في آسيا الصغرى عشر

Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 163, 165.

(١)

Coke, Baghdad the City of Peace, pp. 158, 164.

(٢)

امارات تركية صغيرة (١) ، وتمكن المماليك بعد صد تيار المغول وهزيمتهم فى عين جالوت من تركيز سلطتهم فى مصر والشام ، كما قامت فى شمال أفريقية أسرات حاكمة من البربر على أنقاض دولة الموحدين مثل الأسرة المرينية أو أسرة بنى مرين التى حكمت فى مراكش مدة طويلة (٥٩١ - ٨٧٥ هـ = ١١٩٥ - ١٤٧٠ م) والأسرة الحفصية التى حكمت فى تونس أكثر من ثلاثة قرون (٦٢٦ - ٩٨١ هـ = ١٢٢٨ - ١٥٧٤ م) والأسرة الزيانية أو أسرة بنى زيان التى حكمت فى الجزائر منذ سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) حتى فتحها العثمانيون سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) (٢) .

وإذا كانت قد ظهرت فى العالم الاسلامى بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد دويلات عربية ، فقد كانت هذه الدويلات ضعيفة عاجزة ، كما أنها لم تتمكن من الاحتفاظ بسلطتها زمنا طويلا بل انتهى أمرها بالزوال على ايدى الأعاجم أو بالخضوع لهم ، مثال ذلك امارة بنى نصر فى غرناطة التى قامت فى اسبانيا سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) على أنقاض دولة الموحدين وامارة بنى رسول التى قامت فى بلاد اليمن وحكومات أشراف مكة والمدينة التى دانت بالطاعة لسلطين المماليك فى مصر ثم لسلطين العثمانيين وظلت على ذلك حتى القرن التاسع عشر (٣) .

(١) هذه الامارات هى كراسى Karasi وصاروخان Sarukhan وأيدى Aydin ومنتشا Mantasha وتكا Takka وحيد Hamid وقرمان Karaman وكرميان Karmiyan وقوزال أحمدلى Kizil Ahmadly وعثمان Osman Lane-Poole, Muh. Dyns, pp. 49-57, 80, 184-194, 246, 249. (٢) Cam Med. Hist. Vol. IV, p. 643; Encyc. Islam ; Arts. Hafside Zayanids. ملاحظه . أسس امارة بنى رسول عمر بن رسول الذى كان حامكا لمكة من قبل بنى أيوب سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م . (٣) Lane-Poole, Muh. Dyns., pp. 27, 99-103. Enc. Islam, Arts. Mekka, Medina, San'a Zabid و

هذا فيما يتعلق بحالة بغداد وحالة العالم الاسلامى بعد زوال الخلافة العباسية على ايدى المغول . اما الخلافة نفسها فلم يكن فى زوالها هذه المرة نهاية العهد بها ، بل انها انتقلت الى مصر حين رأى الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) أحد السلاطين المماليك فى مصر ان وجودها يشد من أزرها ويكسب حكمه صبغة شرعية هو فى أشد الحاجة اليها لاستناده على القوة وحدها . وقد اتبع السلاطين المماليك الذين جاءوا بعده هذه الطريقة ، واستمرت الخلافة فى القاهرة نحو قرنين ونصف قرن (٦٦٠ - ٩٤٩ هـ = ١٢٦٢ - ١٥٤٣ م) ، وكان أفرادها شبه أسرى يعتمدون على كرم المماليك وعطفهم ولا يتدخلون فى شئون الحكم ، بل يقضون أوقاتهم فى زيارة الأمراء وحضور الولائم ، كما أنهم كانوا يحضرون تقليد السلطان الجديد ، وبالجملة فقد كانت حالتهم لا تختلف كثيرا عن حالة مشايخ الطرق الصوفية فى أيامنا هذه (١) .

مصادر الكتاب

(أ) المصادر العربية :

١ - ابن الأثير (٦٣٠ هـ - ١٢٣٨ م) - على أحمد بن
أبى الكرم ، الكامل فى التاريخ ١٢ جزءا (المطبعة
الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ)

٢ - البندارى (من علماء القرن السابع) - الفتح بن على
زبدة النصر ونخبة العصرة (القاهرة سنة ١٢١٨ هـ)

٣ - ابن جبير (٦١٤ هـ - ١٢١٧ م)
رحلة ابن جبير (القاهرة سنة ١٩٠٨ م)

٤ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
الفاطميون فى مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٣ م)

٥ - حسن ابراهيم حسن (الدكتور)
تاريخ الاسلام السياسى (القاهرة سنة ١٩٣٥ م)

٦ - ابن خلدون (٨٠٨ هـ - ١٤٠٤ / ١٤٠٥ م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء
(بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

- ٧ - ابن خلكان (٦٨١ هـ - ١٢٨١ م)
وفيات الأعيان جزءان . (بولاق سنة ١٢٧٥ هـ)
- ٨ - الديار بكري (٩٦٦ هـ - ١٥٥٨ / ١٥٥٩ م)
الخميس في أحوال أنفس نفيس جزءان
(القاهرة سنة ١٨٢٣)
- ٩ - الذهبي (٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ / ١٣٤٨ م) - شمس الدين
محمد بن أحمد - كتاب دول الاسلام جزءان (مطبعة
دائرة المعارف النظامية - حيدر آباد سنة ١٣٣٧ هـ) .
- ١٠ - السيوطي (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) - عبد الرحمن بن
أبي بكر جمال الدين .
تاريخ الخلفاء
(القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ)
- ١١ - ابن شاكر الكتبي (٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م)
فوات الوفيات جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩ م)
- ١٢ - أبو شجاع (٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م) - محمد بن
الحسين بن عبد الله الوزير ظهير الدين أبو شجاع
الروذراوري
ذيل كتاب تجارب الأمم . (القاهرة سنة ١٩١٤ م)
- ١٣ - الصولي (٣٣٠ هـ - ٩٤١ / ٩٤٢ م) - أبو بكر محمد
ابن يحيى
كتاب الأوراق الجزء الثالث (القاهرة سنة ١٩٣٥ م)
- ١٤ - ابن طباطبا (انتهى من وضع كتابه سنة ٧٠١ هـ)
الفخرى في الآداب السلطانية (القاهرة سنة ١٩٢٧ م)

- ١٥ - ابن العبري (٦٨٤ هـ - ١٢٨٦ م) - جريجورى
أبو الفرج بن هرون الملقب
تاريخ مختصر الدول (المطبعة الكاثوليكية للآباء
اليسوعيين ، بيروت سنة ١٨٩٠ م) .
- ١٦ - أبو الفدا (٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م)
المختصر فى أخبار البشر ٤ أجزاء (المطبعة الحسينية
بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هـ)
- ١٧ - القلقشنبدى (٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) - أبو العباس
أحمد ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ جزءا
(القاهرة سنة ١٩١٣ - ١٩١٧ م)
- ١٨ - المسعودى (٣٤٦ هـ - ٩٥٦ م)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان
(بولاق سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م)
- ١٩ - مسكويه (٤٢١ هـ - ١٠٣١ م)
تجارب الأمم (القاهرة سنة ١٩١٤ م)
- ٢٠ - المقرئى (٨٥٤ هـ - ١٤٤١ م)
السلوك فى معرفة دول الملوك الجزء الأول فى مجلدين
(نشره الدكتور زيادة) .
- ٢١ - النسوى (من علماء القرن السابع) - شهاب الدين
محمد بن أحمد ، سيرة جلال الدين منكبرتنى (باريس :
سنة ١٨٠١ م تصحيح هوداس)

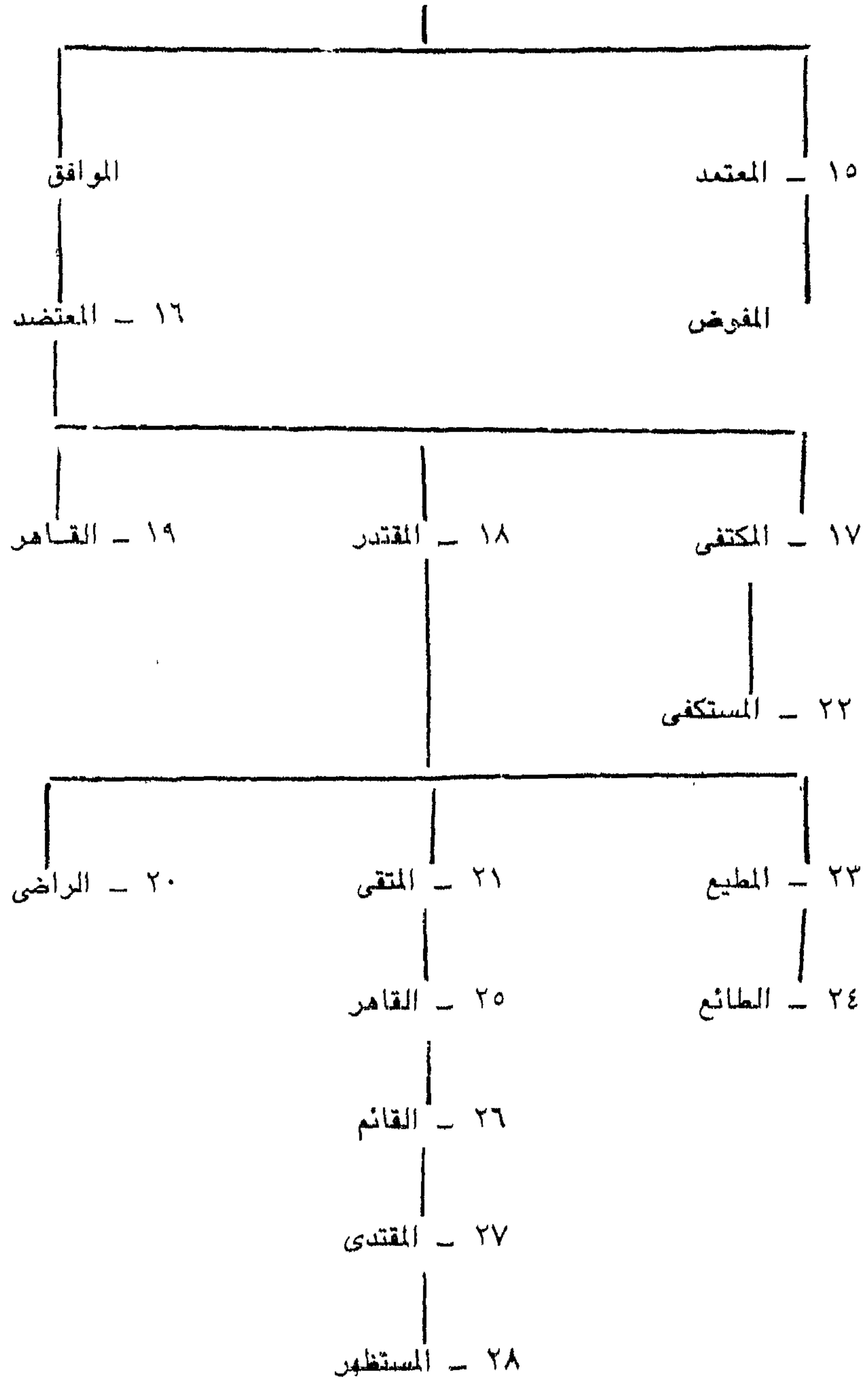
- ٢٢ - هلال الصابىء (٤٤٨ هـ - ١٠٥٦ م) - أبو الحسن
ابن المحسن بن أبى اسحاق ابراهيم
الجزء الثامن من تاريخ الوزراء
(القاهرة سنة ١٩١٤ م)
- ٢٣ - ياقوت (٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م) - شهاب الدين
أبو عبد الله الحموى الرومى
معجم البلدان ١٢ جزءا (القاهرة سنة ١٩٠٦ م) .

(ب) المصادر الاجنبية :

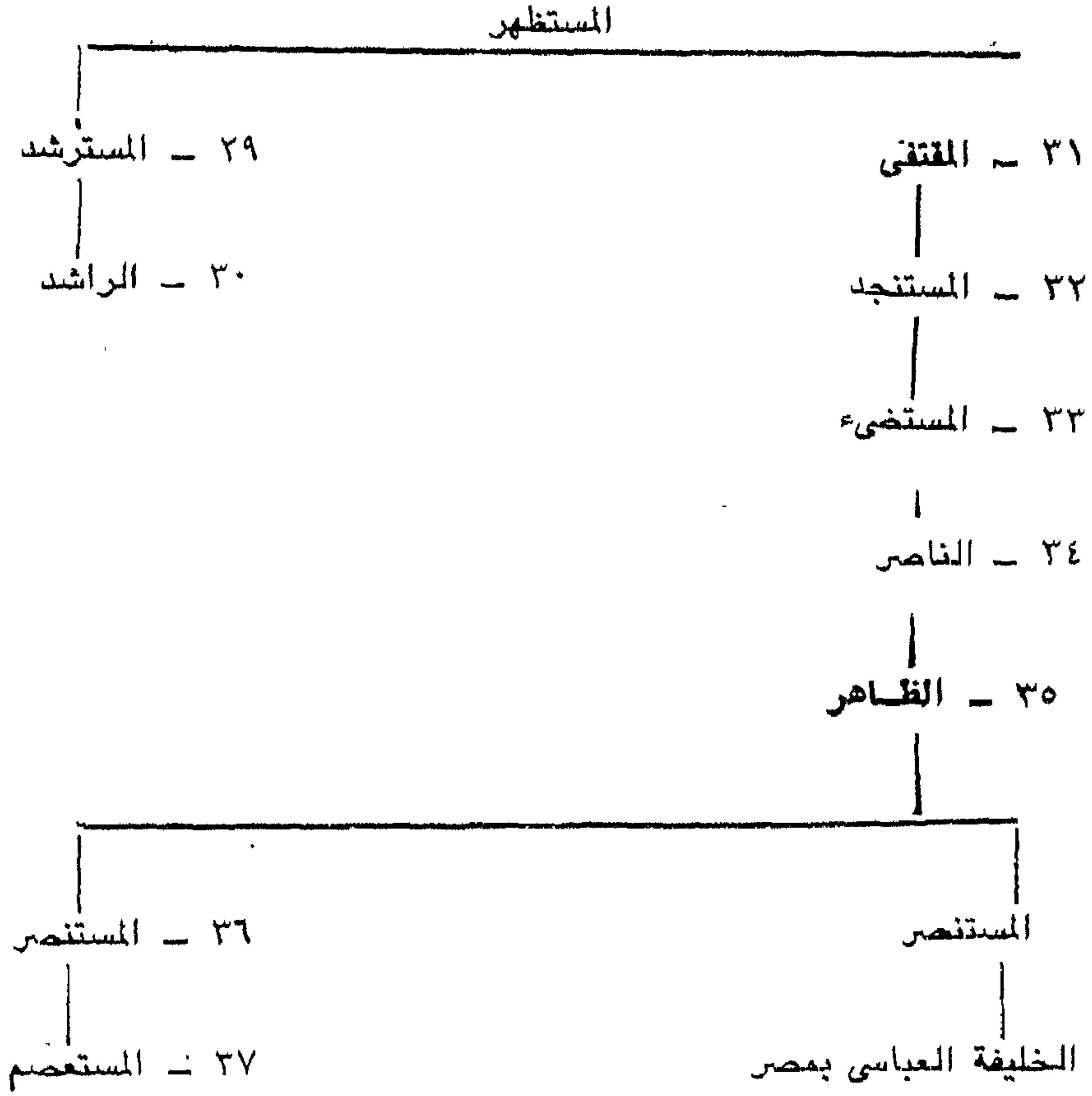
1. Arnold (T. W.), The Caliphate (Oxford, 1924).
2. Asher (trans), Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, vols 1-11. (London & Berlin 1840, 1841).
3. Browne, Literary History of Persia, vols., I (London 1909). II (London 1906).
4. Browne, Account of a Rare Manuscript History of the Seljuks. (Hertford, 1906).
5. Coke (Richard), Baghdad the City of Peace. (London 1927).
6. Gilman. The Saracens from the Earliest Times to the Fall of Baghdad. (London, 1895).
7. Harold Bowen. Life and Times of Aly Ibn Iea « The Good Vizier ». (Cambridge, 1926).
8. Howorth, History of the Mongols, I-IV. (London 1927).
9. Khuda Bukhsh, Contributions to the History of the Isamic Civilisation. (Calcutta, 1905).
10. Lane-Poole (Stanley), The Muhammadan Dynasties, Chronological and Goniological Tables with Historical introduction. (Westminster, 1893) and (Paris, 1925).
11. Muir (William), The Caliphate, its rise, Decline & Fall. (Edinburgh, 1924).
12. Nicholson, Literary History of the Arabs (London 1914).
13. Noelaেকে, Sketches from Eastern History.
14. D'Ohsson, Histoire des Mongols Depuis Tchinguiz Khan Jusqu'a Timour Bey ou Tamerlan, Tomes I-IV (Amsterdam 1852).
15. Osborn, Islam under the Caliphs of Baghded London, 1876).
16. Quatremère (trad), Histoire des Mongoles.
17. Sayed Ameer Aly, A Short History of the Saracens (London 1916).
18. G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphete. (Oxford 1900).
19. Cambridge Medieval History, vol. IV.
20. Encyclopedia of Islam.
21. Encyclopedia Brittanica.

سلسلة نسب الخلفاء العباسيين المتأخرين

المتوكل



(تابع) سلسلة النسب



جدول

يبين مدة حكم الخلفاء العباسيين المتأخرين
(٢٥٦ - ٦٥٦ هـ / ٨٧٠ - ١٢٥٨ م)

| الاسم | التاريخ الهجرى | التاريخ الميلادى |
|----------|----------------|------------------|
| المعتد | ٢٥٦ | ٨٧٠ |
| المعتضد | ٢٧٩ | ٨٩٢ |
| المكتفى | ٢٨٩ | ٩٠٢ |
| المقتدر | ٢٩٥ | ٩٠٨ |
| القاهر | ٢٢٠ | ٩٣٢ |
| الراضى | ٢٢٢ | ٩٣٤ |
| المتقى | ٢٢٩ | ٩٤٠ |
| المستكفى | ٢٣٣ | ٩٤٤ |
| الطبيع | ٢٣٤ | ٩٤٦ |
| الطائع | ٢٦٣ | ٩٧٤ |
| القادر | ٢٨١ | ٩٩١ |
| القائم | ٤٢٢ | ١٠٣١ |
| المقتدى | ٤٦٧ | ١٠٧٥ |
| المستظهر | ٤٨٧ | ١٠٩٤ |
| المسترشد | ٥١٢ | ١١١٨ |
| الراشد | ٥٢٩ | ١١٣٥ |
| المقتفى | ٥٣٠ | ١١٣٦ |
| المستنجد | ٥٥٥ | ١١٦٠ |
| المستظفر | ٥٦٦ | ١١٧٠ |
| الناصر | ٥٧٥ | ١١٨٠ |
| الظاهر | ٦٢٢ | ١٢٢٥ |
| المستنصر | ٦٢٣ | ١٢٢٦ |
| المستعصم | ٦٤٠ - ٦٥٦ | ١٢٤٢ - ١٢٥٨ |

اقرأ في هذه السلسلة

| | | |
|---|--|---|
| جوزيف دامموس سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى | بيل شول وأدبنيث القوة النفسية للأمراض د صفاء خلوصى فن الترجمة رالف ثى ماتلو تولستوى | برتراند رسل أحلام الأعلام وقصص أخرى ي. رادو نكايانوم جادو المسكى الإلكترونيات والحياة الحديثة آلدس هكسلى قطرة مقابل قطرة |
| د. لينواير تشامبرزرايت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر | د. جرن شندلر كيف تعيش ٣٦٥ يوماً في السنة | ت. و. مريمان الجغرافيا في مائة عام رايموند وليامز الثقافة والمجتمع |
| بيير البير الصحافة | ميكنر هوجو وسائل وأحداث من الملفى | ر. ج. فوريس و. ح. نيكستر هور تاريخ العلم والتكنولوجيا ٢ ج |
| د. غبريال ومبة الر الكوميديا الإلهية لداقتي في الفن التشكيلي | فيرنر هيرنبورج الجزء والكل « محاورات في مضمنا الفيزياء الذرية » | ليسترديل راي الأرض الغامضة والتر آلن الرواية الإنجليزية |
| د. رمسيس عوض الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها | سدنى هوك التراث الغامض . ماركس والماركسيون | لويس فارجاس المشهد الى فن المسرح |
| د. محمد نعمان جلال حركة عدم الانحياز في عالم متغير | ف. ع. دينكوف فن الادب الروائى عند تولستوى | فرانسوا دوماس آلهة مصر |
| فرانكلين ل. بارمر الفكر الأوروبي الحديث ٤ ج | هادى نعمان الهيتى ادب الأطفال « فلسفته ، فنونه وسائطه » | د. قدرى حفى وأخرون الإنسان المصرى على الشاشة |
| شوكت الربيعى الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربى | د. نعمة رحيم العزاوى أحمد حسن الزيات كاتبا وثاقدا | أولج فولكف القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة |
| د. محى الدين أحمد حسين التنشئة الأسرية والإبناء الصغار | د. فاضل أحمد الطائى أعلام العرب في الكيمياء | هاشم النحاس لهوية القومية في السينما |
| ج. دادلى أندرو نظريات القيم الكبرى | جلال العشرى فكرة المسرح | ديفيد وليام ماكسوال مجموعات الفقود . صيانتها كصنعتها - عرضها |
| جوزيف كونراد مختارات من الأدب القصصى | هنرى باربوس الجحيم | عزيز الشوان الموسيقى تعبير نفى ومنطق |
| د. جوهان دورشنر الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد | السيد عليوة صنع القرار السياسى في مؤسسات الإدارة العامة | محسن جاسم الموسوى عصر الرواية |
| طائفة من العلماء الأمريكيين ميسادة الدفاع الاستراتيجى حرب الفضاء | جاكوب برونوفسكى التطور الحضارى للإنسان | ديلان ترماس مجموعة مقالات نقدية |
| د. السيد عليوة إدارة الصراعات الدولية | د. روجر ستروجان هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟ | جون لويس الإنسان ذلك الكائن الفريد |
| د. مصطفى عنسانى الميكروكمبيوتر | كاتى ثير قريبة الدواجن | جول ويست الرواية الحديثة . الإنجليزية والفرنسية |
| مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والحديثين مختارات من الأدب اليابانى « الشعر - الدراما - الحكاية - القصة القصيرة » | ٠١ سينس الموتى وعالمهم في مصر القديمة | د. عبد المعطى شعراوى المسرح المصرى المعاصر أصله ويدايتة |
| | د. ناعوم بيتروفيتش النحل والطب | أنور المعداوى على محمود طه الشاعر والإنسان |

| | | |
|---|--|--|
| ب. كومانز الأساطير الاغريقية والرومانية | روى روبرتسون الهيرويين والايدين واثريهما في المجتمع | جابريل باير تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة |
| د. توماس ا. هاريس التوافق النفسى - تحليل المعاملات الانسانية لجنة الترجمة ، الجلس الاعلى للثقافة الدليل الجيولوجيا في روائع الاداب العالمية ج ١ | دور كاس ماكلينتوك صور افريقية • نظرة على حيوانات افريقيا | نطرنى دى كرسبى وكينيث هينوج اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة |
| روى آرمن لغة الصورة فى السينما المعاصرة | هاشم النحاس فجيب محفوظ على الشاشة د. محمود سرى طه | دوايت سوين كتابة السيناريو للسينما |
| تاجاى متشيو الثورة الاصلاحية فى اليابان | بيتر لورى المخدرات حقائق نفسية | زافيلسكى ف. س الزمن وقياسه (من جزء من البليون جزء من الثانية وحتى مليارات السنين) |
| بول هاريسون العالم الثالث غدا | بوريس فيدوروفيتش سيرجيف وقائف الاعضاء فى الالف الياء | مهندس ابراهيم القرضاوى اجهزة تكييف الهواء |
| ميكايل المي وجيمس لفلوه الانقراض الكبير | ويليام بينز الهندسة الوراثية للجميع | بيتر رداى الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى |
| آدامز فيليب دليل تنظيم المتاحف | ديفيد الدرتون تربية اسماك الزينة | جوزيف دامموس سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى |
| فيكتور مورجان تاريخ النقود | احمد محمد الشنوائى كتب غيرت الفكر الانسانى | س. م. بورا التجوية اليونانية |
| محمد كمال اسماعيل التحليل والتوزيع الاوركستراى | جون • ر. بورر وميلتون جولدينجر الفلسفة وقتضايا العصر ٣ ج | د. عاصم محمد رزق مراكز الصناعة فى مصر الاسكانية |
| ابو القاسم الفردوسى الشاهنامة ٢ ج | ارنولد توينبى الفكر التاريخى عند الافريق | رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون العلم والطايق والندارس |
| بيرتون بورتر الحياة الكريمة ٢ ج | د. صالح رضا ملاحج وقتضايا فى الفن التشكيلى المعاصر | د. انور عبد الملك الشارح المسمى والفكر |
| جاءه كرايس جونيور كتابة التاريخ فى مصر القرون القاسم عشر | م. ه. كنج وآخرون التغذية فى البلدان النامية | ولت وتيمان روستو حوار حول التنمية الاقتصادية |
| محمد فؤاد كبرى قيام الدولة العثمانية تولى بار التمثيل للسينما والتلفزيون | جورج جاموف يداية بلاد نهاية | فرد • س. هيس تسيعه الكيمياء |
| تاجور ، شين بن بنج وآخرون مفكرات من الاداب الاسيوية | د. السيد طه السيد ابو سديرة الحرف والاصطفات فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى حتى نهاية العصر الفاطمى | جون لويس بيركهارت العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية فى عهد محمد على |
| ناصر خسرو علوى سفرنامه | جاليليو جاليليه حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ٢ ج | الانج كاسبار التقوى السيخى |
| نادين جورديمر وجريس اوجوت آخرون سقوط المطر وقصص اخرى | اريك موريس والان مو الارهاب | سار ، عبد السلى التشديد السياسى فى مصر بين الشريعة والتاريخ |
| احمد محمد الشنوائى كتب غيرت الفكر الانسانى ٧ ج | سيرل الدريد اختاتون | فريد مويل وشاندرا ويكراما سينج البثور القوية |
| جان لويس بورى وآخرون فى النقد السينمائى الفرنسى | ارثر كيستلر القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم | حسين حلمى المهندس دراما الشاشة (من التثلية والتطبيق) للسينما والتلفزيون ٢ ج |

| | | |
|--|---|--|
| كريستيان ساليه السيناريو في السينما الفرنسية | هـ - بيارد دودج الأزهر في ألف عام | موريس بير براير صناع الخلود |
| بول وارن هفايا نظام النجم الأمريكي | ميتيفن رانسيما الحملات الصليبية | زيجمونت هين جماليات فن الاخراج |
| جورج ستاينر بين تولستوى ودوستويفسكى ج ٢ | هـ - ج - ولز مهاجم تاريخ الانسانية ج ٤ | جوناثان ريلى سميث الحملة الصليبية الاولى وفكرة الحروب الصليبية |
| يانكو لافرين الرومانتيكية والواقعية | جوستاف جرونبارم حضارة الاسلام | المفريد ج - بتلر الكنائس القبطية القديمة في مصر ج ٢ |
| محمود سامى عطا الله الفيلم التسجيلي | د - عبد الرحمن عبد الله الشيخ رحلة يبرتون الى مصر والحجاز ج ٣ | ريتشارد شاخز رواد الفلسفة الحديثة |
| جوزيف بتس رحلة جوزيف بتس | جلال عبد الفتاح المكون ذلك المجهول | ترانيم زرادشت من كتاب الاوستا المقدس |
| ستانلى جيه سولومون انواع الفيلم الاسيركي | ارنولد جزل وآخرون الطفل من الخامسة الى العاشرة ج ٢ | الحاج يونس المصري وحالات فارتيما |
| مارى ب - ناش الحمر والبيض والسود | بادى اونيمود افريقيا - الطريق الآخر | هربرت ثيلر الاتصال والهيمنة الثقافية |
| جوزيف م - يوجن فن الفرجة على الاقدام | د - محمد زينهم فن الزجاج | برتراند راسل السلطة والفرد |
| كريستيان ديروش نوبلكر المرأة الشفهوية | برنسلار مالمينوفسكى اليسر والعلم والدين | بيتر نيكوللز السينما الخيالية |
| جوزيف يندهام موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين | ادم متز الحضارة الاسلامية | ادوارد ميرى عن النقد السينمائي الأمريكي |
| ليونارد دافنشى نظرية التصوير | فانس بكارد انهم يصنعون البشر | نفتالى لويس مصر الرومانية |
| ت - ج - هـ - جيمز كتونز القراهنة | عبد الرحمن عبد الله الشيخ يوميات رحلة فاستكو داخاما | ستيفن اوزمنت التاريخ من شتى جوانبه ج ٣ |
| رودولف فون هابسبورج رحلة الامير رودولف الى الشرق ج ٣ | ايقرى شاترمان كولنا المتعدد | موني براح وآخرون السينما العربية من الخليج الى المحيط |
| مالكوم برادبرى الرواية اليوم | سوندارى الفلسفة الجوهرية | فانس بكارد انهم يصنعون البشر ج ٢ |
| وليم مارسدن رحلة ماركس بولو ج ٣ | مارتن فان كريفلد حرب المستقبل | جابر محمد الجزار مستويضت |
| هنرى بيرلين تاريخ أوروبا في العصور الوسطى | فرانسيس ج - برجين الاصنام القبطية | ابرار كريم الله من هم الناس |
| ديفيد شلندر نظرية الادب الخاص وقراءة الشعر | عبد مباحر البحرية المصرية من محمد على للسلاطات | ج - س - فريزر الكاتب الحديث وعالمه |
| اسحق عظيموف العلم والحق المستقبل | ج - كارفيل تبسيط المفاهيم الهندسية | سوريال عبد الملك حديث الفهم من روائع الادب الهندية |
| رونالد دافيد لانج الحكمة والجنون والحماة | توماس ليهارت فن المايم والبانتميم | لوريكو تود مدخل الى علم اللغة |
| كارل بوهر بحثا عن عالم الفصل | ادوارد دوبونو التفكير المتجدد | اسحق عظيموف الشموس المتفجرة |
| فرمان كارك الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا | ويليام هـ - ماثيوز ما هي الجيولوجيا | اسرار السويى شوقا مارجريت روز ما بعد الحداثة |

| | | |
|---|--|--|
| روبرت سكولز وآخرون اتفاق أدب الخيال العلمي | ونفرد هولر كائنات ملكة على مصر | المسيد نصر الدين السيد اطلسلات على الزمن الآتى |
| ب' س ديفيز المفهوم الحديث للمكان والزمان | جيمس هنرى برستند تاريخ مصر | ممدوح عطية البرنامج النووى الاسرائيلى والامن القومى العربى |
| س' هوارد اشهر الرحلات الى غرب افريقيا | بول دافير الدقائق الثلاث الاخيرة | د ليوبوسكالنا الحب |
| و' بارتولد تاريخ الترك فى اسيا الوسطى | جوريف ومارى فيلدمان دينامية الفيلم | ايغور ايفانس مجموع تاريخ الادب الانجليزى |
| فلاديمير تيمانيانو تاريخ اوربا الشرقية | ج' كونتنو الحضارة الفينيقية | هيربوت ريد التربية عن طريق الفن |
| ابرييل حاحارسيا ماركيز الجنرال فى المتاهة | ارنست كاسيرو فى المعرفة القاء فيه | وليام بينر معجم التكنولوجيا الحيوية |
| هنرى برجسون الضحك | كنت ا كشم ومسيس الثانى | الفين توملر تحول السلطة |
| مصطفى محمود سليمان الزلازل | جان برل سارتر وآخرون مختارات من المسرح العالمى | يوسف شرارة مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية |
| م و ثرنج مقيم المهندس | روزالند وحاك يانس الطفل المصرى القديم | رولاند حاكسون الكيمياء فى خدمة الانسان |
| ر' جرتز الحيثيون | نيكولاس ماير شرلوك هولمز ميجيل دى ليس الفتنان | ت ج جيمر الحناه ايام الفراعنة |
| ستيفر مرسكاتم الحضارات السامية | جوسسى دى لونا موسولينى | حرج كاشمان ماذا تنشب الحروب |
| البرت حوراسى تاريخ الشعوب العربيه | الوير حرايتر موتسارت | حسام الدين ركبيا انطون بروكتر |
| محمود فاسم الادب العربى المكتوب بالفرنسيه | على عبد الرؤوف الممر مختارات من الشعر الاسبانى | اررا ف هوجل المعجزة البابائيه |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٤٤١/١٩٩٨

ISBN — 977 — 01 — 6014 — 8

فى أواخر القرن الثانى عشر، توحدت قبائل المغول البربرية على يد
تيموجين، أحد زعماء قبائلها، الذى أسمى نفسه باسم جانكيزخان. وانطلقت
تلك القبائل من مواطنها الصحراوية المجدية فى وسط آسيا لتعيث فى الأرض
فساداً، شرقاً فى الصين، وجنوباً فى الهند، وشمالاً فى روسيا. وكان من أولى
ضحاياها الممالك الإسلامية الشرقية فى فارس والعراق والشام. وقد عامل
المغول الشعوب المفتوحة بقسوة ووحشية باتت مضرِباً للمثل على مدار
التاريخ، وكان استخفافهم بالحياة الإنسانية لا حدود له، فلم يتورعوا عن قتل
الأسرى والتتكيل بأهل المدن المفتوحة، حتى لمن حصلوا منهم على عهود
بالأمان، ولم يقيموا وزناً ولا احتراماً للتراث الثقافى والحضارى لتلك الأمم،
فكان الخراب والدمار يسيران فى ركابهم أينما حلُّوا. وقد تضافر مع العبقرية
الحربية والاستراتيجية لجانكيزخان وغيره من قادة المغول، ما كان العالم
الإسلامى يعانيه من ضعف ووهن بسبب التمزق والفرقة. ولم تستطع الجيوش
وقف تقدم المغول الذين اجتاحتوا إيران، ثم العراق وبعدها الشام، ولم يعد
أمامهم سوى مصر لى يسيطروا سلطانهم على العالم الإسلامى، ولولا بسالة
جيش مصر بقيادة السلطان سيف الدين قطز الذى ألحق بالمغول أول هزيمة
كبرى لهم فى عين جالوت، لربما تغير تاريخ العالم ولربما انقطعت مسيرة
الحضارة الإنسانية. وهذا الكتاب يعرض لخطر من تلك الصفحة الدموية فى
تاريخ الحضارة الإسلامية التى وصفها المؤرخون المعاصرون بأنها من أشد
المحن والنكبات التى ألمت بالإسلام.